









مُحَمَّد بازِي

البُنى الاستعاريّة

نَحْوَ بَلاغةٍ مُوسَّعَةٍ



قضايا نقدية

البُنى الاسْتِعارِيَّةُ

نَحْوَ بَلاغَةٍ مُوَسَّعَةٍ

البُنى الاِسْتِعارِيَّةُ

نَحْوَ بَلاغَةٍ مُوَسَّعَةٍ

مُحَمَّد بازِّي









الطبعة الأولى: 1438هـ - 2017 م

ردمك 978-614-021498-9

ردمك 978-9938-902-12-6



كلمة للنشر والتوزيع
12 نهج بيروت، 2080 أريانة - تونس
الهاتف: 0021671703355 - الفاكس: 0021671706253
البريد الإلكتروني: info@kalima-edition.com



4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

المحتويات

مقدمة

حاولنا في"البُنى التقابلية"[1] تعزيز تأويلية **النسق الاستعاري** مُتَتَبِّعين إياه على مستوَيَيْ الجملة والنص، فقدَّمْنا خريطة أولية لهذا الانتقال، وبيَّنا الأساس التقابلي للاستعارة انطلاقا من **التقابل المنطَلق** عبورا إلى **التقابل الهدف**، وحدَّدْنا دور **التقابل الجسري** في تحقيق الاستعارات المرَكَّبة والمتسلسلة، وأكَّدنا أهمية العلم بذلك لتحليل مدقَّق للاستعارات الدالة. غير أن ذلك المقترح حصر عمل التأويل في مستوى البُنى الصغرى للاستعارة: الاستعارة في الجملة، والاستعارة النصية، والاستعارات المتسلسلة، أو الاستعارات المتصادية بين النصوص على أبعد الحدود.

استدعى تتميم النسق التصوري التقابلي للاستعارة عملا مُكَمِّلا يجعل موضوعه "الاستعارات المجاوزة للغة"، مثل **استعارة الأنوال** الفنية والمنهجية والذوقية والسمعية والبصرية، والقولية، واستعارة **الأنوال الرقمية الجوالة، واستعارة المفاهيم والنظريات، والفهوم والتأويلات**، ويستهدف فهم دينامية الاستعارة في تشكل الخطابات دون التخلي عن البنى التقابلية الظاهرة والخفية لكل فعل استعاري؛ فليست الأفعال الاستعارية إلا تجليا من تجليات استعمال الإنسان للخطاب ولأدوات صناعته.

إذا تمكن علم التأويل من ضبط قانون هذا **الجريان الاستعاري الجوال**، وكيفيات عمله، فإن ذلك سيُمَكِّننا من جعل الاستعارة أداة للتواصل والتقارب بين الثقافات، وتأويل الاستعارات بكل أشكالها وأنوالها، وفهم التفاعلات الحاصلة بين العلوم والفنون، وبين النصوص القديمة والحديثة، الأشخاص فيما بينهم، وبين المراحل الثقافية، والديانات، والأنظمة السياسية، وغير ذلك.

---

(1) محمد بازي، **البُنَى التَّقابُليَّة، خَرائِطُ جَديدَةٌ لتَحْليل الخِطاب**، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، ط1، 2015.

الاستعارة من أقوى أعمدة الدرس البلاغي وركائزه، وقد ظلت منطلقا لاجتهادات كثيرة عربية وغربية قديمة وحديثة؛ ومع ذلك فالحاجة تظل قائمة لتحليل مظاهر الخطاب الاستعاري الجديد، ورفد الجهود النظرية السابقة وإغنائها ببعض التصورات والمبادئ المناسبة في أفق بناء **نموذج استعاري** موسع تَسنُد فيه نظرياتُ الاستعارة التقليدية المفيدةُ في الفهم والتحليل الاجتهاداتِ التي نُقدِّمُها مستأنسين ببعض التصورات الغربية في هذا الشأن. وحتى لا يظل المقترح نظريا سنُعَزِّزه بالأمثلة والنماذج ليكون القارئ على بينة بأن هذه المقترحات لها دعائم ومرتكزات واقعية، وأمامها آفاق عملية وعلمية واسعة.

أسئلة الاستعارة

تأسيسا على ذلك، قد تتوارد على ذهن متصفح الكتاب أسئلة عديدة: إلى أي حد نحن في حاجة إلى مشروع تأويلي موسع موضوعه **الاستراتيجيات الاستعارية**؟ ما البُنى الاستعارية التي تقوم عليها صناعة الخِطاب؟ أصحيح أن الاستعارة بمفهومها القديم أصبحت محدودة الفعالية في الفهم، وأن إمكانيات استعارية بمفاهيم جديدة حلت محلها؟ **ما المقصود بالمنوال الاستعاري؟** وماذا يعني المؤلِّف **بالاستعارات الجَوَّالة؟** إلى أي حد يتسع الخطاب للمقاربة بالمنوال الاستعاري مثلما اتسع **للمنوال التقابلي؟** كيف يغتني علم التأويل المعاصر بالمقترحات الجديدة لتحليل الخطاب الاستعاري؟ ما حقيقة الاستعارة المنوالية رقميا ورمزيا وفنيا؟ وكيف يتم تداولها وتأويلها؟ **هل ينطلق المؤلف من نموذج بلاغي جاهز أو من الدرجة الصفر لبناء نموذجه التحليلي؟**

فرضية الأنوال القولية والصناعية

انطلاقا من هذه الإشكالات الثقافية والتأويلية، سنحاول فحص فرضية الأنوال القولية المهاجِرة أو المُهَجَّرة، وهي مستوحاة من النموذج العلمي، ومن التوحد الحاصل بين العلوم الصناعية، شأن التمازج الحاصل بين الرياضيات والفيزياء والكيمياء والأدب واللغات، كما يعكسه النجاح المبهر في الهواتف الذكية وفي غيرها من المنتجات

الصناعية المتطورة؛ مما يسمح بفتح أفق نقدي ومعرفي يطور النماذج النقدية التجزيئية القديمة، ويسعى إلى تحقيق وصف للمناويل الأدبية البليغة، والاستعارات المُوفَّقة في مجال القول القاصد، ويحتاج هذا إلى مرجع نظري يتضمن المفاهيم الواصفة التي تفسر كيفية تنقيل المنوال القولي من مقام إلى مقام، والإبدالات التي تَعَرَّض لها المنوال بتغير الأحوال، وحدود تَوَفُّق المستعير في ذلك، وإلى أي حد ساعدت **حركية الأنوال** في تطوير الكتابة العلمية والأدبية، وإمكانيات تسخير نتاج هذه التصورات في تحرير الدرس النقدي، وتطوير صناعة الأدب، وتعميق أدوات تحليل الخطاب.

تقتضي هذه الفرضية تحققات تجريبية تبين نجاعة التصور وحدوده الإجرائية، تنطلق من ملاحظات تنقيل الأنوال القولية في الشعر العربي مثلا، وغيرها في مجال الكتابة النثرية حيث تتحرك الأنوال الحجاجية والشعرية، وفي الأنوال التعبيرية المُنَقَّلة إلى المسرح من تشكيل وغناء وشعر وتمثيل وسينما ولوحات رقمية... كما تجرنا افتراضاتنا إلى ملاحظة الهندسة البنائية التي تستعير أنوالا كثيرة من مجالات صناعية متعددة، وإلى ما يعرفه أهل كل فن عند استعارة أنوالهم القالبية من حقول أخرى، مثل الرسم، والتشكيل والسينما، والموسيقى، والإشهار، والبرامج التعليمية[2]. وإلى تتبع استعارة المجتمعات الصغرى أنوال التنمية - مثلا- من المجتمعات الكبرى، واستعارة النماذج الفكرية، وتجريب الأنوال الناجحة في مجال بناء الدول وتسيير المؤسسات، وضبط الأمن القومي. وسيوقفنا التحليل -بلا ريب- عند استعارة العلوم الإنسانية لمناويل العلوم الحقة في مساراتها المنهجية على مستوى الملاحظة والافتراض والتحقق وتعميم النتائج، وعند أنوال تدريس الأدب وفهمه والتي تستعير إجراء التحققات العلمية لضبط الفهوم وفرضيات التأويل، قصد تحقيق أكبر قدر من الموضوعية والدقة. كما ينشط في المجال التربوي الراهن استنساخ المناهج التعليمية والبيداغوجيات المتطورة، وتنقيل طرق تأليف الكتب ومناهج البحث العلمي. كل هذه الأشكال الاستعارية نجد لها أمثلة كثيرة في كل مظاهر الحياة المادية والمعنوية من حولنا.

---

(2) مثل منوال" قيادة الأقران" المستعار من تكوين الأطر التدبيرية في القطاع الصناعي، ثم أصبح هذا المنوال التكويني معمولا به في مجال تكوين أطر التدريس، وفي ورشات التعلم الدراسي.

مضى وقت غير يسير وأنا أتأمل هذا الطرح نظريا، وأعيد النظر في الجدوى البلاغية والتأويلية من نموه واستوائه، فانفتح باب البحث عن النماذج المناسبة والمقنعة، كما توطد الاستئناس بالنظريات البلاغية المتعلقة بهذا الموضوع لإيجاد كل ما يمكنه أن يصبح سندا معرفيا. ومن باب الاعتراف وتقاسم مكابدات التأليف فإننا وقفنا متأملين ما جاء به **لايكوف وجونسون** في إقرارهما أن الاستعارة حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية، وأنها" **ليست مقتصرة على اللغة، بل توجد في تفكيرنا وفي الأعمال التي نقوم بها**"(3). وقد فوجئنا حقا بأن الأفكار الأولية التي بدأت تتشعب وَفْق مقاربتنا التأويلية حول الفعل الاستعاري هي أطروحة سابقة وقائمة بذاتها، تؤمن بأن"**النسق التصوري العادي الذي يُسَيِّر تفكيرنا وسلوكَنا له طبيعة استعارية بالأساس**"(4)؛ وكأنما أُسقط في أيدينا، فقررنا صرف النظر عن هذا الموضوع إذ بدا أن لا داعي لتعميق البحث فيه، ثم حاصَرَنا جيش التريث للمضي قُدما لمعرفة الإطار النظري الذي تتحرك فيه هذه الأطروحة، وهو أن التحقق الاستعاري لا يتعلق بالألفاظ فحسب، وإنما بالبُنى التصورية المستنسَخَة، أي إننا نُفهِم تصورا بتصور آخر قولا أو كتابة؛ فالعبارات الاستعارية ترتبط بتصورات نسقية منقولة؛ من قبيل"الجدال حرب": أي استعارة نسق الحرب وتوابعه للجدل الكلامي. ولذلك اتجه اهتمام صاحِبَيْ هذا الطرح إلى استثمار العبارات اللغوية الشائعة لمعرفة التصورات الاستعارية، وفهم سلوكاتنا الاستعارية انطلاقا منها(5). وهذا تطور حقيقي في نظريات الاستعارة، إذ وَجَّه اهتمامه لتتبع الاستعارات المتنقلة بين مجالات الحياة.

قدمت النظرية التصورية أمثلة كثيرة **للاستعارات البنيوية، أي التي يُبنى فيها** تصور استعاري انطلاقا من آخر، من قبيل: الاستعارات الاتجاهية القائمة على الأبعاد الفضائية المتقابلة (فوق/تحت): "سقطت معنوياتي"... وما يتعلق بذلك من

---

(3) لايكوف وجونسون، **الاستعارات التي نحيا بها**، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال، ط 2، 2009، ص21.

(4) نفسه، ص21.

(5) نفسه، ص25.

تفريعات وأمثلة مبيِّنة تعكس نظاما فيزيائيا وقيميا وثقافيا. ثم **الاستعارة الوجودية** التي تحدد علاقة المتكلمين بالوجود: "التضخم يرهقنا"،" التضخم عدو"... تبين من هذا أن الاهتمام المعرفي في هذا المنظور للاستعارة لايَنْصَبُّ على الجانب اللفظي كما في البلاغة القديمة عربية وغربية، وإنما على **النسق التصوري المستعار وعمل الذهن**، إذ **الاستعارات التصورية بنيات معرفية** ترسخت بعمق في العقل الباطن، مقابل المظهر السطحي للاستعارات اللغوية[6]، ولذلك قد تبدو بعض الاستعارات تشبيهات بليغة، ذلك أن الأطروحة التصورية تقصد بالضبط **المعنى اللغوي للاستعارة** باعتبارها زحزحة لغوية استعمالية لتصور من مجال إلى آخر، واعتمادا على أساليب بلاغية معروفة (الاستعارة، الكناية، المجاز، التشبيه...).

لم تُقنعنا هذه المنجزات بتوقيف مشروع هذا الكتاب، ذلك أن التدبر في أهمية ما سيحمله من إشكالات معرفية بخصوص **الاستعارات الثقافية الجَوَّالة** حوَّل هذا الموقف إلى مُوجِّه قوي يحث على إكمال الحلقات الناقصة، فضلا عما يحمله من وجهات نظر ستغني تحليل الخطاب في جانبه الاستعاري. لم يهتم البحث اللساني والمعرفي لاستعارة التصورات وتزحزُح أنظمة القول وتحرك التمثلات بفهم **الاستعارات المتوالية الكبرى، والنماذج القولية الجمالية، والبنى الفنية المستعارة، والطرازات الهندسية، والنظم التقنية والاقتصادية والتربوية** وغيرها. وهو ما سَوغ لنا المضي قُدُما لبناء مقترح يوسع مجال عمل الاستعارة ليشمل **البنى الثقافية**، والأنواع الخِطابية، والفلسفات، والصناعات وغيرها مما يُمَكِّننا من فهم مترابط لأنظمة القول وبُناه وتحولاته من مجال إلى آخر.

مشروع التوسيع ومشروعيته

سينتبه القارئ المتتبع لمقترحاتنا السابقة أننا نحاول- قدر المستطاع- توسيع نطاق عمل بعض المفاهيم البلاغية والتأويلية، إيمانا بالمرونة والتحول الذي يسمح

(6) Littlemore Jeannette, Applying Cognitive Linguistics to Second Language Learning and Teaching, First published by Palgrave Macmillan, New York, 2009. p97.

به الاصطلاح وتغيُّر المفاهيم؛ **فليست الاصطلاحات أقفالا لغوية وعلمية نضعها على المفاهيم إلى الأبد.** ثم إن النظريات تتغير، ولا ثبات في أدوات التواصل وطرائق صناعة الخطاب. مقابل ذلك، لا نعمل على تحطيم الأسس العلمية التي قامت عليها البلاغة العربية القديمة، فهي صرح معرفي وتجربة تاريخية عريقة في بناء المفاهيم والاصطلاحات ووضع القوانين والحدود. بل ندعو إلى تمثل ذلك كله خيرَ تمثُّلٍ والعمل به في فهم النصوص الدينية والأدبية والسياسية وغيرها. وفي الوقت ذاته نسمح لأنفسنا بالاجتهاد تبعا لما يتطلبه التحول الحياتي والتواصلي في صورته الكتابية والرقمية، ومن ثمة نسائل المفاهيم المدخلية الأساس التي يمكن توسيعها لإغناء هذا المقترح، ووضع كل ذلك على محك التجريب والنقد المعرفي والتطوير المنهجي.

لا تقدم نظريات البلاغة العربية الحديثة حلا لإشكال **استعارة الأنوال الجوالة** منهجيا وتأويليا، لبقائها على الوفاء الكامل لمنظومة الاستعارة كما هي متوارثة منذ عصر السكاكي ومن تبعه من البلاغيين واللغويين، وهو ما تطلب توسيع مدى الأفعال الاستعارية، والأفق النظري لعملها عبر الاستئناس بقوة المعنى اللغوي الأصلي القائم على تحويل شيء إلى شيء، أو تنقيله أو الإمداد به أو استمداده. وهذا ما يقتضي تجاوز الإطار الاصطلاحي الضيق وخرقه؛ فالاستعارات في عالمنا اليوم أصبحت أكثر من الحقائق. وسنكتفي بتقريب القارئ في مجال الدراسات العربية الرائدة من مقترح محمد مفتاح في "مجهول البيان"، فقد أدرك عمق الإشكاليات التي تطرحها النماذج القولية الاستعارية، ثم نعقب على ذلك بموقفنا من تموقعه المعرفي والتأويلي لحل هذه المسألة.

حاول مفتاح تقديم اجتهادات مقنعة لحل إشكال تأويل البنيات الاستعارية المجاوزة للجملة، فالبلاغة القديمة – حسب تصوره- تسمح بفهم الآيات والأحاديث والنص الشعري، ولكنها تعجز عن تقديم أدوات لفهم اللوحة التشكيلية والفيلم والقصة العجيبة[7] مثلا، فعَمِل على استنبات **نظرية استعارة النص** أو **استعارة السياق** في تحليل الخطاب الاستعاري العربي اعتمادا على

(7) محمد مفتاح، **مجهول البيان**، دار توبقال، البيضاء، 1990، ص ص8-9.

مقترحات **النظرية التفاعلية** وعلى مبدأي **المماثلة والقياس**، واستئناسا بالتحليل بالمقومات السياقية وتفاعل المفاهيم، وسياق الخطاب ومساقه، محتذيا النموذج التحليلي ل" رُني ديرْفَن"في دراسة نص"المزرعة الحيوانية"[8] حيث اعتبر هذا النص الحكائي استعارة أُمًّا تتفرع عنها استعارات تابعة؛ فالحيوانات وأعمالها، ثم ثورتها على صاحب المزرعة بمثابة مشبه به للأطراف المتنافسة في الثورة الروسية. ليست هناك عبارات استعارية يقوم عليها التحليل إذًا ولكن تشبيها كليا.

يمكن- وفق هذا المنظور - اعتبار حكايات كليلة ودمنة خير تمثيل لهذه الاستعارات الكلية، فرمزية الحيوانات **وما يجري بينها من علاقات (صداقات أو عداوات..)** استعارات شاملة **للعلاقات الإنسانية والاجتماعية والسياسية**. هذا الأفق الاستعاري الشمولي لم تلتفت إليه البلاغة العربية القديمة، ويُحمد لصاحب "مجهول البيان" اطّلاعه على مقترحات نظريات استعارية جديدة (التفاعلية والتصورية..)، وإنجازه لتظهير هذه المقترحات رغم ما شابها من افتعال كبير في إسقاط مفاهيم النظرية التفاعلية والتصورية، وخفوت النتائج التي انتهى إليها التحليل. ولكنها حملت منظورا جديدا لفت الانتباه إلى أهمية توسيع مجال **عمل التأويل الاستعاري**، وتوسيع نظرية الاستعارة للتمكن من تأويل شمولي يستوعب **استعارات النص المتوالدة واستعارة السياق**. وتبيينا لإمكانية تطبيق هذا المنظور، تضمن الكِتاب تحليلا لنص مَنْقبي قصير على اعتبار أنه العالم الواقعي المشبه به لمعان مضمرة هي عالم الإمكان أو المشبه، ثم جرَّب قلب منوال التحليل بجعل المشبه به مشبها، فوظف لأجل ذلك مفاهيم **التفاعل والتشعب والتلاصق والتماثل واستعارة السياق** القائمة على الخلفيات المعرفية والثقافية، فقدم بذلك نموذجا في تحليل الخطاب يُعَلِّم أسلوب التفكير في الاشتغال على النصوص الاستعارية، واستراتيجية تحليلية مناورة للتفاعل معها، فضلا عن رغبة قوية في المجاوزة والاقتراح.

يعد هذا الكتاب - من منظور الاستعارة المنوالية - من أكثر المؤلفات العربية الحديثة جرأة في تحليل الخطاب الاستعاري، انطلاقا من رؤية نظرية ومنهجية

---

(8) السابق، ص ص85-86.

تستعير بدورها من البلاغتين العربية وغير العربية أدوات ومفاهيم، ومبادئ لتجاوز أنظمة التحليل المعروفة، كي تحولها إلى النسق التأويلي العربي الحديث بقدرة هائلة على التفكيك والتركيب، وقلب منوال التحليل، مما يتيح تطوير أدوات قراءة النصوص الرمزية والتمثيلية وفق منظور **استعارة النص واستعارة السياق** لو أن تجارب بلاغية وتأويلية معاصرة مضت في هذا الاتجاه.

وبإجمال، فبعد ربع قرن أو يزيد من صدور هذا الكتاب لم نجد له تأثيرا كبيرا في فهم الأنوال الاستعارية الرمزية التي نستعملها يوميا، وإن انطلق من أسئلة تأويلية وبلاغية جوهرية، واستند على مرجعيات بلاغية ونقدية قديمة حديثة. لقد ظل ما اقترحه محدود التأثير، متواضع النتائج ولا يستوعب الاستعارات المنوالية الحجاجية والاقتباسية والسيميائية التي هي أس نظامنا التخاطبي في أبعاده المتشابكة، وبالأخص الاستعارات الرقمية. إن ما قُدم في هذا التصور فضلا عما قدمته تصورات أخرى عربية حديثة لم يصل بعد إلى القول الشافي في تحقيق منظور يناسب مستجدات تحليل الخطاب، وتطور أدوات التواصل الاستعاري.

الأطر المرجعية لمقترح الاستعارة المنوالية

أولا: لقد تفطن البلاغيون الغربيون، وفلاسفة اللغة، والنقاد، والسيميائيون إلى محدودية الاستعارة اللغوية، وانحسار أفقها. ومنذ أوائل سبعينيات القرن الماضي انخرطوا في بحث الآفاق الممكنة التي يسمح بها الإنجاز الاستعاري خارج دائرة الكلمات، ودائرة الجمل، حيث ظل البحث مُغريا ومشوقا وداعيا إلى الاجتهاد المستمر لقابلية تعلق العنصر الاستعاري بمكونات من خارج اللغة بأكملها كما سنبين، فتنوعت الأبحاث في هذا الموضوع، وشاركت علومٌ متنوعة أهلَ البلاغة انشغالَهم بأسئلته: اللسانيات، وفلسفة اللغة، ونظرية الأدب، والعلوم المعرفية، والسيميائيات البصرية، ونظريات التأويل، وعلم النفس، وفلسفة البلاغة، وغيرها.

ثانيا: مقابل ذلك، ظل بحث قضايا الاستعارة في الدراسات العربية إلى وقت قريب وفيا للبلاغة التقليدية، وللتقسيمات التي وضعها البلاغيون القدامى، ولم يتم تجاوز ذلك نحو أسئلة الاستعارة في علاقتها باللغة، والفكر، والسياسة، والعلوم،

والتربية، والصورة، والموسيقى... وغيرها. وعندما تم الاطلاع على النظريات الغربية في هذا الموضوع تم ذلك من موقع الترجمة والاستكشاف والنقل، لا من موقع المساءلة والاقتراح الذي يوازي الطموح المعرفي والتأويلي للدرس البلاغي والتأويلي العربي المعاصر. ولذلك جاءت الدراسات الاستعارية موجَّهة بما تم تسطيره عند غيرنا، وكأنه مسلمة نهائية وقواعد محسومة، في حين لا يزال البحث في هذه المسألة مفتوحا لتعلقها بكثير من القضايا المعرفية والعلمية، بل بالإنسان المعاصر في سائر أحواله وتصوراته وأنواله.

ثالثا: لا يدعي هذا المُؤَلَّف مقاربة كل الاستعارات في حياتنا اليومية والأدبية والعلمية والرقمية بقدر ما يحاول إثارة الجوانب التأطيرية التي تتحرك فيها الاستعارة المنوالية،... إنها معابر مفتوحة للبحث وفق ما يبدو استعاريا، وله وظيفته، فقيمة الفعل الاستعاري متعلقة بوظيفتها، وبكيفية العبور من ضفة المستعار منه إلى ضفة المستعار إليه، والمبادئ المستحضرة في ذلك من قبيل: **الجدوى والتناسب والفعالية والجمالية والقابلية للفهم والتأويل**.

رابعا: الإنسان وفق المنظور المنوالي كائن استعاري، والاستعارة في حياته مكون هام من مكونات التواصل، لا يتعلق بالكماليات الأسلوبية أو مُزينات الخطاب، ولم تكن يوما ما كذلك. إنها ناموس وجودي شامل فاعل في الحياة من الصباح إلى المساء، شرقا وغربا، أدبا وعلوما... وإنما استبد بها نظريا ولوقت طويل الاتجاه اللغوي، وسُميت الأشكال الاستعارية الأخرى بمسميات مخالِفة تجنبا للاضطراب. لن تُحدث مثل هذه المراجعة النقدية قَلقا في المفاهيم الأصلية والعلائق بينها، وتحولاتها، والتنقيلات الحاصلة في الفكر واللغة والإدراك والعلم، لأن كثيرا منها يؤوب إلى أصله الاستعاري، وما يتعلق به من أخذ وتنقيل وتبديل. لكن الظواهر الاستعارية الجديدة من حولنا تستدعي اكتشاف سيمياء التحقق الاستعاري فيها مثلما بيَّنا الأصل التقابلي من قبل. هي إذاً اجتهادات لبيان الأسس الخفية، أو الأنساق القوية المتحكمة في أفعال الإنسان الواعية أو غير الواعية المتعلقة بأصول المستعارات: الأفكار، والمناهج، والمفاهيم، والقوانين، والأدوات، والأصوات، والإيقاعات، والرسوم، والأشكال، والهندسة، والمعمار... مما يدعو

البلاغيين الجدد إلى ضبط هذه الأنساق الاستعارية التي تحكم حياة الإنسان، وهذا ما تسعى إليه المقاربات المعرفية الحديثة التي تربط بين عمل اللغة والفكر وعمل الدماغ، وعلوم الأعصاب[9]، وعلاقة الاستعارة بالثقافة وتحولات الأنوال التواصلية.

خامسا: قدمت الاجتهادات الغربية محاولات قوية لتفسير الأنساق الاستعارية في الفكر، والتصور، وعلم النفس، وعمل الذهن، وتأثيرات الجسد[10]... فقد أصبح علم النفس بدءا من 1960 جزءا من العلوم المعرفية، مستفيدا من علوم الحاسوب في التعرف على طرق التفكير، والذكاء الاصطناعي، واللسانيات، والأنتروبولوجيا، والفلسفة. وبالأخص علم الأعصاب الذي تقدم بوساطة وسائل التشخيص التقني للدماغ لملاحظة التطورات العصبية. وتداخل علم النفس مع الذكاء الاصطناعي لتطوير نماذج التفكير الآلي. وفي اللسانيات انشغل بمعرفة الكيفية التي يدرك بها العقل اللغة ويفهمها، كما انفتح علم النفس على الأنتروبولوجيا لدراسة المظاهر الثقافية للمعرفة الاجتماعية، وعلى الفلسفة لمعرفة التصورات الأساس حول العقل البشري[11].

ونقترح لإغناء هذه التصورات **مقاربة منوالية للتجليات الاستعارية** الكثيرة التي اقتنعنا أنها تستدعي التحليل والتأويل والتنظير والبيان، دون أن تتجاهل المظاهر غير اللغوية الكثيرة للفعل الاستعاري. وإذ نستشعر صعوبة ضبط كل تجلياتها، فإننا نظل على حماسنا الاستكشافي والتأويلي والاقتراحي لوضع بعض اللبنات والأسس، وفتح الآفاق المعرفية الواسعة لدارسي الاستعارات من المحترفين والهواة، ومستعمليها ومتتبعيها في أصناف الخطاب.

---

(9) انظر: جورج لايكوف ومارك جونسون، **الفلسفة في الجسد، الذهن المتجسد وتحديه للفكر الغربي**، ترجمة، عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2016.

(10) نظريات كثيرة حول الاستعارة: النظرية الاستبدالية والتفاعلية والحجاجية ونظرية المزج وغيرها مما ستجده مختصرا فيما يلي من صفحات هذا الكتاب.

(11) Paul Thagard, Philosophy of Psychology and Cognitive Science, North Holland, 2006, p5.

سادسا: إن الأساس اللغوي الذي قدمته البلاغة التقليدية فيما يتعلق بمقومات الفعل الاستعاري، لم يكن ممكنا الانتفاع به لدراسة كافة الأشكال التعبيرية التي عرفتها حياتنا التواصلية والفنية منذ ظهور الفنون البصرية والسينما والإذاعة، وتشعب العلوم، واستعارتها الأنوال المنهجية والأداتية من غيرها، فضلا عما يمكن ملاحظته من مظاهر استعارية طاغية في عالمنا اليوم. إن اعتبار الاستعارة أمرا من أمور الحياة اليومية هو انقلاب جذري على الاستعارة في اللغة والبلاغة والأدب، فخلف كل استعارة نواة بناء متوالد، ومن ثمة يمكن أن نتكلم عن **التقابلات الاستعارية النووية**، فليست الأفعال الاستعارية إلا تجليا من تجليات التقابلات الذهنية التي تتحول إلى اللغة والصورة والخطاب والتشكيل والهندسة والعمران وغيرها.

سابعا: لا تزعم المقترحات المقدمة - في هذا الكتاب - أنها جاءت بالقول الفصل في هذه المسألة، وما ينبغي لها ذلك، لأن الاستعارة ستظل متجددة الإشكاليات، فلأهل كل زمان استعاراتهم، ولكل تطور بشري نماذجه الاستعارية. وحسبنا أن نقدم تصورات تأطيرية، وآفاقا للاجتهادات التي يمكن أن يرتادها البحث بالمفهوم الموسع الذي نقترحه. لقد حركتنا الإشكالية العامة التي انطلقنا منها، والمتعلقة بالحدود التي يمكن أن نضبط بها آليات الاستعارة في الخطاب لتناول مجموعة من القضايا لعلها تجيب عن الأسئلة المطروحة على دارسي الخطاب الاستعاري تنظيرا واقتراحا وتحليلا.

مستوى التحقق

توزَّع التحقق من فرضية المنظور المنوالي على شِقّين متساندين: أولهما **تصوري** ويقدم الإنجاز الاستعاري باعتباره **فعلا استراتيجيا** يقوم على اختيار الاستعارة منوالا للتعبير والإبلاغ وصناعة الخطابات جزئيا أو كليا باستمداد الأنوال والأشكال والنماذج القولية، واستعارة المدونات، والنصوص القصيرة لغايات حجاجية تقوي الخطاب، أو تمنحه غنى فنيا أو جماليا. ولعل ملاحظة النزوع الكبير إلى الأفعال الاستعارية المجاوزة للكلمات، وجريان ألوانها في العلوم

والآداب، يستلزم تصورا واصفا لهذا التنوع الاستعاري، ومنظورا جديدا لفهمه وتأويله، ونموذجا تحليليا لمقاربة البنى الاستعارية المجاوزة للجملة، ولسيمياء اللغة، مثلما يستدعي استراتيجيات تأويلية مناسبة، وأدوات عمل، ومفاهيم خادمة جديدة.

وهكذا اتجهت الفصول الأولى لبيان الخاصية الاستعارية عند الإنسان بوصفه كائنا يستعير ويبني ما يُستعار؛ يستعير من اللغة، والثقافة، ومن كل الذّخائر والمدونات المتاحة له لإنتاج مدونات وأنوال جديدة قابلة للاستعارة بدورها. وتنظر المقاربة المنوالية للخطاب على أنه مجموعة من البنى الاستعارية: **لغوية وتصورية ومنوالية**، يسعى التحليل إلى تتبعها وإبراز حلقاتها الظاهرة والخفية، ثم استقصاء معانيها ومقاصد توظيفها.

عالم التواصل اليوم فضاء كثيف الاستعارية، وجيل اليوم استعاري المنشإ، ولذلك سنقف عند بعض ملامح هذه السيمياء الاستعارية المنتشرة: الاستعارات الرمزية، والهندسية، والاستعارات العلمية، والاستعارات الإشهارية، واستعارة نماذج الكتابة، واستعارة الأسماء والألقاب، والعناوين... حيث يصبح المنجز الاستعاري مضاعَفا: استعارة لغوية، واستعارة البنية الكلية لنسق استعمالي جديد. لا تحد النماذج التمثيلية المقدَّمة كل الأشكال الاستعارية التي يلجأ إليها الإنسان في زمننا، وإنما هي تمثيلات للإمكانيات التي لاحظناها في الفعل الاستعاري المجاوز للاستعارة اللغوية التقليدية، والتصورية الحديثة، إلى الاستعارة المنوالية.

وأما الشق الثاني فهو **تجريبي وتقريبي** توقفنا فيه عند بعض مظاهر استعارة المفاهيم والنظريات، وبيَّنا - على سبيل التمثيل - حدود الاستثمار الاستعاري الذي لحق مفهوم **النص**، والإشكالات الإبستيمية والنقدية والأدبية التي يطرحها استنساخ المفاهيم المعرفية، وأهمية النقد المعرفي الدقيق في تتبع هذه الاستعارات وانتقالها من علم إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. وقدَّمنا نموذجا للمنوال الجمالي الفني الذي تمت استعارته في قصيدة **"تَذَلَّلتُ في البلدان"**، وهو منوال الشعر الغزلي المستعار في التجربة الصوفية، فقد قادنا نص" أبي

مدين" -كما سيأتي بيانه - إلى اقتراح بعض الأدوات العاملة في بناء النص الصوفي المتغنى به في محافل الذاكرين، وما يتعلق به من مفاهيم تبين **الأساس الاستعاري** المتحكم في تداخل النصوص، وهو ما لم يُلتفت إليه من قبل. والعجيب أن دراسة هذا النص البديع هي التي فجرت كل هذه التساؤلات عن حقيقة الاستعارة، وحدود فعالية التصورات المتعلقة بها قديمة وحديثة لمقاربة سؤال **الأنوال الاستعارية الجوالة**.

كما وقفنا - على سبيل التمثيل والبيان- عند **استعارة الأنوال التأويلية** لفهم الكتاب العزيز. ثم عند اغتناء الثقافة الإسلامية والعربية باستعارة الأنوال، والأدوات والمفاهيم، ونتاج العلوم الناشئة فيها، وتنقيل منوال التفسير الديني للشرح الأدبي، واستنساخ المحدَثين لأنوالهم التأويلية من القدامى، وغير ذلك من الحركات الاستعارية الكبرى التي كونت الذخائر المعرفية الواسعة في تراثنا التفسيري والأدبي والنقدي والفلسفي...

إن ما يقدمه هذا الكتاب لا يعتبر نهايةً لبحث **الأنوال الاستعارية الجوالة**، وإنما بداية لبلاغة استعارية مكملة لجهود السابقين. إنه اجتهاد أولي لوضع أسس نظرية استعارية تستوعب التنوع الحاصل في ثقافتنا اليوم، ونوع التلقي الجمالي الواسع الذي ينسجم مع هذه الحضارة الاستعارية المتطورة، مما يدعونا إلى إعادة قراءة نظرية الاستعارة التقليدية قراءة مجدِّدة تسمح باستيعاب الأشكال والأنوال الاستعارية ما فوق الجملة، والسلاسل الاستعارية التي قد تمتد على طول الخطاب.

يقضي بنا ما سبق إلى سَوْق المبادئ والمنطلقات التي توجه التصور المنوالي، وهي:

أ- تسمح دراسة الأنساق الاستعارية في الخطابات التراثية بتتبع حركية الأنوال، ومبادئ تشكل الفعل الاستعاري المنوالي في آفاق رحبة خارج دائرة الأدب والنقد والفلسفة والمنطق.

ب- الاستعارة المنوالية حركة **ذهنية تموجية** لا حدود لها داخل الثقافة والدوال والنصوص والمعاني، تقوم على مبدإ **الحاجة الاستعارية** ومبدإ **الملاءمة والوظيفية** ومبدإ **الفعالية**.

ج- أصبحت الرسائل والخطابات ذات طبيعة **موجية**، ولذلك فإن قنوات التحليل الاستعاري ينبغي بدورها أن تكون ذات طبيعة موجية منتظمة تتميز **بالتدفق والانسيابية والتغير والانفلات والاختراق**.

د- أدوات التحليل الاستعاري التقليدية يجاوزها الفعل **الاستعاري التموجي** الذي لا حدود له، وهو يتطلب تأويلية استعارية سريعة ودقيقة، فلم تعد الاستعارات حبيسة الكتب، أو الصور، لقد أصبحت جزءا من عالم يتغير بسرعة، وهي شبيهة بالأدوات ذات الاستعمال الوحيد، ثم ينقضي أجلها لتفسح المجال لأمواج جديدة من الخطابات الاستعارية.

هـ- في مثل هذه المواقع المتاخمة لمنطقة الخطر التنظيري والاقتراحي يحيا ما نتوقعه من تساؤلات وانتقادات، وردود أفعال واعتراضات وتصحيحات وتصويبات وتنبيهات، توجه لهذه المحاولات التركيبية، ولمن خاطر بمساءلة الآفاق المجهولة للحركة الموجية للاستعارة المتوالية التي لم تعد معنى أو لفظة أو نصا، وإنما عالما لغويا ورقميا يتموج في كل الآفاق والوِجهات. ولقد أدركنا فعلا كل هذه الصعوبات وبالأخص ما تعلق منها ببناء التصور المنسجم والاستدلال عليه والتمثيل له، وأجرأته بطرق مختلفة من التناول التحليلي والتأويلي. فإن كان من مكاسب حققها هذا المسعى فهي القدر الذي استطاع أن يمنحه المؤَلف بكل وُد وتواضع من عقله وصبره وجهده **لنظرية تأويل الخطاب الاستعاري** وروادها في الزمن المستقبلي، وإن كان من خسارات فادحة فهي مما سيظل متحمِّلا إياه بالعلن حتى ينساه الناس في صمت.

قبل إغلاق هذه المقدمة المدخلية المبسوطة، نود أن نعرب عن جميل امتناننا لكل من الأستاذ الدكتور **المدني بورحيس**، والأستاذ **محمد أجعموم**، والباحث **عبد الحق الحمداوي** تقديرا للمراجعة العلمية الفاحصة والدقيقة التي تفضلوا بها للمسودات النهائية للكتاب، فلهم الشكر الجزيل الذي يليق بمقاماتهم، وآرائهم

السديدة، وتصويباتهم المفيدة، وملاحظاتهم القيمة، وصبرهم على التمحيص والتتبع.

نسأل الله أن تتحقق الأهداف المرجوة التي سعينا إليها بالإفادة والاستفادة، بالاستعارة والإعارة، بالإمداد والاستمداد، وأن يتقبل جهدنا في الباقيات الصالحات، وإن يظلنا بثوابه يوم لا ظل إلا ظله. اللهم صَلِّ على من ملأتَ عينَه من جمالِك، وقلبَه من جَلالك، وعلى آله وصحبه، والحمد لله على ذلك.

محمد بازّي

أكادير/30-10-2016

الفصل الأول

الاستعارة استراتيجية خطابية

تقديم

انطلاقا من الأفق التصوري المشار إليه في تقديم الكتـــاب، فـــإن النظـــر إلى الاستعارات المنوالية الأساس القائمة على تبادل الأنوال القولية والصناعية والهندسية والفنية، يحتاج مبادئ نظرية لتفسيره، بما هو كفيل بأن يخرجنا من الخطاب المتكرر حول الاستعارة اللغوية الضيقة، وفتح أفق جديد من النظر إلى الخيار الاســـتعاري على أنه تحول من منوال إلى منوال، ومن بلاغة إلى بلاغة، ومن ثقافة إلى أخـــرى، ومن أفق حياتي إلى آخر.

يُقال في مجال تعليم الكتابة: أُنسُج على هذا المنوال، أي على هذا الطِّراز، أو النسق. والمنوال في الأصل مِنْسج خشبـــي يُنسج عليه الثوب، استعرناه- بغـــرض الحيازة الاصطلاحية- من مجال صناعي أصلي: النسيج والحياكة إلى مجال صـــناعي فرع: نسج الخطاب بالأدوات والأساليب والـــبُنى الثقافيـــة والأنســـاق القابلـــة للاستعارة، وسمينا هذا: "الاستعارة المنوالية". وهي مجموع أفعال الكتابة الصـــناعية من تخيل، وتخير، وتحيل، ومحاكاة، واقتباس، وأخذ، وتطالب، وتجاذب بين الخطاب قيد الإنجاز، وبين مجموع المرجعيات الممكنة التي يستعين بها منتجـــوه؛ فالكتابـــة -مثلا- فعل استعاري في مجمله، إذ بمجرد ما يشرع الكاتب في نظم خطابه، فإنه يدخل في حالة استعارية مفتوحة الجبهات، بدءا من الاستعارة المعجمية العاديـــة، حيث يستعير كلمات معينة لخطابه من المعجم اللغوي، الكلمات في المعجم تظـــل على الدوام قابلة لاستعارات محتملة، وليس استعمال اللغة إلا استعارة مألوفة قائمة على الاختيار والاستبدال، ذلك أن اللغة ليست ملكا لأحد، ولا أحد يملك لغـــة كاملة خاصة به، وإنما هي سيمياء عامة قابلة للاستعمال والتقاسم.

يستعير الكاتب أفكارا أو معاني وفق ما يتطلبه موضوع التأليف، وقبل أن يستعير لفظا لمعنى جديد، فهو يستعير الألفاظ المعروفة للمعاني المألوفة. أما الاستعارة بمعناها البلاغي القديم، فهي درجة ثانية تحكمها آلية نقل معنى اللفظة مما وضع له في الأصل إلى ما لم يُعرف به لعلاقة المشابهة، وتتعلق مصطلحات "الاستعارة التصريحية" و"المكنية" و"المجردة" و"المرشحة"، و"العنادية" و"الوفاقية" بخاصيات فرعية في كل نوع منها.

تحدث استعارات من درجة ثالثة عبر المحاكاة والتخييل و"التفاعلات النصية"، فيحاكي الكاتب مثلا غيره، كما يتفاعل بوعي مع ما يَعْرف من النصوص، ويستعير مُظهِرا أو مُضمِرا الأساليب الفنية أو الشكلية أو الموضوعية أو الحجاجية... وهذا حال الناقد والمفكر والفيلسوف والخطيب والمدرس، والصحافي... فهذا مبدأ إنساني كوني ينشأ لدى كل إنسان منذ التعلمات الأولى التي تُشكِّلُ ذاكرته، فينجز بطريقة لا واعية استعاراته؛ وهكذا فالكتاب- مثلا- مزيج لغوي متداخل الاستعارات، يحتاج عند دراسته أدوات تحليلية وتأويلية لبيان أنساقه الاستعارية، والكيفية التي استعار بها صاحبه اللغة من المعجم لاستعمالها أسلوبيا، وكذلك ما يتعلق بالأفكار أو المعاني وفن استعاراتها التوليدي أو البنائي أو الإبلاغي، وطبقات المستعار الظاهرة والمضمرة في الخطاب، وحدود الاحتفاء ببيان النسق الاستعاري أو إخفائه.

الخطاب صناعة استعارية

الخطاب وفق المنظور المنوالي **سلسلة من الاستعارات** اللغوية والبلاغية والفكرية والنصية والأسلوبية والحجاجية والتأويلية. **إنه صناعة استعارية**، وعلى المرء أن يعترف أنه عندما يتكلم يصبح كائنا استعاريا بأدوات متباينة، فخطابه نسيج من المقولات والمفاهيم والتأملات والأمثال الشائعة، والعوائد والمكتسبات..

بعد هذه الإيضاحات فإن الاستعارتين اللغوية والصناعية المنوالية، أصبحتا متمايزتين، والحدود بينهما ظاهرة، وكلاهما استعارة بمفهوم معين ولحاجة قائمة. وفي خضم هذا المسار يحق لأي متتبع أن يتساءل: هل عجزت تأويلية التقابل عن

حل الإشكالات التأويلية، حتى يتم الانتقال إلى نموذج آخر يستوحي معالمه من النقد الأدبي، ومن البلاغة القديمة والحديثة على السواء..؟

إن التصور الاستعاري لفهم البُنى الخطابية العميقة **لا يُلغي الاقتراح** الذي قدَّمناه في **التأويلية التقابلية**، وإنما يقدم تصورات مكملة **لمن أراد تجريب التحليل** الكلي لاستعارية الخطاب. وسيلاحظ المتتبع **أننا لم نتجه إلى مفاهيم بلاغية ضيقة** الأفق لاستثمارها: الالتفات مثلا أو التلطف، **أو أسلوب الحكيم، أو القصر، أو** الفصل والوصل...، وإنما اخترنا المفاهيم **الجامعة التي يمكن أن تضم كثيرا من** المفاهيم البلاغية الرافدة؛ فالبنى **التقابلية الكونية واللغوية والخطابية كما بينا في نظرية التأويل التقابلي** وفي غيرها، **هي الوعاء النسقي الناظم لحركة استعارية** مألوفة عند صناعة الخطاب، **حيث يشرع المتكلم في استعارة معجم خاص،** وأفكار خاصة وأقوال وتمثلات ومنظورات وأساليب بطرق كثيرة.. ولو تم توسيع نظرية الاستعارة في البلاغة العربية منذ وقت مبكر، لخف اللهاث وراء المصطلحات النقدية الغربية مثل "التناص"، وربما تجنبنا كذلك المصطلح القديم"السرقات"؛ فالتفاعلات النصية من أي درجة كانت جزئية أو كلية، اجترارا أو امتصاصا أو حوارا، تدخل في باب استعارات الأدباء، أو ما يستعيره الكاتب أو الشاعر من غيره، أو **الاستعارة الصناعية، أو استعارات صناعة الأدب** التي قد تظهر وقد لا تظهر، وفي كل زمن هناك خبراء بها.

لا يؤدي مثل هذا الطرح إلى تكثير المصطلحات بقدر ما يؤدي إلى الاقتصاد والتيسير والبيان، وهو أجدى في النقد من اصطلاحات السرقات الكثيرة التي تحمل قدحا في معانيها، وقد كشف التطور النقدي محدودية مدة صلاحيتها. وستحل استعارة الأنوال عند القارئ العربي بقوة محل المصطلحات الغربية الكثيرة المترجمة بأبعادها وحمولاتها ومرجعياتها الغامضة: تعدي النص، العبر نصية، تفاعل النصوص، تداخل النصوص. إن صانع النص اللاحق "ب"-وفق المنظور المنوالي- هو الذي يقوم باستعارة جزء من نص سابق" أ"، فليس هناك تفاعل، إذ كيف يكون التداخل والنص الأول زمنا مأخوذ منه ولا دور له في إحداث رد الفعل، إنه موضوع للاستثمار من جهة واحدة، فلا مشاركة في الأخذ والعطاء وتبادل

التأثير، إن التأثير أو التأثر حادث من الجهة المستعيرة فحسب، فالفاعلية الصناعية هي المتحكمة في النص موضوع الاستعارة، والتأثر بالمأخوذ حادث من تلك الجهة فحسب، ولا تمايز هناك.

الملكات الاستعارية وتشكل الثقافة

لما استوفى علم البلاغة"كماله"، تلت ذلك عمليات الشرح والتلخيص لضرورات تعليمية اقتضتها حاجات المجتمع إلى التعلم، وعرفت محطات من القوة والنضج (الجاحظ، الجرجاني، السكاكي، القرطاجني...) وأخرى من الانتظار والضعف، وربما كان لأحوال الشعرية العربية في انحباسها أثر في تطوير صناعة البلاغة. وفي العصر الحديث ظلت البلاغة لوقت طويل متوقفة عند ترديد ما قدمته البلاغة القديمة، بتحويل منجزها إلى المدرسة والجامعة، ولم يعرف التطور البلاغي مجراه الطبيعي طيلة القرن العشرين الميلادي حيث حصل الانبهار بالأسلوبيات الغربية والشعريات الوافدة، وتعطل تطور الدرس البلاغي العربي الحديث، ولم يتم الاحتفاء بالأنساق الضمنية في البلاغة القديمة لأجل تطوير الأدوات التأويلية فيها. ولعل الدراسات المنجزة أكاديميا كانت تسعى إلى توصيف الرحلة التاريخية لبناء البلاغة العربية، أو مناقشة قضاياها وإشكالاتها، وتتبع ثوابتها ومتغيراتها، وتمحيص مفاهيمها، أو تحقيق متونها. وتظل الحاجة ماسة إلى رؤية جديدة لهذه البلاغة، وإلى الانطلاق مما زخرت به في اهتماماتها العميقة وتوجهاتها وقضاياها، ورهاناتها قبل الشروع في وضع مقترحات قوية في العلم بالنص والخطاب، والتأويل، والفهم، وغير ذلك.

سعت البلاغة العربية إلى بناء علم دقيق واصف، انتظمت فروعه وقوانينه وتقوت مؤلفاته وتكاثرت، ثم ما لبثت أن أصبحت موضوعا للشروحات والاختصارات، حيث لم يعد هذا العلم تابعا للأدب يصفه، ويجلي مظاهر الجمال فيه، وإنما درسا تقنيا مفصولا عن الإنتاج الأدبي، وبالأخص عندما بلغ الشعر العربي ذروته، ودخل مرحلة العياء. لذلك فإن الفكر البلاغي العربي يحتاج منظورات جديدة للوصول إلى بعض المحركات القوية فيه، وضبط التفريعات

البلاغية التي كانت استقراء للنصوص، ومنطلقا لصناعة مفاهيم واصفة لمظاهر بلاغة الأسلوب العربي.

يروم مقترحنا **المنوالي** مساءلة الأسس الاستعارية التي تحكم الخطاب وبلاغته. وقد لا يزعج القارئ التذكير بما بيّناه من قبل بخصوص نسقية التقابل وأُسِّيته في أي استعمال لغوي، فالتقابل - فضلا عن ظاهره البديعي- قوة نسقية خفية في صناعة الأدب، تمدنا بطاقة هائلة لتأويل البنى اللغوية، وقد بيّنّا كيف أن كثيرا من أساليب البلاغة قائمة على أساس تقابلي. أما في هذه المباحث فنسعى إلى بيان أن مجموع الأساليب اللغوية والبلاغية والفنية أساسها استعاري بالمعنى النووي الموسع للاستعارة. وهكذا فإذا كان التقابل بناء قاعديا للخطاب، فإن الاستعارات -كما سيأتي شرحه بتفصيل- هي المتغيرات الجمالية والمنوالية التي تحقق الحياة في هذا البناء.

محاولة مثل هذه تتطلب التخلص من القوالب المعرفية الجاهزة التي عملت المدرسة البلاغية التقليدية على ترسيخها في موسوعتنا المعرفية، وليس من السهولة أن يتخلص المرء من مكتسبات عقود طويلة من التحصيل. هذه جولة استكشافية تتوسل منظور **المنوال الاستعاري**، وتحاول اقتناص الأسس العميقة التي تتحكم في صناعة الخطاب أفقيا، ثم في تأويله بعد ذلك، وهي في الوقت ذاته لا تتنكر لمكتسبات العلوم، بل تنطلق منها دون أن تُسَلِم بصحة كل ما حملته إلينا. وبمعنى آخر هي رؤية تحاول محاورة التصورات البلاغية القالبية من أجل فهم مغاير يُيَسِّر للباحث إدراك الحركة الاستعارية المنوالية الدينامية التي تجري في عالم الخطاب، وفي بنائه، بدءا من عنوانه، وصورة غلافه، وشكله، إلى محتوياته.

النصوص محفل للاستعارات الصغرى والمتوسطة والكبرى: استعارة المعاني والأفكار والألفاظ والصور والتصورات والمفاهيم والاصطلاحات بوعي أو بدونه، عندما نكتب مقالات أو نصوصا أو رسائل نستعير أشياء كثيرة للتعبير أحيانا عن مطلب واحد. لم يعد مجديا إذًا قصر الاستعارة على المنظور البلاغي التقليدي، لأن ما نقوم به أثناء الكتابة هو عملية تحويل وجلب وتنقيل واستنساخ وتلخيص واختصار لكثير من التمثلات المتداخلة التي تكونت عندنا على مدى زمن قريب أو

متوسط أو بعيد، حيث تصبح الذاكرة مصنعا حقيقيا للاستعارات اللفظية والمعنوية، واستعارات الصور والتمثلات والأدوات والأساليب والمقولات...

إن إعادة تشكيل الأصلَين الكبيرين المتحكمين في بُنى الخطابات: "أنوال الاستعارة" و"بنى التقابل" من شأنها أن تُقدم منظورا شموليا مغايرا لما هو مألوف في الجواب عن سؤال: كيف يتشكل الأدب مثلا؟ أوكيف يُبنى خطاب كتاب كامل؟

إذا تأمل القارئ البليغ حركة الثقافة ونماء العلوم، وتداول المعارف، فسيجد أن الأفعال الاستعارية مسؤولة عن نُظم ثقافية كاملة، بل تُحرك ما يُكتب من الآداب، فالمفاهيم البلاغية القديمة مثل الاقتباس والاستشهاد والسرقات والأخذ تجليات لقوة استعارية تحرك نظام الفكر والأدب بكيفيات متباينة. ولو أعدنا النظر في البلاغة العربية من منظور القوة الاستعارية المحركة أو الفاعلة، لبَدا أنه من الممكن اختصار الكثير من الاصطلاحات التجزيئية لأنها داخلة تحت قانون الاستعارة. وستتغير تبعا لهذا نظرتنا القديمة الضيقة للاستعارة، وسنشرع في الحديث عن الاستعارة الثقافية وهي نسق دينامي في كل عملية تنقيل لمادة لغوية مثلا: **استعارة صغرى**، أو عملية تنقيل بنيات متوسطة: مثلٌ أو بيت شعري أو مقولة. أو **استعارات كبرى** إذا تعلق الأمر بالاستمداد من نص كامل مثلا: أكثر من جملة، وهو ما يتيح لنا فهم هذه الحركية الاستعارية النشطة التي تحكمت في البنى الجمالية للشعر، وفي تشكيل نصوص جديدة انطلاقا من أخرى قديمة، وتحقيق قوة حجاجية في الخطاب الفلسفي مثلا عند ابن رشد وهو يستعير الأمثلة من العلوم والفقه، والآداب، ومن النصوص التشريعية وعلم الكلام. وعند الغزالي وهو يستعير مجمل نتاج الثقافة العربية في أحوال التصوف والمتصوفين، ومن الشعر والبلاغة، ومن الأمثال والعلوم وخبرات الحياة. ونجد عند المفسرين عمليات استعارية كبرى تنفتح فيها كل أبواب المعرفة لضمان رحلات استعارية سليمة بانية للخطاب. وهكذا، فالخطاب إنما هو نتاج عمليات استعارية واعية وغير واعية يلحظها المتأمل والمتمعن في آليات تماسك المعاني وقوتها الاستدلالية، وفي عمليات نقل بنى تصورية من ثقافة أو موقف اجتماعي إلى سياق آخر. ومن ثمة فإن توسيع مفهوم الاستعارة سيحقق فوائد كثيرة أهمها:

أ- الخروج من الأفق الضيق للاستعارة البلاغية.

ب- ربط جوهر الفعل الاستعاري بالانتقال من مرجع أصلي إلى موقع فرعي.

ج- إدراك قوة الملكات الاستعارية عند الإنسان وأدوارها في تشكل البنى الثقافية الكبرى، فالاستعارة لا تنتج الصورة الشعرية فحسب، وإنما تنتج النصوص، وتُشكل البنى الذهنية، كما تصنع الكتب، وتبني الثقافات، وقد تنشأ عنها حروب، وقد تزول دول كاملة وتنشأ مكانها دول أخرى بالطاقة الاستعارية والاستمداد من النصوص والمرجعيات والبنى الثقافية المستعارة قبل الثورة الرقمية وبعدها.

سيُظْهر التفكير في التشكل الاستعاري من المنظور المتوالي التجاذبات والتقاطعات والتماهيات والمؤانسات والتعاندات الحاصلة في كل خطاباتنا من أدنى مستوياتها إلى أعلاها؛ فالحياة قائمة على استعارات أداتية وثقافية وهي التي تشكل نسيج ما نتفاعل معه من النصوص والخطابات. وبالإمكان -تبعا لهذا- توسيع مفهوم الاستعارة ليضم ما يلائم آلياتها وضوابطها التحققية دون مبالغة أو افتعال، وكما وُفقنا في توسيع مفهوم التقابل وإعادة بنائه بناء كليا تنتظم تحته التقابلات النصية الصغرى والكبرى، فإن المبدأ الاستعاري يقبل بدوره هذا التوسيع، سيما وأن الأمثلة الدالة على ذلك كثيرة ومطابقة ولا تمحل فيها أو ادعاء أو تَزَيُّد، والغرض من هذا تجاوز البناء التصوري العابر للقرون والثقافات حول الاستعارة بمنظورها الضيق؛ لأنه لم يعد يستوعب كل الأفعال الاستعارية المكتملة التي ننجزها في مجال الكتابة والتأليف، ومجال الأدب والنقد، وفي كل علم من العلوم، وبين العلوم المتباينة. فأنت تجد أن توصيفات كثيرة دخلت في البلاغة القديمة ضمن السرقة الشعرية[1] مثل "الإغارة" و"الاهتدام" و"الغصب"، و"النسخ" و"الفسخ" و"العكس"، و"الاختلاس" و"الموازنة"، و"المرافدة"، و"الالتقاط" و"التلفيق"، و"الانتحال"... وكلها تفريعات عن مفهوم قدحي هو "السرقة". وبوسع تصور

---

(1) انظر ابن رشيق القيرواني مثلا، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ج2، ص281.

ينطلق من أفق معرفي مغاير، غير الذي انطلق منه البلاغي القديم، أن يدرج هذه الإمكانيات المدققة بالأسامي، تحت مسمى الاستعارة بمعناها "الأداتي الموسع"، يكون موضوعها استعارة المعاني بإخراجها من كيانها الشعري الأصلي عند صاحبها إلى كيانات شعرية مغايرة لأهداف مختلفة.

هل من الضروري أن نتتبع اليوم عيوب الكتاب والشعراء القدامى بوصفهم سُراقا للمعاني أو الصور؟ ومتى كانت المعاني في ملك أحد؟ لم تعد للمعاني اليوم تلك القيمة الرمزية الدالة على التميز والتجديد الذي يُكسب صاحبها مالا وحظوة. لقد تغير مفهوم تملك المعاني والأشياء الرمزية، وقد لاحظنا هذا النزوع الكوني في تقاسم كل شيء على الفضاء الافتراضي (الخير والشر)، الكتب والمعلومات، والصور، والمواد العلمية، والصور الفاضحة، والعراء، والحيوانية، والتطرف، والقبليات الضيقة... يحتاج زمننا إلى بلاغة جديدة، لا تتقيد بتلك المفاهيم القديمة التي كانت تدقق في كل شيء وتعطيه مسمى، وتحرص على إشاعته وتداوله بين الناس. إننا لا ندعو إلى الفوضى وعدم احترام الملكية الفكرية أو الأدبية، وإنما إلى إعادة تصور الأشياء وفق منظور يناسب القفزة الرقمية والمعرفية التي أصبح يعيشها عالمنا المعاصر.

الأفق المفتوح للاستعارة

في مجال الكتابة تستعار الصور والأخيلة والمعاني والألفاظ، وفي مجال الحياة تستعار الوجوه والأقنعة: الابتسامات والحركات والهيآت مثلا، أليست كثير من الوجوه مستعارة؟ إن الإنسان يُظهِر ويُخفي، ويتجاهل، يبتسم بصدق وبغيره، يناور، ويموه، وقد يخادع بسيماه. في كثير من الأحيان يُستعار الابتسام، يُفتعل، وبالأخص في مجال العرض والإشهار التجاري، والتمثيل والمسرح، وفي اللعب مع الأطفال، أو كلما كان المبتسَم له موضع اهتمام أو رغبة أو مخاطرة..

ليس هذا حُكما عاما، في الدِّين الإسلامي "ابتسامك في وجه أخيك صدقة"[(2)]، الابتسامة عالم ظاهر من المحبة، المسلم مدعو إلى التعود عليها حتى

---

(2) الترمذي، **الجامع الصحيح: سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، رقم الحديث: 1956.

تصبح عادة طبيعية جميلة تنعش العلاقات الإنسانية وتحقق الألفة والإحساس بالأمن. لكن من لا يأخذ هذا الأمر على الوجه الإيجابي يستعير الابتسامة من هذا الأصل الفطري الطيب المعبر عن قيم التعارف والتآلف والقَبول إلى قناع يُخفي المكر والخداع. تصبح السيمياء الطبيعية الأصلية والحقيقية مستعارة لاستعمال مغلوط، لإخفاء الكراهية، للتمويه، والمغالطة.. وقس على هذا سائر الأفعال التي تكون تمثيلا لأداء غرض، أو تمثيلا في المسرح والسينما والحلقة وغيرها؛ فالممثل يستعير الأدوار والحركات والوجوه والطبائع، يستعيرها ليس لتملكها، وإنما لأداء مقاصد معينة. التمثيل بدوره مجموعة استعارات من الواقع والمجتمع، ومن طبائع البشر لبيان موقف أو تغيير سلوك، فلا أحد يتملك طبائع الناس على الحقيقة بالصورة أو التعبير الجسدي، أو الإيماءات... إنها تُختار وتُستعار لأداء قصدية، وصورتها في خطاب التمثيل أو السينما أو الإشهار هي صورة مستعارة، صورة فنية في نهاية الأمر. والمتلقي يدرك المستعار والمستعار منه إذا استحضر الخلفية المرجعية نفسها: البيئة والمجتمع والثقافة التي انطلق منها منتج الخطاب، فتُفهم استعاراته على الوجه الأكمل.

الاستعارية مستويات متباينة من العمق أو السطحية، من الجاذبية أو ضعف التأثير. في مجال الإشهار -مثلا- تستعار أحوال الطيور للإنسان، وأحوال الإنسان للطيور، وتستعار مقومات القوة من الآلة للإنسان، ومقومات الإنسان للحيوان، وتستعار الألوان والعبارات والأغاني والأنغام والصور، والعادات الاجتماعية، وتستعار مقاطع الأفلام القديمة وغيرها لتؤدي وظيفة الإقناع والتأثير المرغوب فيه عند المشاهد، ليقتنع ويرغب في اقتناء البضاعة. أصبح الاستدعاء الاستعاري أداة تجارية تحقق الأرباح والمكاسب المادية، لقد كانت دوما كذلك وهذا هو الوجه النفعي لصناعة الاستعارة، إنها تصنع لربح المال أو تغيير وضع أو حال نحو الأحسن. وهذا بلا ريب ما يدعو إلى تأمل وظيفتها الحجاجية، فإن لها دورا حجاجيا لقيامها على الادعاء، إدعاء أمر في شيء لم يكن له، ثم يتم تعزيز الادعاء بما يثبت صحته من الوقائع والأحوال الممكنة في الواقع أو القريبة منه أو الموجودة على حوافه... ولأنها كذلك يصح قبولها وانتظار تحققها بالخطاب أو بصدى

الخطاب. ولعلنا نتأكد أكثر من صحة فرضية الاستعارة التركيبية في الخطابات بترديد سؤال موجه: ما المقومات والمعينات والأشكال التي استعارها صاحب العمل الفني (مسرحية، شريط، كتاب..) لصناعة خطابه وإبلاغه؟

ستجد أن لباس المُنتج الفني أو الأسلوبي يتشكل من مجموع مواد مستعارة مدبجة مع بعضها، إذا أدركتَ أكثرها فبقدر معرفتك النقدية بنوع الخطاب وبالمرجعيات الثقافية التي انتفع بها. وإذا لم تدرك كل ذلك أو بعضه فلا يعني أن سلسلة كاملة من الاستعارات لم تحدث (استعارة الأقوال، استعارة الأنوال، استعارة الأحوال، استعارة الأشكال...). بل منها ما قد لا ينتبه إليه منتج الخطاب نفسه، لبعد تأثره بمرجع معين، وأقوى الأعمال الفنية تقوم على نسيج متين من الاستعارات الظاهرة والخفية، البعيدة والقريبة.

يغتني الخطاب بكثرة الاستعارات المنوالية والتصورية واللغوية، ويحقق شهرته بجودتها، ومَهمة محلل الخطابات وفق هذا المنظور هي تعقب رحلة الأنساق المستعارة، وبيان وجوه الملاءمة في بناء الاستعارات ودقتها، حيث يصبح الخطاب بمثابة طريق سيار للاستعارات، حركة مستمرة للأنوال المستعارة ذهابا أو إيابا، تمضي بنا إلى مفترق طرق التواصل ومذاهبها المتشعبة. وهكذا فإن إدراك هذا الأفق الاستعاري الواسع، واختراق المنظور الضيق للاستعارة اللفظية إلى الاستعارات الرقمية والمنوالية من شأنه أن يغني صناعة الخطابات وتأويلها وفهمها.

موجهات الفعل الاستعاري

العارية ما تم تداوله، والتعاور والمعاورة شبه تداول الأمر بين اثنين[3]. تقوم الاستعارة والإعارة عامة على التعارف والمداناة والتقارب والتشابه والتلاؤم. أما التناكر والمنافرة فيُقْفِلان أبواب التبادلات والتنقيلات الممكنة. ينشأ الإنجاز الاستعاري من عمل الذهن والذوق توخيا للبيان وتحسين المعنى، سواء كان لغويا كما عرفنا في البلاغة القديمة أو بالمعنى الموسع كما نقترح؛ فاستعارة كتاب من

(3) انظر **لسان العرب**، مادة عور.

شخص لا تتم إلا بعد حصول التعارف بين المعير والمستعير، وهو نفسه التعارف الحاصل أو الممكن بين لفظتين. هذا المبدأ يحكم كذلك الأنوال الاستعارية التي سنقف عندها.

يُخرجنا المنظور المنوالي الموسع من الحديث عن استعارة محسوس لمحسوس، أو معقول لمحسوس، أو محسوس لمعقول، وغير ذلك مما ذكره البلاغيون القدامى، إلى استعارة شكل لشكل، وإطار جمالي لآخر، وفكرة لفكرة، ومصطلح لمفهوم، ومنوال أدبي لآخر، واستعارة المقامات والأحوال، والمعجمات الشعرية أو الدينية، والصور، ونتائج علم من العلوم لعلم آخر مجاور، وهكذا دواليك.

تظل الوظائف التي تحققها الاستعارة اللغوية: الإيجاز والبيان والادعاء والمبالغة، والتوسع في أدوات التعبير، والقدرة على تشخيص المعنويات مفيدةً في التحليل الاستعاري الخاص بالبنى الاستعارية اللغوية، فالتصورات الموسعة لا تلغي الضوابط والاجتهادات المدققة في البلاغة الصغرى القديمة، ولا تتجاوزها أو تحل محلها في تحليل التراكيب اللفظية الاستعارية، وإنما تغنيها وتكملها وتسندها بالنظر إلى المستويات التي لم يشملها التحليل الاستعاري داخل الجملة للانتقال إلى الاستعارة الجملية والخِطابية، والمعرفية والثقافية.

يقتضي الفعل الاستعاري في أعرافنا الدينية والاجتماعية إرجاع المستعار إلى صاحبه أو منواله الأول، كما يحدث في الأحوال العادية اليومية، لأنه متعلق بأداء وظيفة مؤقتة، وإبقاء المستعار على صورته، مع حدوث توافق بين طرفي الاستعارة طلبا واستجابة، وردا وشكرا واعتبارا. ثم إن من مقومات ما يُستعار أن تنتقل لمستعيره منافعُه مثلما يحصل للمالك في لبس ثوبه واستعمال ما يملك من الأدوات[4]، وقد لا يحدث ذلك لفساد الطبع عند المستعير، فتتحول الاستعارة إلى استلاب أو انتهاك لقانون الأخذ وقضاء المأرب ثم رد المستعار كما هو، لأن حق التصرف فيه تصحيحا أو تصويبا أو إتلافا إنما هو من حق المالك الأصلي.

---

(4) عبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة**، اعتنى به: مصطفى شيخ مصطفى وميسر العقاد، مؤسسة الرسالة، ناشرون، بيروت، ط1، 2004، ص234.

لا يحدث مثل هذا بالتمام في الاستعارات الخِطابية؛ لأن الثقافة الموروثة والأنوال المبنية على مر التاريخ في مجالات الحياة المختلفة تصبح مِلكا مشاعا بين الناس، للكل حق التصرف فيها، ويتم في كثير من الأحيان تغيير صورة المنوال المستعار وتشويهها أو تبديل ملامحها كليا أو جزئيا، بالحذف أو المزج أو الإضافة أو السلب، أو المحو أو غير ذلك. فتصبح الأنوال مادة أوليةً يُبنى عليها كُلاً أو بعضا مما يجعل الأصل غير ظاهر. يفسر المبدعون والمؤولون ذلك بالطاقة التي يمنحها الاستنساخ الاستعاري للتجديد، والابتكار، ولكن التفسير الآخر الممكن هو القدرة الكبيرة كذلك على التنكر والتنكير، وعلى المحو والتبديل والاعتداد بالجهد الصناعي في ابتكار منوال جديد، وأهل الصناعات في الأغلب مجبولون على ذلك.

بعد زمن طويل، سيغدو اكتشاف المنوال الأصلي المستعار من اختصاص المحترفين، والعلماء بأحوال المناويل وتنقلها من نمط إلى آخر، ومن صورة إلى أخرى. أما المتلقي العادي فلا يهتم بذلك لأن غرضه هو ما يحققه المنوال عنده من فائدة قريبة أو بعيدة، ومن ثمة فجوهر الاستعارة أنها عارية، ولكن المعمول به في سنن الحياة أن المنوال قد يُعرف أصله ويُدرك ولا يُرجع إليه، لانعدام المطالِب بذلك، وجريان أحوال الحياة إلى الأمام، ولهفة الناس بالجديد والمفيد.

يظل الاستنساخ الاستعاري اللفظي قائما في خطاب صاحبه بالشكل الذي ارتضاه، لكن اللفظة المستعارة تستمر في استعمالها على الحقيقة. الأمر نفسه حاصل في استنساخ المنوال الشعري وغيره، فالأصل لا يتعطل مطلقا، إنه يظل عاملا وفق نظامه الأول (منوال الشعر الغزلي/منوال السفينة/منوال التسقيف بالقصب...) لكن استعارات المنوال المبدعة تظل ممكنة وقوية الحضور بلا حدود، فالغَزل الإنساني يتحول إلى الشعر الصوفي مثلا، وشكل السفينة لبناء مسجد للتعبير عن معنى العبور من بحر الدنيا المتلاطم بالشهوات والاغترارات، وشكل القصب يستعمل في صناعة الجبس وزخرفة أسقف البنايات الحديثة... وقِس على ذلك.

نحو وحدة لأنوال الأدب

هل تموت الأنوال وتنقرض لتظهر أنوال أخرى؟ أو تتوارى مؤقتا ثم يأتي بعد ذلك من يُظْهِرُها ويُجَدِّدها؟

تُلحِق دورات الزمن البلى بالنماذج الأدبية، والفنية عامة، مثلما يلحق البلى والتشوه الأنوال التقنية والمبتكرات الصناعية، ثم يأتي زمن يحدث فيه التهجين أو التركيب بين بعضها، وفي مجال الأدب ظلت الأنوال القولية تحافظ على نقائها وتَمَيُّزها مدة كبيرة من الزمن؛ فالشعر له منواله النظمي والتصويري، والرسالة لها منوالها ونظامها البلاغي والإقناعي، والمقامة لها منوال معروف، والحكاية، والمثل، وكل أساليب القول، ثم ظهرت أنوال جديدة في الشعر، والمقالة والقصة والرواية، ثم ظهرت إبداعات روائية تخلط الأنوال، وتعتمد لغة الشعر، وبلاغة الإقناع..

في المجال النقدي تتبعتْ دراسات كثيرة حضور القصة في الشعر، وحضور الشعر في القصة، والإقناع في الأدب، بحثا عن التداخل والانتهاك أو الاستفادة وغير ذلك... ولم يدرك الدارسون- فيما يبدو- أن تاريخ الأدب وفنونه هو تاريخ **تداخل الأنوال** أو تنقيل الأنوال، وأنه ليست هناك حدود قارة أو خرائط ثابتة أو وصفات جاهزة، وإنما هو تاريخ تفلت وتنقيل وتحويل من منوال إلى منوال، إذ تُحتذى الأنوال الناجحة وإن كان المحتذون لا يُوفَّقون دائما في بلوغ تمام درجة المحتذى، وإنما ينجح المجددون الذين ينطلقون عادة من قوة روحية صناعية عالية مع حضور الإبدال في جوهر المنوال الصناعي أو القولي.

نحاول في أحيان كثيرة أن ندرك تباين الأنواع الأدبية -مثلا- انطلاقا من الخصائص المميزة بدافع من نزوع تعليمي، والأجدر أن تتحرك لفهم هذا الأمر نظرية الأنوال ابتداعا واتباعا وتداخلا لتتبع حدود التماثل والتمايز بينها، وهو ما سيساعد على تحقيق رؤية علوية نسقية بعد أن هدأت حركات التنقيل، وتجلت مواقع الأنوال تاريخيا في جغرافيات الأدب، أو بلاغات القول. وكما تتحرك الثقافات بأنوال بانية في زمن من الأزمنة فقد تتحرك بأنوال فاسدة في زمن آخر، تبعا لحصول التأثير وغياب الاستقلالية في الإبداع، والعمق النقدي البَناء، فالأنوال القولية تنضج غالبا بالتجريب والتمرن وقوة الصناعة.

قد تسمح لنا التصورات المقترحة بفهم بنية الأشكال الأدبية، وتحول النماذج الصناعية، وتجاوز المفاهيم النقدية القديمة المتعلقة بالطبع والصنعة، والسرقات، والقديم والجديد، إذ سيتم النظر إلى الأدب بعد تاريخ طويل على أنه كيان واحد، ودولة كلامية واحدة تحدها أقاليم القول المتباين في تضاريسه وهيآته وأشكاله، إنه تجربة جماعية أعطت كل هذه المنتجات المتوالية المتحققة، وأخرى في مرحلة كمون تنتظر التحقق الفعلي، إذ طالما أسقطتنا النظرة القريبة والتجزيئية في أحكام متسرعة ونقود جزئية. يمكن لدارس التيارات الأدبية، والنقد الأدبي، وتاريخ الأدب النظر إلى الأدب اليوم على أنه نتاج مشترك، وتاريخ من التفاعلات المتوالية المتحركة والمتزحزحة التي أحدثها تاريخ كامل من التحولات والتنقيلات والتأثرات والتأثيرات، شارك فيها اللغويون والبلاغيون والنحويون والشراح والنقاد والشعراء.

إن تَشَكُّل مقترحات نقدية انطلاقا من هذا الأفق التصوري سيكون له – بلا ريب – قدرة توصيفية شاملة لحركات التجديد في البلاغات القولية، وأدوات تفسير ملائمة لما حدث، ليس فقط داخل أدب أمة من الأمم، بل بين الآداب العالمية جميعها. وأهل صناعة الأدب اليوم يجتهدون لتحقيق بلاغة قولية ومقصدية ذات بعد كوني، كانت الأفراس تجري في ميادين مختلفة فتوحدت الآن بفضل التواصل بين الثقافات، وشيوع الترجمة، وتقارب قارات الاهتمام الأدبي والإنساني حفزا وتشجيعا وقراءة.

يثبت هذا ما يحدث بين النماذج العلمية من تقارب وتجاذب؛ فالنجاح العلمي الكبير المتمثل في الإبداعات الرقمية المتطورة لا يحفل بالاستقلالية المعرفية، وإنما يسخر كل التطورات المتاحة لتحقيق أدوات متطورة تلبي حاجات الإنسان. تتشابه في هذا النماذج الصناعية المتطورة (صناعة الهواتف الذكية، والسيارات، والشاشات الرقمية، والتجهيزات المنزلية..) وتشتد المنافسة لاستثمار كل التقدم العلمي والثقافي الكوني قصد تحقيق التطور المطلوب. لم يعد الصناع يحفلون داخل هذا الوضع التنافسي باستبداد الأنوال القديمة واستقلاليتها تبجيلا وتقديسا، وإنما بقدرتها على تقديم العون للتجديد.

هذا الواقع العلمي الجديد الذي يقدم نفسه منوالا جديرا بالاحتذاء في المجال القولي والمعرفي، هو ما يجعل اليوم من صناعة الخطاب فضاء لتفاعل الأنوال القولية، قائما على الاستمداد والأخذ والتطويع والقدرة على البناء المزجي بين بلاغة السرد مثلا وبلاغة الإقناع وبلاغة الشعر في خطاب واحد، فالتداخل النوعي في الخطاب الواحد تحركه مقصدية المنتج ورغبته في تحقيق الغايات الكونية التي يُسخر لها الخطاب في العادة.

خلاصات وامتدادات

1- إن زاوية النظر الجديدة للاستعارة الصناعية والمنوالية يمكن أن تغير نظرتنا لما حولنا، ولطريقة فهمنا وتحليلنا للخطابات. لا ننظر للاستعارة بوصفها أسلوبا تحسينيا أو حجاجيا يدافع عن مقصد، بل من حيث هي فعل استراتيجي يخترق تفاعلاتنا مع كل ما حولنا ومَن حولنا. هذا الفعل الصناعي الاستراتيجي يستدعي منا أدوات تأويلية مناسبة فعالة، ومفاهيم خادمة جديدة تبعا لمستجدات الحياة الاستعارية التي لا تنتهي.

2- يدعو تحليل الخطابات، وتأمل الآليات الخفية المطردة في صناعتها إلى الإقرار بدور المحرك الاستعاري النشط في ذلك، وما يتعلق به من أدوات وأساليب وفق نوعه ووظائفه وسياقه. لكن التحليل الفعلي التحريبي سيبين صحة تلك القوانين الملحوظة. بحيث يكون التأكد من فرضية المنوال الاستعاري الحاكم الموجه لصناعة الخطاب قد حصل بالملاحظة والدراسة التحققية العملية للنماذج. ولعلنا بهذا نستعير بعض أسس الإثبات والتحقق من العلوم الحقة، مثل ملاحظة المتماثلات والمتباينات، للكشف عن الانتظامات التي يمكن التعبير عنها بالقوانين، ثم التجريب التحليلي الذي يتجاوز الملاحظة إلى الاختبار المفضي إلى قوانين أو مبادئ.

3- ليست القوانين العلمية إلا تقريرات تعبر عن الانتظامات الملحوظة في عالمنا، فالأشياء تسقط إذا ألقيناها، والنار تحرق دائما[5]... إن ملاحظة أشكال

---

(5) كارناب ردولف، **المدخل إلى فلسفة العلوم**، تر: السيد نفادى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 2003، ص18.

الفعل الاستعاري في حياتنا، وفي بناء النصوص، وتتبع تشكيل النماذج، والانتظامات الحاصلة في هذا الشأن مما يمكن تحويله إلى مبادئ عامة أو اتجاهات أو تقسيمات أو أنوال؛ تنشأ عن ذلك مجموعة من التصورات القابلة للتشكل بصفة "عِلْم" يكون موضوعه سيمياء الاستعارات بكافة أشكالها الظاهرة والخفية، اللغوية والرقمية، القريبة من انشغالات الإنسان المعاصر. مما سيسمح بتفسير ما يجري في سائر الصناعات من ألوان المبادرة الاستعارية والتي تتخذ تسميات شتى، لكن الجامع بينها كونها حيازة لمنوال أو شكل أو كلمات أو صورة أو فكرة أو نموذج مع الإشارة إلى أصله، وربما دون الحاجة إلى ذلك. قد يحصل هذا بوعي استعاري أو بدونه؛ لأن التملك والحيازة مما تعمل به ذاكرتنا، فكل ما تلقيناه منذ زمن بعيد، وهو من إنتاج الآخرين وفكرهم يصبح مع الزمن جزءا منا. وفي "العلم كما في الحياة اليومية لا يتم ذكر القانون الكلي دائما"[6]. فهل نوفق إلى تحويل الانتظامات الحياتية الاستعارية وتكرارها إلى قواعد وقوانين ومقولات؟

4-الاستعارة المنوالية **فعل استراتيجي** في صناعة الخطابات، وهي أكثر استعمالا في العلوم والآداب، مما يستلزم **نظرية واصفة** لهذا التنوع الاستعاري، ونظرية لفهمه وتأويله، ونموذجا تحليليا لمقاربة البنى الاستعارية المجاوزة للجملة.

5- يتكلم الناس وهم لا يأبهون باستعاراتهم، بل يعدونها جزءا من استعمال اللغة، لا فرق عندهم بين الحقائق والمجازات، فاللغة التواصلية اليومية تشتغل بذلك المنوال، وهم يُعِدّون -في الوقت ذاته- ما سيستعيره غيرهم. وكذلك كان الأمر قديما في صناعة القول الأدبي، فلم يكن التفكير في بناء الاستعارات والمجازات والكنايات والمقابلات جزءا من المعرفة بعلم الأدب لدى منتجيه، وإنما مظهرا من مظاهر استعمال اللغة في الأدب ارتقت إليه الملكات الأدبية. ثم تتبع ذلك الوصف البلاغي الذي حاول تصنيف مظاهر الاستعارة والعدول ومحققات الجمال في اللفظ والمعنى والتركيب والتخيل، وكثُر التصنيف والتمثيل والاصطلاح والتفريع، حتى

---

(6) السابق، ص24.

أضحى علم البلاغة مدونات واصفة لجماليات الخطاب وأساليبه، ومرجعا لتقويمه، وقوانين ومبادئ تنضبط بها الصناعة الأدبية. وقد قدمت البلاغة القولية للبلاغة العلمية مادة غزيرة وواسعة لوضع كليات العلم وجزئياته، بل أسست أنوالا تأويلية توجهت لبيان إعجاز القرآن الكريم، وبيان معانيه، واستفادت الشروح الأدبية ومناهج النقد والتأويل قديماً وحديثاً من كل ذلك. وباختصار، إننا نستعير لنبني ما يُستعار.

الفصل الثاني

توسيع مجال الاستعارات المتوالية

التعارف والتناسب -كما ذكرنا- مبدآن هامان في الأفعال الاستعارية؛ فالتعارف هو منطلق العلاقة بين باني الخطاب قصيرا أو مطولا وبين فضاء اللغة الذي يستعير منه، أو فضاءات المعرفة التي له بها علاقة واطلاع، أو نتاج الحضارة كاملا، وجميع الاستعارات كما قال ابن البناء العددي: "إنما هي إبدالات في المتناسبة"[1]، والتناسب يقع بين الأشياء المتكافئة والمتعاندة والمتوافقة والمتضادة.

قبل أن يتم اعتماد مصطلح "الاستعارة" بمعناه الإجرائي بين البلاغيين القدامى، فإن الأوائل منهم أدركوا فقط ما حدث من إعارة لفظ لاستعمال لم يُعْرَف به، ثم صار مصطلحا متفقا عليه لوفائه بوصف حقيقة المعنى المنتقل مما وُضِع له في أصل الاستعمال إلى ما ليس له (الفرع). ثم توقف الوضع الاصطلاحي عند ذلك، ولم يتم تطويره لقرون طويلة إلا لذِكر التفاصيل المُدرَكَة في عمليات النقل اللفظي تلك، لكن باب الاجتهاد لم يُغلق، وسار اللاحقون على ما وضعه الأولون فلم تتجاوز الاستعارة بمفهومها البلاغي مستوى معنى اللفظة الواحدة.

غير أن صلاحية هذا المصطلح لوصف عمليات التنقيل والتحويل المجاوزة للفظة إلى الجملة والنص تظل قائمة على وجوه موسعة، لتستوعب كثيرا من مناحي النقل الثقافي وما يتعلق به من استعارة الأنوال والنماذج والكيفيات والهيآت قد لا يراعى فيها التناسب دائما؛ فالاستعارة كيمياء تصورية ولغوية وثقافية؛ فهي تصورية إذ بها

---

(1) ابن البناء المراكشي العددي، **الروض المريع في صناعة البديع**، تح: رضوان بنشقرون، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985، ص143.

نتصور المفاهيم المجردة[2]، وبها نفكر، ونفهم المجردات انطلاقا من المحسوسات. تقوم الاستعارات على الإسقاطات بين المجال الأصلي والمجال الجديد. وأما كونها لغوية فهو ما عُرِفت به في البلاغة العربية وأساسه المشابهة، وأما كونها ثقافية فلقيامها على **الأنوال الثقافية**، ونقصد بها الأنظمة الكلية الجمالية والشكلية وقوانين العلوم، والمفاهيم ونُظم التفكير والأدوات الفنية. ويقوم كل ذلك على الجدوى والوظيفية والغائية والقدرة على إدماج بنية قديمة في بنية جديدة، أو الاستئناس بنموذج قائم، أو منوال مجرب لتطوير تجربة جديدة، وعلى ذلك تتأسس كل علاقتنا بالتراث الإنساني في العلوم والآداب والفكر والاقتصاد والإعلام وغيرها. ويقتضي ذلك حدوث تناسب بين المستعار منه والمستعار له، لأن توافق العناصر القديمة مع القالب الجديد هو ما يمنحها حياة كاملة وتقبلا قويا عند من وُجه له الإبداع الجديد المستفيد من منوال مختار ومستعار.

يمكن أن نميز انطلاقا مما سبق ثلاث علاقات متحكمة في الأفعال الاستعارية:

أ- علاقة المشابهة في الاستعارات اللغوية.

ب- علاقة التناسب في الاستعارات التصورية.

ج- علاقة الوظيفة المنوالية في الاستعارات الثقافية: تقتضي الاستعارات الثقافية منوالين: جاهز وآخر في طور التشكل، والجاهز هو مزيج من منوالين سابقين، أو انتقال من طور لآخر، يحدث ذلك بالتمازج بين النماذج العملية أو الفنية المبنية.

تتفرع هذه العلاقات عن القانون الطبيعي التلقائي الذي يتحكم فيما ينتجه الناس من أقوال وخطابات وأشكال تواصلية، بل وفي ابتكاراتهم المادية ومجهوداتهم العلمية والنظرية، وذلك من عمل الملكات الاستعارية، وذكاء الإنسان في البحث عن التمازجات الممكنة لغويا وذهنيا وعمليا لتحقيق حاجاته في التواصل والاحتجاج والابتكار، وتحقيق بلاغة الخطاب قصيرا كان أو طويلا، بل وتحقيق بلاغة قدراته الصناعية التي تناسب العصر الذي يعيش فيه.

---

(2) الأزهر الزناد، **نظريات لسانية عرفنية**، الدار العربية للعلوم/بيروت، والاختلاف/الجزائر، (د.ت)، ص157.

توسيع فضاء عمل الاستعارة

تنقل الاستعارة المفردةَ لتوسع مداها الدلالي باستخدامها في سياق غير مألوف، وهي من سُنن الكلام عند العرب مثل الحذف والتشبيه والكناية... مقتضاها "تعليق العبارة على غير ما وُضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة"[3] مثل: (لسان الحال، وزمام الحُكم...)، وهي باب من أبواب الاتساع في الكلام اقتدارا[4]. ومِن القدماء من جعل المجاز كله استعارة، على اعتبار استعارة اللفظ من مستحقه الذي وُضع له أولا، ونقله إلى ما تُجوز به عنه، فسموه مجازا[5]، وهي بهذا مجاوزة من محل إلى محل. مقابل ذلك اعتبرها آخرون ضربا من المجاز[6]، وأنها "ذكر الشيء باسم غيره لإثبات ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه"[7]، وكلما ازدادت خفاء ازدادت حسنا.

تقوم الاستعارة على المستعار منه والمستعار والمستعار له، والمستعار منه والمستعار له لفظتان حُملت إحداهما على الأخرى[8]. والتحقيق الاستعاري كذب مدعى، وبتأويله على وجهه الصحيح ينتفي كذبه؛ ف"سالت بأعناق المطي الأباطح" مجاوز للحقيقة، ولكن يبين وجه التخييل بتأويل "امتلأت الأباطح" فيجعلها قابلة للتقبل. وقال آخر: "زوِّج المجاز بالتشبيه فتولد بينهما الاستعارة،

(3) أبو نصر الفارابي، **في المنطق**، تح: محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986، ص384.

(4) انظر ابن رشيق القيرواني مثلا، **العمدة** م.م، قال عن الاستعارة "إنما هي من اتساعهم في الكلام اقتدارا ودلالة، ليس ضرورة، لأن ألفاظهم أكثر من معانيهم... ألا ترى أن للشيء عندهم أسماء كثيرة وهم يستعيرون له مع ذلك؟" ص274.

(5) العز بن عبد السلام، **مجاز القرآن**، تح: مصطفى محمد حسين الذهبي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1999، ص45.

(6) انظر كتاب: أحمد يوسف علي، **الاستعارات المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي**، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2015، ص10.

(7) نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي، **جوهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة**، تح: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ت)، ص58.

(8) نفسه، ص58.

فهي مجاز علاقته المشابهة"[9]. وأما أقسامها فهي[10]: استعارة محسوس لمحسوس، مثل: ﴿**إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم**﴾[11]: فالريح محسوس والمرأة العقيم محسوس، والجامع المنع من ظهور النتيجة. واستعارة المعقول للمعقول﴿**من بعثنا من مرقدنا هذا**﴾[12] استعار الرقاد للموت وهما معا معقولان للتشابه في السكون. ثم استعارة المعقول للمحسوس﴿**إنا لما طغى الماء**﴾[13] استعار الطغيان (معقول) لمحسوس (الماء). واستعارة المحسوس للمعقول ﴿**في كل واد يهيمون**﴾[14]، استعير المحسوس (الواد) للمعقول (الهيمان).

إن طبيعة هذا المصنَّف تركيبية اقتراحية، ولذلك نعتمد الإشارات المختصرة لأهم العناصر التي تفيد في بيان وجاهة طرح الاستعارة المنوالية، وقد تطرق دارسون محدثون كثيرون لأقسام البلاغة وتسمياتها[15]، ولا نريد أن نكرر التصنيف، أو التتبع التاريخي لنظرية الاستعارة في البلاغة العربية، فمنطلقنا هو تعزيز التأويلية الحديثة بتصورات وأدوات لمقاربة الخطاب في مظاهره المتنوعة، ومنها المظهر الاستعاري.

تباين المقترحات الاستعارية الغربية

نظريات الاستعارة في الدرس البلاغي الغربي متعددة المشارب، ومتباينة التصورات، حاولت كل منها تجاوز سابقتها وبيان مناحي ضعفها أو نقصها،

(9) علي بن معصوم المدني، **أنوار الربيع في أنواع البديع**، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ط1، 1968، ج1، ص243.

(10) جوهر الكنز، ص57.

(11) الذاريات، 41.

(12) يس، 59.

(13) الحاقة، 11.

(14) الشعراء، 225.

(15) انظر: الحويدق عبد العزيز، **نظريات الاستعارة في البلاغة العربية**، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2016. وقد تناول فيه الباحث متوسعا ومدققا قضايا الاستعارة بين الدرس اللغوي والدرس القرآني، ومفهوم الاستعارة عند البلاغيين والفلاسفة، كما بين بتفصيل واف الفروق بين الاستعارة التصريحية والمكنية، المجردة والمرشحة، الوفاقية والعنادية، الأصلية والتبعية...

ومنها: نظرية **جان كوهن** ذات الطابع البنيوي[16] والتي فسرت الإنجاز الاستعاري باعتباره انزياحا استبداليا قائما على المشابهة. والنظرية التفاعلية مع **ريتشارد** والتي اعتبرته تفاعلا للكلمة مع ما يجاورها، أو هي نتاج تفاعل بين مكونـات الجملـة والخطاب وبالأخص المستعار منه والمستعار له[17]، وتدعو إلى عدم الاقتصار على الكلمة الواحدة، وإنما البؤرة وسياقها؛ فالتشابه – من منظورها– لـيس وحـده العلاقة التي تقوم عليها الاستعارة. واستحضر **سورل**[18] في نظريته التداولية مبـدأ القصدية التلفظية التي تُخرج الكلمة من الاستعمال المألوف إلى الاسـتعمال غـير المألوف، مع تطبيق التصورات التداولية والمنطقية لتحليلها، لكن مقترحاته لم تسلم من النقد. واهتم **بيرلمان** في نظريته بالوظيفة الحجاجية للاستعارة[19] انطلاقا مـن كون المستعار قد أصبح معروفا بالعادة والعرف والمشاهدات، فهو بمثابة الشـاهد، له دور إقناعي. كما تظهر لمتتبع هذه التصورات النظرية التطورات والاختلافـات القوية في المسألة الواحدة إذا اطلع على النظرية المعرفية التفاعلية مـع **لايكـوف وجونسون** اللذين اقتربا من الاستعارات اليومية "التي نحيا بها"[20]، معتنين بالبعـد المعرفي (الإفهام) للاستعارة لا البعد التزييني فحسب.

يعكس هذا التنوع في المقاربة والاقتراح تباينا في زوايا النظر بشأن أسـلوب واحد من أساليب الخطاب، ومرد الاختلاف هو انطلاق أصحاب هذه التصورات من مرجعيات نظرية مختلفة: بنيوية، أو تداولية، أو معرفية، أو حجاجية، أو نفسية -معرفية، أو عصبية- ذهنية... مما يجعل مجال الدراسة البلاغية متأثرا بـالتطورات

---

(16) جون كوهن، **بنية اللغة الشعرية**، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري. دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1986.

(17) ريتشارد، **فلسفة البلاغة**، تر: سعيد الغانمي وناصر حلاوي، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002. ص73. قال في هذا الصدد: "الكلمة هي دائما عضو متعاون في جسم كلي شامل هو القول".

(18) Searle, R. L' intentionalité.Ed.Minuit, Paris, 1985.

(19) راجع: الحويدق عبد العزيز، **نظريات الاستعارة في البلاغة الغربية**، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، 2015، ص243.

(20) انظر كتاب الاستعارات التي نحيا بها، م.م.

الحاصلة في العلوم المعرفية والمنطقية واللسانية والنقدية والجمالية، خلافا لدراسة الاستعارة في البلاغة العربية والتي ظلت محافظة على مقترحات البلاغيين القدماء، وطريقتهم في فهمها وتقسيمها وتذوقها واتباع اصطلاحاتها: الاستعارة العامة والخاصة[21]، التصريحية والمكنية، الأصلية والتبعية، المجردة والترشيحية، العنادية والوفاقية...[22] فرَسخ الاتباع في ذلك قرونا عديدة، ولا تزال تُدرس في الثانويات والجامعات بتلك الأنوال القديمة تدريسا تجريديا جافا لا دور له في فهم النصوص؛ فبم يفيد أن تقول أثناء تحليل صورة شعرية إن الأمر يتعلق باستعارة تصريحية لأن المشبه به مصرح به، أو مكنية لأن المشبه به غير مذكور، أو أصلية لاشتقاقها من الأسماء الجامدة أو تبعية لاشتقاقها من الصفات والأفعال، أو ترشيحية لأنها تقترن بما يناسب المستعار منه من الصفات، أو مجردة لاقترانها بما يلائم المستعار له، أو وفاقية للجمع بين طرفيها لملاءمتهما في الجوار[23]، أو عنادية لدلالتها على عناد بين المجتمعَين[24]؟!

إن تسمية التحقيق الاستعاري بهذا المسمى أو ذاك يعود إلى ملاحظة خاصية بينة في بنائه، وهو أمر ينم عن تأمل دقيق لاطراداته بما تشهد له الأمثلة، بل مما هو ممكن تحصيله من الوجوه المحتملة عند مستعملي اللغة.. بل إن قارئ البلاغة العربية القديمة سيجد تضمُّنها لبعض ما فصَّلت فيه التصورات الغربية الموسعة للاستعارة مثل مبدإ المشابهة، وحجية الاستعارة وقيامها على الادعاء، والاستعارات اليومية،

---

(21) العامة المعروفة مثل: رأيت أسدا يرمي، الخاصة وهي الغريبة التي يظفر بفهمها أهل الذكاءات التأويلية مثل الاستعارات القرآنية ومثل قول كثير عزة: سالت بأعناق المطي الأباطح.. انظر: أنوار الربيع، م. م، ج1، ص248.

(22) انظر كتاب أحمد عبد السيد الصاوي، **مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين**، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1988. ص111 وما بعدها، حيث قدم تعريفا موجزا لكل نوع.

(23) مثل قوله تعالى: (أو من كان ميتا فأحييناه) (الأنعام 122) أي ضالا فهديناه.

(24) مثل قوله تعالى:(فبشرهم بعذاب) (آل عمران 21) أو قوله: (ذق إنك أنت العزيز الكريم) (الدخان 49) استعارة العزيز الكريم للذليل الحقير يوم القيامة، تبكيتا له، وتذكيرا له بحاله في الدنيا...

والعدول الاستعاري، والوظائف التزيينية للقول الاستعاري، والإبداع والاتباع في إنتاج الاستعارات الشعرية. ولا بد من الاعتراف أن البلاغيين العرب اهتدوا إلى مناح عميقة في تناول أنواع الاستعارات مثل الترشيح والتجريد والتعاند والتصريح والتكنية والتمثيل.

استعارة الأمثال

ترافق الكلام حركة استعارية مستمرة لا تتوقف عند استمداد الألفاظ أو المعاني، إنها نشاط إنساني لا يخلو منه التخاطب اليومي (الدروس والمحاضرات، الرسائل، خطاب الناس في السوق وفي العمل والبيوت..)، والدليل على ذلك أننا نستعير من البنية الثقافية ما نبلغ به مقاصدنا، أو نستدل به على أمر معين، أو غير ذلك؛ فالأمثال التي يتداولها الناس فيما بينهم هي -كما ذكرنا- استعارات تركيبية على مستوى البنية الداخلية، وهي على مستوى الاستدعاء استعارة ثقافية؛ لأن المتكلم يستعير من الثقافة سندا جاهزا ذا حجية لإبلاغ مقاصده، وكلما استدعى مَثلا فإنه يقوي حظ الخطاب في المتعة والإقناع. والأمر نفسه فيما يقوم به الكُتاب وهم يستعيرون الأمثال ويدمجونها فيما يكتبون. إنها بُنى مستعارة ثقافيا تؤدي دورا في مقام تواصلي معين، لكنها تبقى منتسبة لقائلها أو للتراث الواسع المشترك، فضلا عن تركيبتها الاستعارية الداخلية، وهي من الاستعارات التي يكون فيها اللفظ المستعار مُركبا، وهذا اللفظ المركب يستعمل في غير ما وضع له في التخاطب، وقد يطلق عليها: الاستعارة على سبيل التمثيل، ويمكن تسميتها الاستعارة المركبة، لأنها تقوم على تشبيه حالة بحالة أخرى، حيث يُحذف المشبه (المستعار له) ويثبت المشبه به (المستعار منه)، من قبيل" "لا تنثر الدر أمام الخنازير"، "ليس كل حين أحلب فأشرب"، "أراكَ تنفخُ في غير فحمٍ"... وكل الأمثال يجوز اعتبارها استعارات تركيبية كلما استُعملت فيما يناسبها من المقامات والأحوال؛ فقولنا" أراك تقدم رِجلا وتؤخر أخرى" بنية جملية مستعارة مِن الذي حاله تقديم رِجل وتأخير أخرى، والمستعار له الحيران، ووجه الشبه التردد، والقرينة تفهم من الحال وسياق الكلام. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل**

لحم أخيه ميتا فكرهتموه﴾[25]، فالمستعار منه: من يأكل لحم أخيه ميتا، والمستعار له: المغتاب، والعلاقة المشابهة في الاعتداء على الأعراض، وبشاعة الوقوع في إذاية الآخرين[26]. ولكن هذا الاتجاه في دراسة البناء الاستعاري الجملي توقف عند هذا الحد في البلاغة العربية القديمة، و لم يستطع أن يحرك دراسة الأفعال الاستعارية نحو مجال أوسع من هذا، وظلت المحافظة طاغية على الدرس البلاغي والنقدي إلى يومنا هذا، حيث ظل البلاغيون يقدمون أرجلا ويؤخرون أخرى أمام التحليات العديدة للمظاهر الاستعارية التي يعج بها العالم، متمسكين بأطر معرفية تقليدية عاجزة عن تفسير ما يجري حولنا من حياة استعارية متجددة، وغير قادرين على بناء مفاهيم واصفة تتميز بالملاءمة والمرونة لفتح الأبواب بين البلاغة وبين الحقول المعرفية المجاورة. وهذا بعض ما تحاول الاستعارة المنوالية ضبطه والتنبيه إليه انطلاقا مما يجري في البنى الخِطابية من استعارات لغوية وجملية ونصية وأداتية وأسلوبية وحجاجية من منظور استعاري موسع.

ومن ثمة تحتاج نظرية الاستعارة التقليدية إلى بعض التطعيمات المفهومية بجعل الفعل الاستعاري نشاطا موسعا شاملا، تدخل ضمنه استعارة البنيات التصورية المنقولة من سياقها الأصلي مثلما هو الشأن بالنسبة للأمثال والأقوال المسكوكة، فهي تستعار لتسد حاجة معرفية أو تواصلية أو حجاجية... مثلما تستعار المقولات بين العلوم المختلفة، وتستعار الأبيات الشعرية في الخطب والمناظرات، وفي دروس البلاغة والنحو... وتستعار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة مثلا للاستدلال؛ ومعنى استعارتها نقلها من مكانها الأصلي ضمن النص الأصلي الشفوي أو المدون لتصبح موضوعا للتحليل أو التأويل أو الدرس البلاغي أو النحوي أو الفقهي... لكن ذلك لا يُفقدها انتماءها للنص الأصلي.

---

(25) الحجرات، 12.

(26) غركان رحمن، **نظرية البيان، خصائص النشأة ومعطيات النزوع التعليمي**، دار الرائي للدراسات والترجمة، دمشق، ط1، 2008، ص ص279 - 280.

الحاجة إلى معاجم جديدة شاملة للاستعارات

ذكر الفارابـــي أن ما يستعار من اللغة يكون" اسما دالا علـــى ذات شـــيء راتبا عليه دائما من أول وضع، فينقلب به في الحين بعد الحين شيء آخر لمواصـــلته للأول بنحو من أنحاء المواصلة، أي نحو كان، من غير أن يُجعل راتبا للثـــاني، دالا عليه"[27]. إلا أن هذا التصور لا يصمد أمام ما يجري في اللغة من كثرة المجـــاز، إذ كثير من المستعارات أصبحت في مواقعها الجديدة بمثابة حقائق يبنى عليها، وقـــد تتعرض لعمليات استعارية جديدة غير محدودة في الاستعمال، ويصبح لدينا وضـــع استعاري مركب لابد من البحث فيه كيف أصبح "أ" "هو" ب"، ثم تحول إلى "ج" أو "د"... مما يتطلب تتبعا تاريخيا لاستعمالات الكلمة، وهو ما قد تنفع فيه بعض المعاجم، مثل "أساس البلاغة" أو" لسان العرب" أو غيرهما، وتحديد سلســـلة مـــن مدونات الاستعمال الأدبية لتأمل التحولات الدلالية التي عرفتها الكلمـــة، ومـــا حدث فيها من تغيرات بفعل التنقيل المستمر. وهذا ما يدعو إلى تأمـــل حصـــيلة الكلمات التي تبدلت صورها بفعل الاستعارات المتكررة والاستعارات **العنيفة**. فلا نكاد نفقه أصل كلمات اللغة القديمة، أو نُوّاها الدلالية الأصلية، وعنـــدما نفعـــل ذلك نُفاجأ بحجم التغيرات التي حصلت كما في: "كتب"، "أول"،"كفر"، "نافق"، "فسق"...، ف "كتب" في اللغة تعني جمع الخيوط وضمها؛ والكَتْب هـــو الجمـــع والضم. ثم تم التوسع فيها فقالوا: "كتيبة" للدلالة على المجموعة الملتفة من المدافعين، لأنها بمثابة الثوب الذي يقي الحر والبرد. ولما عرفوا الكتابة ورسم الحروف وهـــي تقي أذى العدو وأذى الجهل، وما يتعلق بها من جمع الحروف وضمها سموا ذلـــك "كتابة"[28]؛ هناك إذًا نواة دلالية متنقلة وهي التضام والوقاية والتقييد.

و"البلاغة" من الوصول إلى غاية المسير، و"الفصاحة" من اللبن الفصيح الذي لا رغوة عليه. وكلمة "القرن" تطلق على الذين يقترنون في مولد واحد، ثم أطلقت على الزمن الذي يقترنون فيه. والجديد من الجَد وهو القطع، والثوب الجديد هـــو

---

(27) الفارابـــي، م. م، ص19.

(28) فضل حسن عباس، **البلاغة فنونها وأفنانها**، دار الفرقان، إربد، ط4، 1997، ص15.

الذي قُطع حديثا[29]، وغير هذا كثير مما قد لا تسلم منه كلمة من الكلمات، ولعل اللغة العربية قد غيرت معاني بعض الكلمات عدة مرات، مما يجعل معاني الألفاظ هي نتاج تواضعات مؤقتة، وموضوع تغيرات ممكنة مستمرة.

فلو عدنا إلى المعاجم لفهم حدود الاستعارات فيما نكتب أو ما نقول لتبين أن الاستعارة مُشارِكة للحقيقة في الاستعمال، وهي تعمل بالقدر نفسه أو أكثر مما تعمل اللغة على الحقائق. التجريدية مدعاة للاستعارية[30]، وكلما تقدمنا في التجريد أصبحنا في حاجة إلى استثمار مقومات الفعل الاستعاري. بل إن اللغة المستعملة أشبه ما تكون بأرض لغوية حُرِثت عدة مرات، فلا مفر لمستعمل اللغة من إجراء الاستعارة. وكما قال **ريتشارد** فإننا" لا نستطيع أن نصوغ ثلاث جمل في أي حديث اعتيادي سلس دون اللجوء إلى الاستعارة"[31] منها الحية ومنها الموات.

اللغة المستعملة تراث استعاري تَقَلَّب عبر التاريخ، وإن تحليلا لغويا دقيقا سيبين حجم العمليات الاستعارية المتراكبة التي عرفها الاستعمال اللغوي، إننا ندرك العالم نتيجة استعارة سابقة غير متعمدة، فالقول طبقات من الاستعارات المترسبة، وهي في حاجة إلى أركيولوجيا لغوية تبين تلك الطبقات.

ومن الاستعارات الجارية في كلام العرب قولهم للعزيز في مكانه: هو بَيضَةُ البلَد، أي يُحفَظ ويُحَصَّن كما تُحفَظ البيْضة. ويقالُ حَمى بَيْضَة الإسلام والدِّين[32]. ومن الاستعارة: كَبِد السَّماء: أي وسطها[33]. واستعير الشبع لكراهة الأمر، يقولون: شَبِعْتُ من هذا الأمر ورَوِيتُ، إذا كرهتَه[34]. واستعاروا الأظفار للكواكِب الصغار[35]. ويقال على معنى الاستعارة: أَقْرَثَ فلانٌ أصحابه، إذا سَعَى

(29) انظر: عباس محمود العقاد، **اللغة الشاعرة**، كتاب المجلة العربية، الرياض، العدد211، ص41 و43.

(30) فلسفة البلاغة، م.س، ص93 وما بعدها.

(31) نفسه، ص93.

(32) مادة: بيض، مقاييس اللغة.

(33) مادة: كبد، مقاييس اللغة.

(34) مادة شبع، الصّحّاح في اللغة.

(35) ظفر، مقاييس اللغة.

بهم وألقاهم في بَليَّة. والفرث أصله الشيء المتفتّت[36]. و"مسح يده بالسيف استعارة بمعنى قطعها[37]. واستعار بعضُهم السُّرى للنَّواهي والحُرُوبِ والهُمُومِ لأنها تَسْري إذا نام أهلُها، فتأتي على ما ليس يَخْطُر في الوَهْمِ[38]. وغير هذا كثير في استعمالات العرب مما يضمه المعجم لكنه قليل الاستعمال في كلامنا اليوم. وقد التفت الزمخشري إلى هذا في كتاب موضوعه الكلمات التي تحولت عبر الاستعمال اللغوي إلى مجازات، سمّاه "أساس البلاغة"[39].

في كل لغة عدد كبير من الاستعارات الاعتيادية المألوفة، يتعلمها المرء مع اللغة لأداء المهام التي تتطلبها الثقافة[40]. ويسمح تصنيف البنى الاستعارية في معاجم خاصة بمعرفة البنيات الذهنية لمتكلمي لغة من اللغات فضلا عن تطورها[41]. ولذلك تحتاج اللغة العربية والدراسات البلاغية العربية الجديدة إلى معجم للاستعارات القديمة والحديثة[42]، يطبق المنظور المنوالي الموسع ويرصد

---

(36) فرث، مقاييس اللغة.

(37) مسح، مقاييس اللغة.

(38) سرا، لسان العرب.

(39) الزمخشري، **أساس البلاغة**، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، 1979.

(40) ليونارد جاكسون، **بؤس البنيوية: الأدب والنظرية البنيوية**، تر: ثائر ديب، دار الفرقد، دمشق، 2008، ص304.

(41) نفسه، ص304.

(42) نحيل في هذا الصدد على "معجم الاستعارات" Elyse Sommer, Dorrie Weiss, Metaphors Dictionary, United States of America, 2001.

وهو كتاب يجمع عددا كبيرا من الاستعارات حوالي 6500 عبارة استعارية، موزعة على موضوعاتها الستمائة تبعا للمعاني، وهو يورد العبارة الاستعارية مرفقة بقائلها شاعرا أو كاتبا، أو ببيان أصلها من الأمثال الجارية بين الناس، أو الاستعارات الشائعة أو المتعددة الأصل، مما لا يُعرف قائلها بالضبط. ولا شك أن عدد الموضوعات التي نظم تحتها المؤلفان الأساليب الاستعارية التي وقفا عليها يدل على قراءات موسعة من قبلهما، وأن الاستعارة اللغوية والتصورية أداة قادرة على التعبير عن كل ما نرغب فيه، فهي ليست إلا استعمالا خاصا للغة. ولأجل ذلك وضعت اللغة. وربما كشف هذا النوع من المعاجم عن المواضيع التي استأثرت بالتعابير الاستعارية... وعن خاصيات مميزة للاستعارة العربية وجهاتها الزمانية والمكانية مثل ما فعل لا يكوف وجونسون.

امتداداته في حقول معرفية شتى. ومما يمكن أن يضـمه **المعجم المتوالي** أشـهر الاستعارات لدى الكُتاب العرب القـدامى والمحـدثين، وفي الأمثـال العربيـة، والكتابات الصحفية، بل في الخطابات اليومية والسياسية والتربوية، مع تنظيم ذلك تحت موضوعات أو قضايا؛ وهو ما سيقدم خدمة للدرس البلاغي في مجال الإنجاز الاستعاري، إذ سيبين قدرة هذا الأسلوب على التعبير عن كل القضـايا والمعـاني والمشاعر الإنسانية إلى جانب الاستعارات الفنية والثقافية والمنوالية والرقمية الـتي تشكل عماد الحياة التواصلية المعاصرة.

معيار التناسب في الاستعارة المنوالية

نبه البلاغيون العرب القدامى لأهمية التناسب بين المستعار والمسـتعار لـه؛ فاللفظ لا يُستعار إلا إذا كان مناسبا (أو مقاربا) لما استعير لـه، فتكلمـوا عـن الاستعارات القبيحة والبعيدة، والاستعارات الحسنة، وهي التي تقوى فيها العلاقـة بين اللفظ والمعنى الذي أعير له. ويمكن أن نستعير منهم هذا المبدأ للحديث عـن الاستعارات المنوالية الحسنة والقبيحة، والاستعارات الجيدة في مجال بناء المفـاهيم والمصطلحات، وغيرها من المجالات التي شملتها الأفعال الاستعارية. وهكذا نعمـل على توسيع مجالات عملها، وإحياء ضابط من ضوابطها، وتقريـب التحققـات الاستعارية الوجودية والثقافية والمنهاجية من الباحثين والبلغاء الذين سـينتبهون إلى الحركة الاستعارية الدائمة والنشطة التي نلجأ إليها كل يوم في لغتنـا، وتواصـلنا، ولباسنا، وعوائدنا، وأفكارنا، ونماذجنا الفنية. ودليل ذلك أننا نسـتعير القـوانين كلما احتجنا إليها من مدونات القانون، ونستعير الآداب من مـدوناها لنقرأهـا، لكن تعلقها بصاحبها وزمنها يظل قائما؛ فالإنسـان مسـتعير ومعـير، ورابـط للاستعارات وناظر إليها بضوابط التلاؤم والتشابه والتناسب والاتفـاق، وكلمـا خرجت المُعارات عن حدودها أعادها إليها، وجادل في ذلك.

الاستعارات المنوالية الحية والميتة

يروج الكلام في مجال البلاغة الحديثة عن الاستعارات الحية والميتة، ويُقصد بالأخيرة تلك التي بلغت حدا من الاستعمال والتداول والإنهاك أو"الشائعة" التي لا نشعر عند تداولها بأنها استعارة، مثل قولنا: "غرقتُ في التفكير". وبالمثل أمكن الكلام عن استعارات منوالية حية واستعارات منوالية شائعة، وبيان ذلك أن استعارة المناويل تجدي في مقامات دون أخرى، فكلما حدثت الملاءمة بين المنوال المستعار وما استعير له، كان الفعل الاستعاري حيا ومجديا، لأنه يتمتع بالقوة الوظيفية أو قوة الوظيفة الجديدة التي اكتسبها في موقعه الجديد، فيجد له الناس من الجدة وقوة البلوغ والأهمية ما لا غنى عنه، فيظل المنوال الصناعي الجديد -المستعار من منوال قديم أو المُحول من منوال سابق- وقتا طويلا ممثّلا لقوة دينامية مليئة بالحياة والتطور والتجديد كما هو الحال في تنقيل الأنوال الشعرية الغزلية والخمرية إلى القول الشعري الصوفي، أو في الأنوال الإيقاعية التي يتم نقلها من ثقافة إلى أخرى، أو من نمط موسيقي قديم إلى منوال معاصر، أو منوال إيقاع عند شعب من الشعوب إلى موسيقى شعب آخر. وما يصدق على الموسيقى والإبداع الشعري، يصدق على التمثيل والمسرح والأزياء، والنماذج الصناعية والعمرانية والتواصلية، والإشهار... وفي كل مظاهر الحياة وألوانها وأحوالها وإبدالاتها الاستعارية على الجملة.

لذة الاستعارة

يمثل الغربيون لما يعتبرونه استعارات بتراكيب تُعد في البلاغة العربية تشبيهات بليغة لحضور طرفي التشبيه مثل "الحياة الهادفة رحلة"، ولعل أصول هذا التداخل ترجع إلى أرسطو الذي لا يرى أي فارق مهم بين الاستعارة والتشبيهات(43)، وأنه

---

(43) Fowller Roger, A Dictionary of Modern Critical Term, Routledge, London/Newyork, 1987, p.145.

وكثير من الأمثلة في كتابيْ: لايكوف وجونسون، هي تشبيهات تم تحليلها من منظور استعاري تصوري: انظر: "الفلسفة في الجسد" و"الاستعارات التي نحيا بها" مذكوران.

يمكن التعامل مع الاستعارات وكأنها تشبيهات. سار على هذا الاتجاه بعض الباحثين العرب والمترجمون دون بيان الاختلاف في الأساس المفهومي للاستعارة عندنا وعندهم، وإن كان بعض اللغويين القدامى أدخل التشبيه البليغ ضمن الاستعارة، مثل الثعالبي الذي عد من الاستعارة قولنا: "الأدب غذاء الروح"، "العيال سوس المال"، و"الشمس قطيفة المساكين"، و"النار فاكهة الشتاء"[44]. لكن تصورات البلاغيين العرب بينة بشأن الفرق بين الاستعارة والتشبيه، وهي قائمة في الأصل على المشابهة الضمنية. يحرص المنظور المنوالي على هذه الفروق كما هي في البلاغة القديمة، ولكنه يوسع مجال عمل الفعل الاستعاري بحيث يُجَوِّز استنساخ التركيب التشبيهي برمته في خطاب جديد لغاية إقناعية أو جمالية.

وقد اشترط البلاغيون العرب في المعنى المستعار لما ليس له أن يكون مناسبا له أو مشابها، أو سببا له فتكون اللفظة المستعارة لائقة بالأمر الذي استعيرت له[45]، ولذلك عاب بعض النقاد على أبي تمام بعض استعاراته المغرقة. ولعل فوضى الغموض الشعري التي يشهدها الأدب العربي الحديث بدوره راجعة إلى تحطيم الأعراف الاستعارية، وضوابط النقل اللفظي، وعدم وضوح الغرض من الاستعارة: الإبانة أو شرح المعنى، أو تأكيده، والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وانتفاء الانسجام والتناغم بين المستعار والمستعار له.

الاستعارة العابرة للمجالات

تجاوزت الاستعارات اللغة إلى مجالات لا حد لها مثل الصورة، والفيلم، والتشكيل، وهو ما يمنحها خاصية العبورية لمجالات التواصل الأدبي وغير الأدبي، اللغوي والرقمي القائم على استنساخ اللقطات والمشاهد. يوجد الفعل الاستعاري حيث يوجد الإنسان، فهو جزء من عمل الذهن وذكاءات التقريب بين

---

(44) يوسف أبو العدوس، الاستعارة في النقد العربي الحديث، الأبعاد المعرفية والجمالية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1997، ص7. وفي غيره من الكتب التي تناولت الاستعارة.

(45) نفسه، ص70.

مجال أول أصلي ومجال ثان مبتكر، ويظل الثابت في الأفعال الاستعارية أنها حركة للمعنى من شيء إلى شيء، من مجال أول إلى مجال ثان، ومن إحساس إلى آخر. الاستعارة نقل وإبداع من جهة صانعها دون تفاوض مع متلقيها أو استشارة، ولذلك فاستقبالها تلازمه المباغتة. فإذا عُرفت الجملة الاستعارية بتداولها خف وقعها عند المتلقي، لا تثير الاستعارات المعروفة انتباهنا، ولا تحرك فينا أي إحساس كبير بالجاذبية والإثارة، لأنها أصبحت جزءا من الموسوعة، فمثلا استعارة "إذا المنية أنشبت أظفارها" تثير معنى قويا عند من يتلقاها أول مرة، ولكن دارس الأدب الذي يجدها في كثير من الكتب يتجاوزها بسرعة. وكأنها أصبحت من الاستعارات الشائعة، ولذلك هناك انتظار دائم في مجال التواصل عامة لاستعارات جديدة تتحقق بها الدهشة الجمالية.

طالما تعلقت الاستعارات اللغوية أو العقلية بالبهجة والمتعة التي يشعر بها المتلقي نتيجة عمليات الاكتشاف وعمل الذهن، وهو نفسه ما نجده في التجارب الشعرية التي تستعير أنوالا غزلية أو خمرية؛ فالإحساس بقوة إدماج البنى والقوالب الفنية، وزحزحة المعاني هو ما يكسب الاستعارة المنوالية هذه القوة الجمالية التي سمحت بانتشار النصوص التي تستأنس بتلك الطاقة، لأنها تنبني على الاستيحاء والمغايرة والدمج والتطوير، وربما المخاتلة والاستراق... إلا أن المتعة التي نحصلها من فهم الاستعارة أكبر من متعة إدراك التشبيه، نظرا للجهد الذي يبذله المتلقي لفهم البنية الاستعارية باستحضار طرف التشبيه الغائب، وهذا أمر بينته البلاغة القديمة بما لا يحتاج إلى مزيد بيان. فهل هذه المتعة حاصلة كذلك عند إدراك الأنوال المستعارة شعرية أو نثرية أو معرفية أو تقنية؟

خلاصات وامتدادات

1- الاستعارة نشاط إنساني حي وفاعل ومؤثر في كل سلوكاتنا وحياتنا، فهو هواء الحياة ومعدن أركانها، وماء وجودها، وملح طعامها، إنها حياة وجودية كاملة. ولذلك تحاول هذه المقترحات أن تضيف بعض التوسيعات للمقاربات التي عرفتها النظريات الاستعارية العربية والغربية على السواء، وسيتبين للقارئ، فيما

يلي، بالأمثلة المجمعة والمنظور التحليلي المقدم، أن التضييق الذي طال العمل الاستعاري مصدرُه المنظورات المعرفية التي تناوله بها الباحثون (المنظور اللغوي أو البلاغي بتفريعاته، أو المعرفي أو الحجاجي...).

2-إن الاصطلاحات التفصيلية للاستعارة عند القدامى والمحدثين الغربيين دليل على أن المباحث البلاغية قابلة لهذا التوسيع والتمطيط والتفريع، وأن هذه الاصطلاحات ليست اعتباطية جزافية، وإنما تبين صفة إضافية في الموصوف فتسميه بصفته انطلاقا من استقراء عدد من الحالات المماثلة، ثم قابلية الصناعة القولية للنسج على ذلك المنوال كما هو مستقرأ، وكما هو موصوف، وذلك زيادة في العلم بالشيء، وهو متروك للاختيار؛ فمن أراد الأوليات أخذ منها، ومن أراد التفريعات والوجوه والاستقصاءات والإمكانيات الكثيرة وجد ما يغنيه؛ شأن المبتدئ في علم الرياضيات أو المنطق أو النحو أو البيولوجيا، فإنه يأخذ في أول العلم بالبسائط والحدود والتعريفات، فإذا لاءم العلم ملكاته ومواهبه وقدراته وميولاته اندفع يدرسه إلى أقصى فروعه وتفصيلاته.

3- مما يلفت الانتباه أن الحديث عن الاستعارة عند الغربيين المحدثين يتم دائما مرفقا ب "نظرية": النظرية البنيوية والنظرية التفاعلية، والنظرية السياقية، والنظرية الحجاجية، في حين وبقليل من الإنصاف نجد أن البلاغيين القدماء ونقاد الشعر درسوا الاستعارة في أبعادها البنيوية والتصورية وبينوا أهمية السياق وأدواره في فهمها[46]. أ هذا التبجيل والتوسيم بالنظرية هو ما يعطي لتصورات الغربيين طابع الفخامة والشهرة والانتشار، أم أن الأمر يقتضي بناء نظريا له شروطه ومقوماته وضوابطه؟ وهل ينطبق على ما قدمه الغربيون في مجال الاستعارة مسمى "النظريات" بالمعنى الصارم؟

4- مقابل ذلك، نميل إلى أن ما قدمه البلاغيون والفلاسفة العرب القدامى يشكل أصول نظرية شاملة وجامعة لما تفرق في غيرها، ولقد كان هم البلاغيين القدامى الأول هو تأسيس العلوم الخادمة للتأويل وبيان الإعجاز القرآني أكثر من توسيع البحث في نظريات لا يستوعبها الواقع وحاجاته المعرفية الملحة آنئذ.

---

(46) الحويدق، نظريات الاستعارة في البلاغة الغربية، ص117.

5-يزيل المنظور المتوالي لأفعال الاستعارة الحدود الضيقة في نظريات الاستعارة القديمة والحديثة، ويحافظ على المبادئ الأصلية للفعل الاستعاري إجمالا وتفصيلا، وهكذا أصبح ممكنا الحديث عن استعارات متوالية، ومنهجية واستدلالية، وعلمية، واستعارات تمثيلية، ورقمية، وموسيقية، وتشكيلية، وتصويرية... دون أن نلغي ضوابط الاستعارات التقليدية عند العرب وعند غيرهم، وهي في عالمنا الاستعاري اليوم لا تمثل إلا بضع شجرات في أدغال غابة الاستعارة. فمن شاء أن يتوسع في هذا العالم الرحب للاستعارة، فإن المقترح المتوالي يُقدم له بعض معالم التوسيع، وقد يمده ببعض التصورات والمفاهيم والأدوات... ومن شاء أن يظل واقفا عند بلاغة الاستعارات القديمة فله ما أراد، لكنه يكون قد اختار النهر الصغير الذي يصب في بحر الاستعارات، ولا بد أن يجد بعد التأمل أن الماء واحد، ولكن العمق مختلف، وأن الحركة قائمة، لكن شتان بين الخيط الرقيق الذي يحفره النهر على اليابسة، وبين البحر العظيم الذي يمد السماء بالماء، ليجري منها مجددا عذبا سائغا في كل مكان.

الفصل الثالث

تحليل الاستعارة المنوالية

تقديم

قدمنا في المقاربة التأويلية التقابلية مسارا منهاجيا لفهم الاستعارات، ينطلق من الأساس التقابلي للاستعارة: **التقابل بالقوة** (الكامن) **والتقابل بالفعل** (المُنجَز)[1]، ومن التقابل المنطلق إلى **التقابل الهدف**، مما يبين للمحلل الجسر الاستعاري الرابط الذي تم بموجبه الانتقال من عنصر" أ" موضوعا أولا (الأصل) إلى عنصر"ب" موضوعا ثانيا (الفرع). توفر المقاربة بالمستويات المتقابلة طاقة تأويلية قوية لاستكشاف البعد الصناعي للاستعارة، ومن ثَمَّ تحديد التشابه والتناسب بين المستعار منه والمستعار له، فتظهر المعاني اللطيفة التي تحملها الاستعارة عادة فهي من أكثر الأساليب البلاغية حملا للشحنات العاطفية والنفسية، وأقدرها على البيان والإيضاح والإيحاء.

وأما الاستعارات المنوالية (الأداتية) والمقصود بها ما كان استعارة لأداة (منهج، مفهوم، منوال، خطاطة...) فتقبل بدورها أن تكون موضوعا للتحليل داخل الخطاب الذي تندرج ضمن مكوناته، حيث يمكن اعتماد التحليل بالتقابل لبيان الأصل أو المجال الاستعاري للأداة المستعارة، ثم المجال الهدف، وكيف حصل النقل، والوظيفة الجديدة التي تحملها الأدوات أو المفاهيم الخادمة في المجال الذي نُقلت إليه. وهكذا نجد أنفسنا في مجال تحليل الخطاب لفهم الأسس الفنية والموضوعية والعلمية التي تجعل المعرفة الإنسانية تنقسم كلما استدعت الحاجة ذلك إلى مجال مُمِدٍّ ومجال مستمِد، بناء على مبدإ الأخذ والعطاء الذي تتميز به الثقافة والمعرفة إجمالا، فيعمل العقل البشري على حمل الأدوات من مجالها الأول والمعروف إلى مجال جديد.

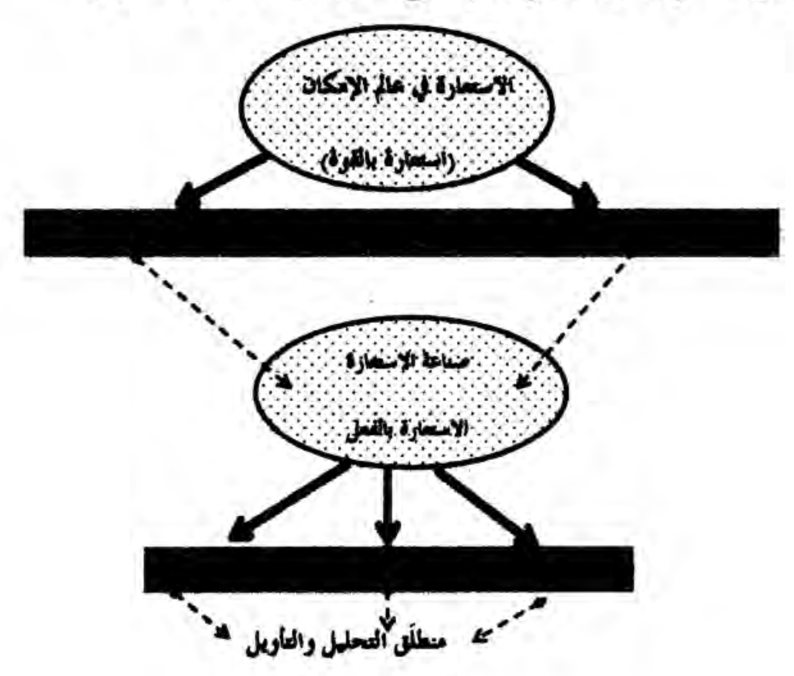
(1) يرجع في هذا الصدد إلى" البنى التقابلية" فصل "التقابلات الجسرية".

ولذلك فالمفاهيم والأنوال المستعارة في رحلة دائمة بين المجالات الحياتية، وهـي في حاجة إلى عقل قادر على استمدادها ودمجها في المجال المناسب وفي الوقت الأنسب.

سيجد القارئ في هذا الفصل بيانا للحيز الفلسفي والتصوري الـذي تحتلـه الاستعارة المنوالية في مسار تطور التفكير الاستعاري، واستعراضا لبعض النظريات الاستعارية الجديدة، وبالأخص تلك التي تستند على أساس ذهني تقابلي (تقابـل الفضاءات المزجية، تقابل الذهن والجسد..)، وسنبين حدود جـدواها في البنـاء المعرفي والأسلوبـي، وتناغمها مع منظورنا للحياة والثقافة والأدب وأدوار الأنوال الاستعارية في بناء القيم.

المنظور التقابلي والأفق الاستعاري

يمكن أن نستأنس مبدئيا بالخطاطة الآتية، وهي توضح المجال الاحتمالي للاستعارة والمجال التحققي، ثم انقسام الاستعارات وفق المنظور الثقافي إلى اسـتعارات لغويـة، واستعارات منوالية؛ فالاستعارات اللغوية قائمة على طريقة اشتغال اللغة في الخطـاب، والاستعارات المنوالية الأداتية مرجعيتها البنى الثقافية الممدة لصناعة الخطاب.



يُمكّن تحليل الأنوال الاستعارية من الإمساك برواقد الخطاب، وتُولى أهمية لوصف هذه الحركية المعرفية والمفهومية والأسلوبية وتأويلها، مما يتيح التعرف على البنى الاستعارية المنوالية واللغوية، الظاهرة والخفية. ومن الوشائج المتينة التي يمكن إيجادها بين **النموذج التقابلي** وبين **النموذج الاستعاري** أن التقابلات المَثلية، أو تقابلات المثال قد تكون نظاما من الحركات الاستعارية الذهنية التي يستعين بها الكُتاب لتقوية البيان والاستدلال على ما يقدمونه بشأن قضايا توجيهية أو وعظية، مثلما نجد في كتابات الغزالي وابن القيم والنورسي وجلال الدين الرومي... وهي غنية بأمثلة تبين استعارة الأنوال الحياتية والتجارب والوقائع والحكايات...

تستدعي الطبيعة التقابلية للفكر البشري في صناعة الخطاب وفي الإقناع استعارة المنوال المادي المقابل للعنصر الأخلاقي المراد؛ فالآليات التقابلية والاستعارية والاستدلالية مترابطة لتحقيق البيان وبلاغة القول، مما سيمَكّن بلا ريب من دراسة الخطاب في علوم الدين والعقيدة دراسة تبين الأنساق الخفية العاملة في الاستراتيجيات الخِطابية ككل، وليس فقط في تبين الاستعارة اللفظية أو التقابل الثنائي أو الثلاثي.. وإنما في تبين الأنساق الخفية العاملة في بناء المعنى، ولا تجد كتابا يخلو من هذا.

النموذج التحليلي الاستعاري ليس تجاوزا للنموذج التقابلي، فكل منهما يمكن أن يقدم منوالا خاصا من المقاربة الوافية بغرض التحليل والدراسة والفهم والتأويل. لقد تمكنَّا من أن نضع للنموذج التقابلي ما يكفي من المفاهيم الضرورية للتحليل وعددا من المسارات المنهجية المتراتبة، وزودناه بخلفية نظرية داعمة تقوي عضده، فهو يستوحي النواميس الكونية في تقابلاتها وتواجهاتها على مستوى اللغة والبنية والسياق، وقد جرَّبناه على أمثلة كثيرة من النصوص والخطابات مما أكد لنا قوته الإجرائية ونسقه الشامل المطرد في كل قول أدبي أو غير أدبي.

إلى جانب ذلك، يمكن أن ينتفع بمنظور الأنوال الاستعارية الموسعة في تتبع دينامية استعارات اللغة، والمفاهيم، والنظريات، والنماذج، والمناهج... كما يمكن العمل بمنطلقاته النظرية ومفاهيمه الإجرائية الخادمة التي يقترحها، واستعمالها في التحليل بعيدا عن المفاهيم الغائمة المضببة. ولعل الاكتفاء بمفهوم محوري متشعب، واضح في مرجعيته النظرية، وفي أدوات عمله، مما يحقق تأويلية بليغة بالخطاب.

تحليل الخطاب الاستعاري

يتسع تحليل الخطاب عامة لمقاربات كثيرة: لغوية وبلاغية وصــرفية ونحويــة وتاريخية ونفسية وإناسية... الخ. يجد النموذج الاستعاري موقعه المناسب ضــمن هذا الأفق النقدي والمنهجي الواسع، وبــالأخص في الخطابــات ذات الكثافــة الاستعارية المتنوعة (لغوية ومفهومية ومنوالية) الموجَّهة بنظرية التأويل البليغ وأنوالها التحليلية المقترحة.

قد يشعر القارئ -إذا تعجَّل- أن هناك إسرافا في توليد المفاهيم الواصــفة، لكن المعيار الحاكم عندنا أنه كلما كانت التسمية الوصفية مطابقة للموصــوقات انتفى هاجس الإكثار، وثبت التدقيق والتخصيص والزيادة في العلم بالشيء. لقــد ألفنا تقبل اصطلاحات العلوم والتقنيات الحديثة، لأنها تصف حقائق فعلية: انظــر مثلا مفاهيم أجزاء السيارة أو الهاتف المحمول، فلا نســتطيع أن نســتكثر علــى المختصين في صناعة هذه الآلات والأجهزة اصطلاحاتهم العلمية، إذ لا شيء يمكن الاستغناء عنه، بل إن جزئية صغيرة توقِف كل شيء. ولا بد أن يتسع صدرنا لهذا الأمر هناك وهنا؛ فنقبل تدقيق الجزئيات، وضبط الآليــات الصــغيرة العاملــة في الخطاب، لأنها من باب التدقيق العلمي فحسب.

وهكذا، ففي مجال بلاغة التأويل وبناء النماذج التحليلية لا نعمل إلا بالمفاهيم العلمية والعملية والثقافية المناسبة؛ المفاهيم الغريبة وغير الواقعية تفنى، ويتم التخلص منها مثل عتاد حربــي قديم مهترئ وصدئ، المفاهيم الحية تظل قريبة، نســتمدها ونعمل بها لأنها جزء من الكينونة الثقافية والهوية الوجودية، إنها مثل مؤلفات قديمة ثمينة ننقلها برفق ونصلحها لتستمر في رحلة العطاء.

الكثرة الاصطلاحية إذاً توليد معرفي يروم التفصيل والتــدقيق، يأخــذ منــه الباحث على قدر حاجته العملية. أما الاصطلاحات الأقل طلبا فتُنسى، وربما تظل ذات فائدة قوية إذا وجدت من يحييها ويعيد لها نشاطها. هناك اصطلاحات بلاغية ونحوية وتأويلية ظلت خامدة ومتروكة لزمن طويل، ثم وجدت فجأة من يحييهــا وينفخ فيها الحياة ويعيدها للاستعمال. الأمر نسبــي في هذا المجال.

السلسلة الاستعارية

لا يقف على الاستعارات المنوالية والأسلوبية إلا أهل الاختصاص والخبراء بالقول ومذاهب صنعته، المطلعون على مُتون الفنون وعلى أنحاء الأساليب، وهم فئة من القراء ذوي ذائقة أدبية رفيعة، وقوة ملاحظة في تبين الأساليب وملامح الاتجاهات التعبيرية، لكن قدراتهم تظل متفاوتة للتعرف على الأنوال المستعارة في خطاب ما، ولذلك قد تتعاون في تحليل خطاب واحد طاقات تأويلية كثيرة فيكون مجموع أعمالها مدهشا؛ فالقارئ المحلل أو المؤوِّل لا يهتدي إلى كل البنى المستعارة في خطاب روائي مثلا، وكلما تعاونت القراءات النقدية كشفت عن الأنسجة الاستعارية المتداخلة التي تحكمت في الصناعة الروائية، وعن البنى الاستعارية اللغوية والذهنية، والثقافية، والمعرفية، والأسلوبية.

يستمد **النموذج الاستعاري** في التأويل قوته التحليلية من هذا المدى التوسيعي الذي ذكرناه، ومن الحاجة إلى جهاز مفهومي يغذي القراءات التأويلية، ويمد تحليل الخطابات ببعض الأدوات، كما يستأنس بالمقترحات التقليدية ويجتهد في الحفاظ عليها، ويسعى لإغنائها بما تدعمه الأدلة والنماذج، كما نحاول أحيانا تحرير بعض المفاهيم من قيود الاصطلاحات. لسنا ضد العلم المقيد بالاصطلاحات، ولكن إذا وجدنا في تحرير المفهوم من الاصطلاح الضيق ما يبعث فيه الحياة ثانية، ويفتح أفقا واسعا على القوة والانطلاق سعينا إلى ذلك، وتحديدا إذا وافق توسيع الأفق المفهومي للمصطلح الأمثلة الكثيرة التي ينطبق عليها، والدلائل الاستعمالية التي تدعم هذا التوجه التوسيعي حتى يصمد المفهوم أمام النقد المعرفي، وأمام تساؤل المتسائلين، واستغراب المستغربين، وتمسك المحافظين.

تسمح المقاربة المنوالية بفهم مسار الخطاب الصناعي الاستعاري انطلاقا من العمليات الآتية:

أ- **تحديد البُنى الاستعارية اللغوية والمنوالية.**

ب- **تحديد معاني الاستعارات اللغوية والمقصد الكلي منها.**

ج- **تحديد بنية الأنوال المستعارة ووظائفها ومقاصدها**؛ فالدعوة إلى قول الخير ربما استدعت في مقام الوعظ استعارة تمثيلية، لأن المتكلم يستعير من حقل

تداولي لغوي وثقافي واسع ما يسعفه في البيان والإيضاح، واستعانته بمثال عن فضل الكلمة الطيبة على الخبيثة أمر حاجّي، فيقول ضمن خطابه: "الكلمة الطيبة فرس رابح والكلمة الخبيثة فرس خاسر"، أو قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[2]. تقدم لنا الموسوعة والمعارف والعوائد والمعروفات المشتركة مادة غزيرة تمتد نحوها الطاقة الاستعارية، بحيث نستعير التشبيه، والمثال، والأسلوب الاستعاري بأكمله، إنها عملية أخذ مضاعفة نقوم بها بسلاسة ونحن ننشئ الخطابات.

د- **ربط الحلقات الاستعارية**: يحصل هذا الربط ذهنيا داخل جملة أو فقرة بالانتقال من الاستعارة الخِطابية الأولى إلى بنية استعارية ثانية، وثالثة؛ ونتاج كل واحدة منها معنى، ثم نمضي على ذلك إلى نهاية الخطاب. إنها شبكة استعارية تتكون منها بُنى المقاصد الكلية للخطاب نسميها "**سلسلة الوحدات الاستعارية**": استعارة 1 (استعارة مثال)+ استعارة 2 (استعارة تشبيه)+ استعارة 3 (استعارة استعارة)+ استعارة 4 (استعارة حكاية)+ استعارة 5 (استعارة لغوية) + استعارة 6 (استعارة مفهومية)... إلى آخر الخطاب.

سبق أن بينا أن مثل هذا يحدث في تجاور الاستعارات بمعناها البلاغي في بنية نصية[3]، وقد قدمنا لذلك أمثلة من القرآن الكريم. وأما الاستعارات المتوالية المتجاورة والمتضافرة في الخطاب فهي مجموع الاستعارات الأسلوبية والثقافية والإدماجات والتنقيلات والاستشهادات التي تنتظم بتتابع بغية تحقيق مقاصد وأغراض إقناعية وإمتاعية أو دلالية أو جمالية، وهذا ما سيُمَكن من تبين عمل الاستعارات اللغوية المتضافرة في صناعة النص الإبداعي مثلا، والاستعارات المتوالية المتضافرة في نمو الخطاب (التوجيهي أو التناظري مثلا). بتتبع حلقات سلسلة الوحدات الاستعارية، مع التنبه دائما للفروق بين التحقق الاستعاري اللفظي والتحقق الاستعاري المتوالي.

---

(2) إبراهيم، 24.

(3) انظر البنى التقابلية.م.س.

استعارة المثال

من النماذج المعتمدة كثيرا في التعليم استعارة قصة واقعية أو خيالية في بداية الحصة الدراسية لإثارة الانتباه والتشويق والتقريب من موضوع التعلمات الجديدة، تحقق القصة المستعارة أرضية مشتركة بين المدرس والمتعلمين، وفي جل التأليفات التوجيهية الوعظية ولدى كبار العارفين يتم التعبير عن الحقائق والأحوال والمقامات بالأمثلة؛ إن قارئ بديع الزمان النورسي، في "رسائل النور"[4] مثلا يجد استعارات كثيرة ودقيقة لأمثلة من الحياة، فهو يستعير من الثقافة الأمثلة التي يحتاجها منواله الاستدلالي التقريبي، والأمر نفسه نجده عند جلال الدين الرومي في "المثنوي"[5] وعند الغزالي في "الإحياء"[6] وعند غيرهم. تمتع هؤلاء المربون الكبار بقدرة هائلة على استحضار الأمثلة المناسبة واستعارتها للبيان والاستدلال. المعلمون العباقرة

---

(4) النورسي بديع الزمان، **الكلمات**، تر: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 2011.

(5) الرومي جلال الدين، **المثنوي**، شرح ودراسة: محمد عبد السلام كفافي، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 1966.

(6) الغزالي أبو حامد، **إحياء علوم الدين**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت). وقد قدمنا أمثلة محللة في" **تقابلات النص وبلاغة الخطاب**" ومن الاستعارات الثقافية المعتمدة على التشبيهات "العلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة كالبذر في الأرض، والجوهر في قعر البحر، أو في قلب المعدن، والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء من القوة إلى الفعل. والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل، فنفس المتعلم تتشبه بنفس المعلم وتتقرب إليه بالنسبة، فالعالم بالإفادة كالزارع والمتعلم بالاستفادة كالأرض. والعلم الذي هو بالقوة كالبذر، والذي بالفعل كالنبات؛ فإذا كملت نفس المتعلم تكون كالشجرة المثمرة، أو كالجوهر الخارج من قعر البحر، وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم وطول المدة، وتحمل المشقة والتعب وطلب الفائدة، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحس يستغني الطالب بقليل التفكر عن كثرة التعلم، فإن نفس القابل تجد من الفوائد بتفكر ساعة مالا تجد نفس الجامد بتعلم سنة... وإذا انفتح باب الفكر على النفس علمت طريق التفكر وكيفية الرجوع بالحدس إلى المطلوب، فينشرح قلبه وتنفتح بصيرته، فيخرج ما في نفسه من القوة إلى الفعل، من غير زيادة طلب وطول تعب" الغزالي أبو حامد، **مجموعة رسائل الإمام الغزالي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ص102-103.

يستعيرون النماذج الأقدر على التقريب والبيان والإيضاح. سيكون مفيدا أن نختم بأن البلاغة الخِطابية في الرسائل التوجيهية تجد كمالها في الخطاب ككل، أي في البنى المجاوزة للجملة التي كانت مدار البحث الاستعاري، حيث يصبح النص الكامل فضاء للاستعارات المتوالية، وبلاغتها في مدى دقتها وتناسبها وإثارتها وقدرتها الاستدلالية وعمقها.

تتوسل المبادرة الاستعارية المتوالية بنظام متشابك ومترابط ودال من الأمثلة والتشبيهات والاستعارات والأدلة. مقابل هذا ستظل الاستعارات البنائية جزءا من ثقافة بلاغية سائدة وقابلة للحياة والفعل، لكنها في الوقت ذاته ليست إلا مكونا من نشاط استعاري كلي متنوع الأدوات والأنوال التصويرية. إن إجرائية **الاستعارة الكلية** تمكننا أولا من فهم القول ومجموع أدواته البنائية المستعارة، وثانيا من فهم الحركة التي يقوم بها الذهن وهو يحاول أن يثبت جدارته في الحياة؛ فالكلمات المستعملة مستعارة من حقل معرفي معين، ونظام الجمل مستعار من نظام في بناء الجمل وفق قواعد لغة من اللغات، وأدوات التصوير والأمثلة والحجج مستعارة من الخطابات البليغة الجاهزة، فلا أحد يملك لغة خاصة به يصنعها لنفسه ويكتب بها للآخرين، ثم يفككها ليركب منها آلة لغوية أخرى، فاللغة من المشتركات، والأسلوب من الخصوصيات.

إن تصور الاستعارة النصية بكونها شبكة لغوية متقاطعة الأدوات والمقصديات يخول القارئ فرصة لتغيير الأنوال التقليدية في مواجهة الخطابات الأدبية والنقدية والتفسيرية والصحافية، إنها مواجهة تنطلق من أرضية القصد التأليفي وتبحث عن الاستعارات الممكنة (المفردات المنتمية إلى حقل معرفي، الأدلة، الصور، الاستدلالات، التشبيهات، الأفكار، المعاني، الحقائق...). كلما اقترب الكُتاب والأدباء من الورق والقلم انفتح لهم الباب على عوالم "المستعار منه"، عالم واسع يشمل المكتوب وغير المكتوب، وكل الثقافة التي تنتظم وتتحرك على شكل سلاسل مترابطة، لتجد مكانها في الخطاب، الخطاب الجديد هو المستعار له، الذهن يُحدث التوافقات والتشابهات ويوجِد العلائق والترابطات والتلاؤمات، ويُقنع بالجدوى والفعالية والمقبولية والانسجام.

إذا حدثت استعارات غير مناسبة يتزعزع الخطاب بسرعة، يتفكك ويتلاشى، فلا يحصل تقبله، لأن ذائقة التلقي الرفيعة لا تقبل الاستعارات المتعسفة، لا تقبل التلفيق، وإنما تقبل الخطاب المتناغم العناصر: تناغم القصديات والأدوات المستعارة، لا يحدث دائما بلوغ الكمال في هذا، بلاغة الاستعارة الخِطابية درجات على قدر الملكات، ومن لا مَلَكة له لا بلاغة كلية له. ولذلك تكلمنا من قبل عن توسيع مجال البلاغة لتشمل الخطابات الكبرى. إن النموذج الاستعاري في التحليل يمكنه مقاربة الأعمال الطويلة أو مجموع أعمال كاتب ما بتتبع الاستعارات الأداتية البانية للخطاب، والكشف عن مرجعياها التي استعيرت منها، ووظائف ذلك، وحدود انسجامه.

استعارة المثال أداة صناعية لإبلاغ المعنى بحجة مصاحبة، وهي تعزز نظرية الخطاب العميق عند المنتج، والوظيفة التمثيلية للقول، وعلاقتهما بالمقصدية، وبأسلوب القول. يعتبر هذا المنظورُ التمثيلَ شكلا من أشكال الاستعارة له أثر بالغ في مخاطبة الخلق، وبالأخص في الخطاب الديني التوجيهي الذي يهدف إلى إقناع الإنسان والتأثير فيه لتخليصه، وتحقيق عبوديته؛ فالتمثيل في الخطاب القرآني له بلاغته ووظائفه، والتمثيل في الحديث النبوي له أنواله ومقاصده، والتمثيل عند علماء الدين له مسالكه وقوته الحجاجية، والتمثيل في التعليم له حقله الاستعاري، والتوجيه الأبوي يستعير أمثلته من الحياة والتجربة وقد يمتد إلى غيرها.

يلجأ أهل البيان إلى بلاغة التمثيل للإيضاح والإقناع، وهي بلاغة مضاعفة لأنها قائمة على استعارة المثال من حياة الناس ومما يعرفونه، استعارة من الحياة بمعنى الأخذ والنقل والتحويل، وإن ابتنت بلاغيا على التشبيه والمماثلة. وقد حققت هذه الاستعارات التمثيلية بلاغتها اعتمادا على مبادئ: رصد المباينة والتشابه، قوة التخيل في صناعة المثال، القابلية للتأويل باستحضار مرجع المثال، فعل الاستعارة الأنيق والدقيق من الكون المتماثل، ملاءمة المُمَثَّل به (المستعار) لِلْمُمَثَّل له (المستعار له)، اعتبار دور المخاطب في فهم التجربة الاستعارية بالتمثيل والتشبيه، والتمثيل بالتجربة الحياتية، والتمثيل بالخبر، التمثيل بالتخييل، والتمثيل بالتبديل، والتمثيل بالتخيير، والتمثيل بالإشراك والمحاورة، والتمثيل والمناورة.

إن اعتماد الأساليب البلاغية فعل استعاري تخييلي، وهو **فعل ما ورائي** خفي في الصناعة، إنه إجراء عملي تظهر أدواته البلاغية في الخطاب، وقد لا نكتشف أسسه التصورية، ولكن يظهر نتاجه الأسلوبي في أنوال الخطاب. إننا نقصد مَلكة استعارة الأساليب، لأن نظرتنا للبلاغة لا تقف عند الأساليب البلاغية كما هي معروفة في أبواب البلاغة العربية، وغير العربية، وإنما في الإجراء الاستعاري الواعي الذي يقوم به منشئ الخطاب، والقدرة التي يستحضر بها أدواته البنائية، إنها بلاغة ما وراء الأساليب، بلاغة الصناعة والبناء الذهني. ومن ثمة، فإننا نُؤَول القصيدة أو الخطبة باعتبارها نشاطا استعاريا، يتوسل بالكثير من الأدوات والأساليب الشعرية اللغوية والنحوية والبلاغية والإيقاعية.

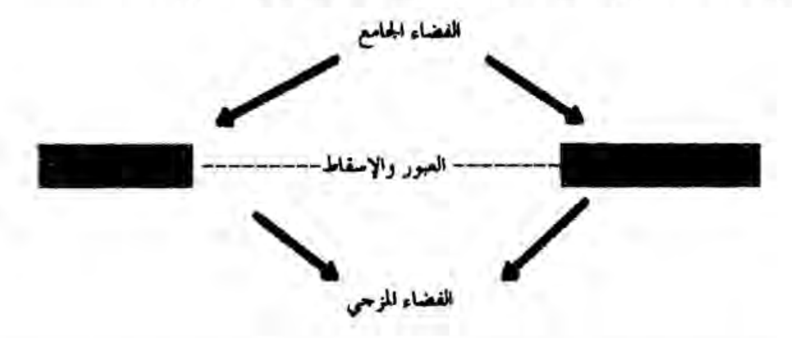
الإجراء الاستعاري **أس صناعي** عميق من أسس بناء الخطاب؛ فالتمثيل إجراء استعاري صناعي في أصله، والتشبيه في نواته الأصلية فعل استعاري يتوسل أداة التشبيه.. وكل ما يدخل في بناء النصوص إنما أصله التحويل والتنقيل على مستوى اللغة والأساليب والمواد التعضيدية المستشهد بها، أو المستحضرة للتعزيز والتبرير أو لتحقيق الجمالية. وحاصل الكلام: إن جوهر بناء الخطاب استعارة شيء لشيء، ويأخذ هذا البناء أشكالا لا حصر لها من تشبيه واستعارة وكناية وتصريح وتلميح ومقابلات. يتيح هذا التوجه التأويلي الوقوف على الأنساق الخفية المؤسسة لبنية الخطابات- مثلما فعلنا في الأُس التقابلي للخطاب- مما يسمح بالتفكير في البنى البلاغية ليس في ذاتها، ولكن في الإجراءات الواعية أو غير الواعية التي تكمن وراء استعمالها.

منظور نظرية المزج للفعل الاستعاري

المزج التصوري عملية ذهنية يومية شائعة لا نأبه بها، ولا نفطن لها إلا عند التحليل، فبالمزج الذهني تنشأ اللغة، وتنشط عمليات الدمج. تقدم نظرية **المزج** مع "فوكونيي" و"تورنر" تصورا للاستعارة بإمكانه تقديم العون في تحليل الصور الاستعارية المتتابعة، عبر تعميق النظر في العمليات الذهنية والخيال، والفضاءات، انطلاقا من عمليات المزج التي يقوم بها الدماغ بين مسند ومسند إليه، أو بين

الأفضية، أو الأزمنة وغير ذلك من الإمكانيات الذهنية التي تسمح باستحضار شيئين مختلفين بكيفيات متباينة. ثم ما لبث هذا التصور أن توسع في علوم أخرى غير اللغة(7)، إذ تم تطبيقه على الرياضيات، والأدب، والموسيقى، والعلوم الاجتماعية، واللسانيات، وعلم الأعصاب...

تسمح قدرة المزج الذهنية بضغط معان كثيرة وعرضها في شكل بسيط، وأي تركيب لغوي هو مزج؛ ف" سفينة الصحراء" مزج بين كينونتين. ومن المزج الاسمي قولنا: "سيد القبيلة". وهو ما يحيلنا إلى علاقات الإسناد في النحو العربي، وأنواع التركيب الإضافي والمزجي والوصفي. تقع نظرية المزج ضمن العلوم الذهنية التي تحاول وصف عمل الذهن في استعمال اللغة، وممكنات المزج التي يقوم بها الذهن في كل المجالات الحياتية؛ فلفهم تركيب مثل" يخت البر" وما يحمله من تخيلات قائمة على مزج الأفضية(8) يستحضر التحليل الاستعاري مقومات "اليخت" الدلالية ومقومات "البر" الدلالية من قبيل: البر (مقابل) الماء، السائق (مقابل) الربان، السيارة (مقابل) اليخت... وتدعو كلها إلى فهم أن الأمر يتعلق بسيارة فاخرة. تقوم هذه العمليات عند إمعان النظر على التقابلات الكائنة والممكنة، وعلى الدمج والمزج بين فضاء البحر في "يخت البر" مثلا وبين فضاء البر وفق خطاطة الفضاءات الأربعة:



---

(7) Fauconnier Gilles and Mark Turner, Conceptual blending form and meaning, Recherches en communication, n° 19, 2003, p61-62.

وينظر كذلك:

Fauconnier Gilles, and Mark Turner, The way we think: conceptual blending and the mind's hidden complexities, New York, Basic Books, 2002.

(8) ما سبق، ص67.

تسمح عمليات المزج بضغط الخطاطات والسيناريوهات عبر الاختزال المزجي، فهناك سلسلة من الأفعال المضغوطة في تركيب: "طُعم السجن" والذي يحيل -مثلا- في سياق حكي استعادي على فعل الإيقاع بفتاة قاصر ينتج عنه العقاب بالسجن، فالمزج بين الفضاء المُدخل 1: طعم الصيد وعالم السمك وسيناريو الصيد، وبين الفضاء المُدخل 2: فضاء المآل الفعلي: السجن، هو ما يعطينا فضاءً مزجيا فيه ما يتعلق بأفعال صيد السمك وفضاء البحر وفضاء السجن، وهو مزج يكثف بنى حدثية كثيرة (مضغوطة): التفكير في الإيقاع بالضحية، وإعداد الحيلة، والمناورة بالتحية، وبلوغ الهدف، ثم الافتضاح، ثم الاعتقال، فالتحقيق، ثم الإدانة والسجن. وهي أفعال مختصرة بالمزج بين الطعم والسجن. والمزج المفهومي من عمل اللغة وعمل الذهن في كل مكان وزمان، ويمكن أن يعد تفسيرا مقنعا لمنطق تشكل الاستعارة اللغوية، مقابل تصورات فلسفية تعنى بالبعد الجسدي في فهم العالم وفي التعبير عنه باللغة.

المنظور المنطقي

حاول طه عبد الرحمان بيان التوابع المنطقية في تحليل الخطاب الاستعاري[9]، فالتوابع الدلالية تبين -وفق منظوره- عن تباين جنس المستعار منه والمستعار له. ويُعَرِّف التابع بأنه "طريقة الربط بين مجالين بحيث يقترن كل عنصر من المجال الأول بعنصر من المجال الثاني"[10]. اعتمد الباحث المرجعية المنطقية والرياضية في تحليل طريقة تشكل الاستعارة اللفظية وانحصر اهتمامه في المستوى اللغوي، ولم ينقل التحليل المنطقي إلى مستويات أوسع شأن الاستعارة التصورية أو المنوالية. ومن ثمة راح يتتبع استخدام التوابع المنطقية في تحليل الخطاب الاستعاري، فوقف عند التوابع الدلالية التي تُقَوِّم صدق القول الاستعاري أو كذبه، وهذه التوابع -كما يقترح- هي: "تابع الجنس" و"تابع الانتقاء" و"تابع التحقيق" و"تابع التعيين"

(9) **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي**، المركز الثقافي العربي، بيروت/البيضاء، 1998، ص297.

(10) نفسه، ص296.

و"تابع التأويل" و"تابع التقويم". كما استدعى مبدأين منطقيين لبيان صدقية القول الاستعاري أو كذبه وهما مبدأ عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع.

ثم تناول حجاجية الفعل الاستعاري فعمد إلى تحليل منطقي يبين مبادئ حجاجية القول الاستعاري مثل: مبدأ ترجيح المطابقة، ومبدأ ترجيح المعنى في الفعل الاستعاري لا اللفظ، ثم مبدأ ترجيج استعارية التركيب لا اللفظة[11]. وتبعا لذلك يتخذ القول الاستعاري -في تصوره- بعده الحجاجي كما عند الجرجاني وتصح فيه صفة الدعوى لما يتعلق به من مقوماتها: الطابع الخبري، والحقيقة والتدليل.

إن أهم ما يمكن أن نستأنس به في الفرضية المتوالية هو ما أشار إليه في أصول المقاربة التعارضية للفعل الاستعاري وهي: المبدأ الحواري، والمبدأ الحجاجي والمبدأ العملي، فالاستعارة حوار بين المعنى الحقيقي والمجازي.

ومقتضى المبدأ الحجاجي أن الاستعارة تقوم على الادعاء وتقبل الاعتراض. أما المبدأ العملي أو فعالية التحقيق الاستعاري فتتعلق بالمقام التداولي، ويتكون من "المتكلم والمستمع ومن أنساقهما المعرفية والإرادية والتقديرية ومن علائقهما التفاعلية المختلفة"[12]. يتعلق هذا المبدأ بما ينشأ عن الاستعارة من تحول في المتلقي وتغير منظوره ومعاييره في تقويم الواقع واقتناع بما يحمله الخطاب. يخلص الباحث إلى أن نظرية التوابع لا تناسب مقتضيات القول الاستعاري إلا بعد إخراجه مخرج الحقيقة.

النظرية التصورية الجسدانية

تقوم أطروحة كتاب "الفلسفة في الجسد" للايكوف وجونسون[13] على أن الجسد هو ما يصلنا بعالمنا وبالآخرين، وهي مقاربة فلسفية تجعل الجسد محورا

---

(11) السابق، ص304.

(12) نفسه، ص312.

(13) **الفلسفة في الجسد**، ترجمه من الإنجليزية إلى العربية مؤخرا الأستاذ عبد المجيد جحفة ترجمة جيدة، وسنعتمد على بعض الإشارات في مقدمته، وعلى بعض التفاصيل والأمثلة من متن الكتاب، لأن غرضنا تقريب النظريات الاستعارية إلى القارئ بإيجاز شديد، والتعقيب عليها، وبيان حدود إجرائيتها في بناء تأويلية بليغة.

للتجربة والفهم والتعبير والتواصل، كما تذهب إلى أن جل المفاهيم الفلسفية مبنية استعاريا، وينبغي - في تصور المؤلِّفَيْن - أن تُفهم وتحلل استعاريا؛ فالفعل الاستعاري هو ما يشد هيكل المعنى الحرفي في الاستعمال العادي وفي بناء المفاهيم الفلسفية(14).

تتخذ هذه الأطروحة فلسفة **ميرلو بونتي وجون ديوي** مرجعا أساسيا لها، وهي فلسفة تؤمن بأولوية الجسد في امتلاك العالم، ومركزيته في العَنْي والقصد وبناء الفهوم، فقيمة الجسد والذهن هامة في بناء التصورات، وتبعا لذلك فالاستعارات أصلها الحس والرؤية والذهن.

يشكل هذا الكتاب -كما أشرنا من قبل- نقلة نوعية في نظريات الاستعارة الحديثة بعد كتاب "الاستعارات التي نحيا بها" والذي أصبح له صيت واسع بين المهتمين بالدرس البلاغي الجديد، وملخص أطروحته أن الاستعارة تصورية وليست لغوية فحسب، وأن النسق التصوري عند الإنسان سنده ومدده الاستعارة، إذ يفهم تجربة **معنى ثان** بناء على تجربة **معنى أول**: مثل: "ربح الوقت"، فتصور رِبْح الزمن يقوم على مرجعية ربح المال؛ والمنجز الاستعاري في مثل هذا يقوم على التصورات لا على الألفاظ. أما كتاب "الفلسفة في الجسد" فيحمل نقدا قويا لأطروحة الاستعارة اللفظية أساسه التشكيك في المعتقدات الآتية(15):

أ- معتقد أن الإنجاز الاستعاري لفظي لا تصوري.

ب- معتقد أن اللغة الاستعارية توجد في الشعر والأدب لا في اللغة التواصلية العادية.

ج- معتقد أن العبارات الاستعارية اليومية استعارات ميتة.

ومن الواضح أن المرجعية اللغوية التي قامت عليها الاستعارة في البلاغة العربية القديمة لا يمكن أن تتلاشى بسهولة أمام هذا الطرح، والدليل على ذلك أن العمل بمقومات التحليل الاستعاري التقليدي لا يزال ساريا عند محللي الخطاب، فكيف يمكن التخلص من إرث بلاغي قوي أثبت نجاعته وقوته وقابليته للاستمرارية؟

---

(14) مقدمة المترجم، ص8.

(15) نفسه، ص186.

تقدم النظرية التصورية "الجسدانية" اقتراحات هامة لتفسير كيفية حدوث الاستعارات، وكيف تتشكل البنى الاستعارية التصورية في اللغة اليومية، وفي بناء المفاهيم الفلسفية انطلاقا من المنظور الذهني والعصبي والجسداني. وكأن هناك يدا خفية للذهن اللاواعي في الاستعارة للتعبير عن المفاهيم الفلسفية مثل الميتافيزيقا[16]، والزمن، والحدث، والسببية، والماهية، والأخلاق، حيث يتم التعبير عن هذه المقولات الفلسفية اعتمادا على استعارات يومية لا واعية. ويمكن تلخيص أهم مقترحات هذه الأطروحة الاستعارية الفلسفية كما يلي:

1- لا يوجد وفق هذه النظرية شيء اسمه الزمن، الزمن استعاري. وإن كنا نستخدم تصورات للزمن على أنه خط متصل لا محدود، فإن ذلك يتم انطلاقا من الحركة والفضاء والأحداث، فعادة ما نقيس الزمن ببداية حدث ونهايته اعتمادا على آلية قياس الزمن[17]. إن الفهم الشائع للزمن اتجاهي ومتصل وقابل للتقطيع مثل الأحداث، وهو قابل للقياس لأن الأحداث يمكن أن تُحصى. كل العبارات الدالة على الزمن وفق هذا التصور استعارية، مثل: "يوم العيد قادم"، "الأجل يقترب"...

2-الأحداث والأسباب كذلك لها طابع استعاري، ولا يمكن تصور حالات أو أحداث دون حصرها في الفضاء، فالحالات أمكنة مثل: "أحمد في ورطة". يقدم الكتاب أمثلة كثيرة محاولا تخطئة النظريات السببية التقليدية، ومبينا أن "الاستعارة مركزية في تصور السببية"[18]، وهكذا يتحول الطرح الاستعاري التصوري إلى وسيلة لبيان عيوب المقولات الفلسفية التقليدية حول السبب والحدث والفضاء والزمن.

3-التصور السائد عن الذهن استعاري كذلك؛ فالذهن وعاء له داخل وخارج[19]، والأفكار توجد في الداخل، وما تحيل عليه يوجد خارجيا. كما أن

---

(16) السابق، ص50.

(17) نفسه، ص202.

(18) نفسه، ص309.

(19) نفسه، ص359.

فهمنا لما يقوم به الذهن: التفكير والإدراك، والاعتقاد والاستدلال، والتخييل تعتمد استعارات الرؤية، والحركة، والأكل، وهو ما يجعلنا نتصور الذهن وعملياته دائما انطلاقا مما نعرفه عن أجسادنا.

4-تهتم دراسة النفس ببِنى حيواتنا الباطنية، فاستعارات النفس سببها تصور النفس بوصفها شخصا، أو مكانا أو شيئا مثل قولنا: "تحكم في نفسك"، "فلان في حرب مع نفسه"، وكأن النفس مكان. وحسب الأمثلة التي يقدمها هذا المنظور فإن تصوراتنا عن أنفسنا تتم بوساطة بُنى تصورية استعارية ذات أبعاد شتى، وهي مشتركة بين العديد من اللغات.

5-تتعلق استعارة الأخلاق تصوريا بالمجالات التي يرى الناس فيها صلاحهم ورفاهيتهم، وبتصوراتهم عن الثروة والصحة والوقاية. مثل "الأخلاق نظافة"، "لا تلطخ روحك بالإثم"[20]، "ميزان الأخلاق"... هناك ميول استعارية لما هو أخلاقي. وتبعا لهذا "لا وجود لنسق أخلاقيات غير استعاري"[21]، دون ادعاء بأنه ليست هناك تصورات أخلاقية غير استعارية. وهكذا فالعلم المعرفي يقدم لفهم الأخلاق في بعدها الفلسفي تصورا عن مصادرها، مع تحليل معمق للاستعارات الأخلاقية التي يستعملها الناس.

أفق التوليف وخيارات الانتقاء

يختلف الموقع المرجعي للفعل الاستعاري من نظرية إلى أخرى، من طرح يجعل الاستعارة لغوية، إلى طرح يجعلها تصورية، ثم طرح يفسر تكونها بعلاقة الجسد مع محيطه. ولا بد لمتتبع هذه النظريات أن يوجد نوعا من الأولوية بينها، أو التناغم الممكن. هناك فرق بين تحليل كيفيات التحقق الاستعاري، وبين تقويم أهميته في تحليل الخطابات، وفعاليته في الوقوف على جمالية القول أو بلاغته؛ فالبلاغة العربية القديمة تقدم لنا بخصوص الاستعارة أدوات كثيرة لفهم ألوان الجمال التعبيري في القول، فيما تجيبنا الاستعارة التصورية فقط عن سؤال: كيف حصل المنجز

(20) السابق، ص413.

(21) نفسه، ص434.

الاستعاري بالانتقال من مجال تصوري أول إلى مجال تصوري ثان؟ ولعل الناقد العربي الذي أَلِف ما يُغدقه عليه التحليل الاستعاري من إمكانيات تأويلية بلاغية سيحترس كثيرا من الجدوى البلاغية والتأويلية التي يمكن أن تقدمها له النظرية التصورية، أو الجسدانية التي يحركها سؤال: ما الأساس الذهني أو المعرفي أو الفلسفي الذي يمكّننا من بناء المفاهيم العلمية أو الفلسفية الاستعارية؟

تقوم مقترحات التصور "الجسداني" فلسفيا على تحليل العلة والمعلول في القول الفلسفي وغير الفلسفي، والعلاقات بين المجالات التصورية وكيفيات النسخ. أما سؤال الاستعارة في البلاغة القديمة فهو سؤال المعنى، ومعنى المعنى، والجمال التعبيري وكيفية تأويل كل ذلك تبعا لمقاصد يحددها سياق الخطاب، بل ظلت الاستعارة أداة بيانية تُظهر مناحي الإعجاز القرآني، وبلاغة الكلام العربي. ومن الصعب تبعا لمنطلقاتنا التأويلية أن تعوضنا الاستعارة التصورية بما يشفي الغليل في هذا الأمر، فنغض الطرف عن الإمكانيات التحليلية الهائلة التي تمنحنا إياها نظرية الاستعارة القديمة. وإذا كان البناء المعرفي والمنهجي والفلسفي لهذه التصورات الجديدة صائبا ومقبولا، فإن أسئلة الجدوى والفعالية التأويلية تظل مطروحة بحدة أمام الناقد والمؤَول ومحلل الخطابات، مما يعني الحاجة إلى طرح شمولي موسع يغتني من هذه التصورات، ويجعلها تحت إطار عام يستأنس بالاستعارة الوجودية، وتشكلات الثقافة بناء على تداول الأنوال، وتعاور الألفاظ، والمفاهيم، والمناهج، والتصورات، والأدوات، والاختراقات التي تحدث في اللغة، وفي استعمالها، ودور اللاوعي والمعارف القبلية وغير ذلك.

وإذا كان مثلب نظرية الاستعارة التقليدية - في تصورنا- هو أنها عاجزة عن تفسير الأشكال الاستعارية المنوالية الحديثة، وعيب النظرية المعرفية والعصبية والجسدانية أنها تفتقد لجمالية التذوق، وتعجز عن بلوغ أسرار المعاني، فإن الطرح المنوالي الموسَّع يقرب بين ممكنات تعليل الفعل الاستعاري، وبين كيفياته اللغوية والسيميائية العامة، وهو طرح يجعل الفعل الاستعاري جزءا من البلاغة السيميائية، وحالة طبيعية في اللغة وليست حدثا طارئا، ومن ثمة فالأفعال الاستعارية هي نتاج لكيمياء اللغة والثقافة لدى منشئ الخطاب. يحاول هذا التصور أن يجيب عن ثلاثة أسئلة متعالقة في جوهر الأصل والحال والمآل:

1- كيف تحدث الاستعارة المنوالية والسيميائية؟

2- ما البنى التي تلائم هذا النمط الاستعاري؟

3- كيف نُؤَوِّل هذه البنى في الخطاب؟

إن اعتماد المرجعية الجسدانية في الفلسفة والتفكير، وما يتعلق بشبكة الأعصاب وتوليد الاستعارات، وتَقَبُّلَ هذا الطرح بلا تمحيص أو مساءلة، وبلا تطويع للأنساق الثقافية الإسلامية والعربية فيه بعض المجازفة، فهل الجسد فعلا هو أصل المعنى؟ وهل التجربة الجسدية هي منطلق كل شيء نفهمه أو نفكر فيه؟ لا شك أن قبول هذه الفلسفة، وما ينشأ عنه من نتائج يجعل الفعل الاستعاري ظاهرة عصبية أو جسدانية يعتبر أفقا ضيقا للمعرفة وتحقيق البلاغة، وهو لا يتناغم كليا مع ثقافتنا وإيماننا بمرجعيات المعنى والقصد وتفاعل الإنسان مع العالم. وهكذا فإن استحضار الوحي، والمعاني التي لا دور لنا في إنتاجها يمكن أن يعصف بهذه الأطروحة. صحيح أنها تقدم تفسيرات مقبولة بشأن دور الجسد في التصور والمعرفة وبناء المفاهيم، ولكنه دور يبدو تابعا في ثقافة تؤمن بروحانية المعاني ومصدرها المتعالي، وأصلها المسلَّم به، وقياديتها في تحرير الجسد.

إن القول بالأصل الجسدي لكل بنية استعارية ينطلق من فلسفة تؤمن بأن "العقل يشكله الجسد"[22]، وكلما "تعلمنا نسقا تصوريا انطبع عصبيا في أدمغتنا"[23]، فالمعنى ينشأ من الجسد، و"تَجَسُّدنا المشترك هو ما يسمح بحقائق مشتركة وقارة"[24]. ولكن هذا ليس صحيحا دائما، فليست علاقة الجسد بالعالم المادي وبالتصورات هي ما يخلق الحقائق والمعارف والمعاني والقناعات وأنماط الوجود. إن جزءا هاما من هذه الحقائق مصدرها الروح والوحي والرسائل الربانية، وهداية الرسل، واجتهاد العلماء، والحكماء والعارفين، ومن التأمل والتجربة العرفانية، ومن الأدب والثقافة والنصوص... والمرجح أن إثارة فلسفة العقل الذي تشكله "الجسدانية" في علاقة ذلك بالاستعارة مرده الوقوف على

(22) السابق، ص39.

(23) نفسه، ص39.

(24) نفسه، ص41.

الطبيعة المطردة للتصورات الفلسفية المبنية على الاستعارات اللاواعية. فكيف يكون الفكر المجرد استعاريا؟ وما الآلية التي تجعلنا نفكر بطريقة استعارية؟

تستأنس هذه الفلسفة بمقترحات فلسفية واستعارية سابقة[25]، وهي:

- **نظرية الدمج** (مع جونسون): ففي قولنا: "ابتسامة دافئة": هناك دمج لتجربة الدفء الحسية مع فعل الابتسام.
- **نظرية الاستعارة الأولية** (عند غرادي): الاستعارات المركبة تتكون من استعارات ذرية.
- **النظرية العصبية** (عند نارايانان): الترابطات الدامجة تتحقق عبر الشبكة العصبية، وهي التي تحدد التصورات ومجالاتها.
- **نظرية المزج** (عند فوكونيي وتورنر): يتشكل الإنجاز الاستعاري عبر الترابط بين فضاءين ينتج عن مزجهما فضاء ثالث جامع.

ينبغي أن ينتبه القارئ العربي الذي يتلقى هذه النظريات إلى منطلقات عملها الفلسفي والمعرفي، فهي تطرح اجتهادات في كيفية تشكل الاستعارة ذهنيا ومعرفيا وعصبيا، خلافا للنظرية الاستعارية العربية التي اهتمت بالأساس اللغوي والجمالي للاستعارة. والملحوظ أن الثابت في هذه النظريات رغم اختلاف الاصطلاحات هو وجود مجال أول مصدر (مستعار منه)، ومجال ثان مستعار له (هدف)، ومستعار، وعملية استعارية (دمج، مزج، ترابط، تركيب، إسقاط، نسخ...)، وهو ما يوافق في البناء القاعدي خطاطة التحليل الاستعاري في البلاغة العربية وبمفاهيم أخرى مثل: النقل، الإبدال، التحويل، الوضع، الاستعارة، الجواز..

الأحياز العصبية وتشكل التقابلات الاستعارية

تذهب النظرية العصبية للاستعارة إلى أن التجارب الحس -حركية للإنسان تؤثر في إنتاج استعارات مثل: "نزلت الأسعار" أو "ارتفعت الأسعار"، فإلقاء جسم في الفضاء ومراقبة صعوده أو سقوطه وحركته العمودية يُكَوِّن شبكة حسية

(25) السابق، ص90.

حركية هي المجال المصدر، ثم يحدث الترابط العصبـــي بينها وبين الشبكة الهـــدف (نزول الأسعار)، حيث يتحكم تصور حركة النزول في الفضاء (المجال المصدر) في تصور نزول السعر (المجال الهدف) عبر تنشيط آليات الربط والدمج والنسخ.

وتبعا لأنموذج **فلدمان** في نظريته العصبية لاكتساب اللغة، فإن الاســـتعارات الأولية جزء من اللاوعي المعرفي[26]، لأنها فطرية، وأما الاستعارات المركبة فهـــي مكتسبة، وقد تعتمد أدوات أخرى غير اللغة. الاستعارات الأولية وفق هذا الطرح لها تعلق بالتنشيط العصبـــي، وبالأحياز المخصصة لما هو حسي حركـــي داخـــل الدماغ. يتم النسخ من هذا المجال الحس- حركي إلى مجال التجربة الاســـتعارية. ومع كل هذه الافتراضات -وفي غياب براهين علمية تجريبيـــة تـــبين بـــالملموس العلاقات بين المجالات العصبية والحس حركية وبين إنتاج الاستعارات- فإن هـــذا الطرح يبقى محل اعتراض.

ومما هو قابل للإدراك والتصديق أن عملية النسخ تسمح بالعبور مـــن مجـــال تصوري إلى آخر، مثلا: "الحياة الهادفة رحلة". تحكم البلاغة العربية على مثل هذه البنية -مثلما ذكرنا- بأنها تشبيه بليغ، لكن البلاغة التصورية تنظـــر للمجـــالات المفهومية التي بُنيت بها التمثل الاستعاري: المجال المصدر" الرحلة "ومقوماتها وكـــل ما يتعلق بها من متعة وألم وصعوبات واكتشافات ومغامرات. والمجـــال الهـــدف: "الحياة رحلة". وتقدم الاستعارات الأولية المادة الخام لبناء الاستعارات المركبـــة: مثل: الغايات وجهات، الأعمال حركات.

يقوم التحليل الاستعاري على توليد المتناسبات عبر التقابل، وقد أشـــرنا -مـــن قبل- إلى أهمية الأساس التقابلي[27] في بنية كل اســـتعارة. ممـــا يفيـــد أن الإنجـــاز الاستعاري في كل نماذجه يمكن تفسيره كذلك **بنظرية المقابل المناســـب**، وتحريكـــه بالشكل الملائم هو ما يخلق استعارة قابلة للفهم والتأويل، تحقق أقدارا متفاوتـــة مـــن التعبير البليغ. هذا الأُس التقابلي هو ما قامت عليه كل التحليلات والدلائل التي قدمها **لايكوف وجونسون** دعما لطرحهما التصوري في هذا الكتاب وفي الذي قبله.

---

(26) السابق، ص102.

(27) **نظرية التأويل التقابلي**، ص135.

تختزل الإنجاز الاستعاري -من وجهة نظرنا- سيناريوهات مكثفة ذات بنيات متقابلة بين المدونات اللغوية والثقافية وبين البنى اللغوية المبتكرة. ويقتضي تفسير استعارة ما بناء قصة تجريدية قصيرة أو سيناريو مفترض يوجَد في البنية العميقة للتفكير، ومن ثمة يمكن الحديث عن بنية باطنية تحيل على علاقات وأطراف وأفعال وزمن، لكي نفسر البنية السطحية للاستعارة: خطة الرحلة مثلا، والتزود لها، وعوائقها... حيث تتم استعارة خطاطة البنية العميقة لسيناريو الرحلة لكل حياة هادفة (التخطيط، الصعوبات، التزود، الصبر، الحكمة...). ومن المناسب أن نضيف أن دماغ الإنسان مزود فطريا بملكات مراعاة التناسب والانتقاء والاستبدال في الاستعارة. وهكذا لا نقبل استعارات كثيرة في مثل هذا المقام، مثل الحياة الهادفة كأس أو شوكة أو أسد... وهذا ما يعني أن استحضار المقام ومناسبة القول له، ومراعاة التناسب والمقبولية شروط أساس في بناء الاستعارات المقبولة. وقد دققت البلاغة العربية في هذا خلافا للنظريات الحديثة التي تحاول جاهدة تفسير البعد الجسدي أو الذهني أو العصبي للاستعارة، دون إيلاء الأهمية الكافية لدور العلم بضوابط الفعل الاستعاري في بناء علم تأويل الخطابات.

محدودية النظرية الجسدانية

اتجهت أطروحة "الفلسفة في الجسد" إلى نقد الفلسفات التقليدية في الأخلاق والزمن والفضاء والسببية، ووجدت في الاستعارة التصورية آلية لبيان اضطراب تلك الفلسفات على مستوى المفاهيم الموظفة والأطروحات المتبناة. ولذلك تميل فلسفة "الجسدانية" من منظور معرفي وعصبي إلى جعل الحقيقة اللغوية منطلقا والاستعارة تابعا. وهذا المنطلق بدوره قابل للتشكيك فيه، ذلك أن الحقيقة والاستعارة منشؤهما واحد، فليست الاستعارة أمرا بعديا طارئا في الاستعمال الحقيقي للغة، وإنما هما توأمان في الاستعمال، فالإنسان متكلم مناور ومبتكِر ومتوسع في نظام اللغة على الحقيقة والمجاز، واستعمال اللغة يسير على الحبلين في خطاباتنا العادية واليومية، ولذلك تبدو الأطروحة التصورية عاجزة عن تفسير الجمال البلاغي في الخطابات الشعرية، وعن تقديم أدوات لتذوق جمالية المعنى

ومعنى المعنى، والبلاغة التقليدية تتقدمها في هذا بكثير، فضلا عن تمافت فكرة بعدية الاستعارة في الاستعمال اللغوي، ليس الإنجاز الاستعاري -في تصورنا- أمرا طارئا، بل حالة من حالات الاستعمال اللغوي. وقد كانت البلاغة التقليدية أكثر تدقيقا في ضبط الأساليب الكثيرة التي يتحقق بها الخطاب: الكناية بأنواعها، والمجاز بفروعه، والتشبيه بأقسامه، والاستعارة بضروبها...

خلاصات وامتدادات

1 – لا يتكون الخطاب من البنى الاستعارية اللغوية فحسب كما درجت على ذلك نظريات البلاغة القديمة، وإنما هو نسيج من الاستعارات اللغوية والاستعارات المنوالية، فالأولى تقوم على أسلوب استعمال اللغة، والثانية على استعمال مكونات الثقافة ودعم الخطاب بالحجج والنصوص والمقتبسات وغيرها.

2 – ينقلنا الحديث عن استعارات متسلسلة في الخطاب من مستوى الاستعارة داخل الجملة إلى البنى الاستعارية المتلاحمة بشقيها اللغوي والمنوالي، هذا النسيج المتناغم يستدعي أدوات لفهمه وتحليله، وأول المسارات في هذا هو تعرف البنى الاستعارية الجزئية، وتحديد مقصد كل منها، ثم ربط المقصديات الجزئية بالمقصدية العامة للخطاب.

3 – النموذج الاستعاري في التحليل والتأويل هدفه الأساس تعرُّف البنى الاستعارية الظاهرة والخفية، وبيان معانيها، وهي **تخييلية** في الاستعارات اللغوية، **وإقناعية تصديقية** في الاستعارات المنوالية، ويحققان معا تناغما حيا لتلقي المعنى وفهمه، إنه نموذج يعزز النماذج السابقة الساعية إلى ضبط الأنساق الأكثر حضورا في صناعة الخطاب (النسق التساندي، والنسق التقابلي، والنسق الاستعاري) وهو يعيد الاحتفاء بالاستعارة المنوالية الحجاجية ويواخي بين **المعنى بالتخييل والتصوير، والمعنى بالاستمداد الثقافي.**

4 – من بلاغة الخطاب جودة الاستعارات، والقدرة على بناء سلسلة من العناصر المنسجمة المتناغمة مع القصدية، فقد تَحْدُث استعارات متعسفة (فاشلة)

في الخطابات إلى جانب أخرى ناجحة[28]، لكن ليست الاستعارات في الخطـاب هي موضع النقد دائما، فالتأويلات القاصرة تُفَوِّت علينا كثيرا من اللذة الممكـن تحصيلها بتبين البنى المستعارة، ومعاني ذلك ووظائفه. قد لا يُوفَّق مؤلف الخطـاب في اختيار استعاراته اللغوية أو الصناعية ككل، لكن المؤَوِّل كذلك له دور قوي في حدوث التأويلات الخاسرة الكسيحة المتبلدة.

5 - الأرضية التي ننطلق منها تأويلية وتحليلية، فإن وجدتْ بعض روافدها في علم البلاغة فلا غرابة في ذلك، لأن منارات التأويلية قد ارتفعت منذ القديم مـن أرض البلاغة. ومن تلك العلاقة الوطيدة استخرجنا "قواعد بلاغة التأويل" وهـي مجال معرفي واسع سعينا فيه لتقنين الفهم وتحديد ما يضبطه[29]. كمـا أن علـم التأويل يستعير بدوره أدواته من محصلات معرفية إنسانية قديمة وحديثة، مثلما تمده علوم البلاغة بالأدوات والمفاهيم والأمثلة..

6 - يقدم المنظور التصوري في مجال التحليل المنطقـي والفلسـفي أدوات لتحليل الخطاب الاستعاري الفلسفي، أو الخطاب اليومي، أو فلسفة الذهن، وبيان وجوه علاقة العلم المعرفي بالفلسفة، بناء على أساس موحَّد هو تقابـل المجـالات، ووضع المقولات الفلسفية، ويمكنها أن تكتفي بذلك، لكنها في تصورنا حادت عن تفسير كون الاستعارات جزءا من الحقائق، وعن بلوغ مستوى الجمالية التأويليـة التي تقدمها البلاغة التقليدية في تأويل الصور الشعرية القائمـة علـى الاسـتعارة وغيرها من أساليب البيان. وأكثر من ذلك حصرت نفسـها في المجـال اللسـاني والفلسفي والاستعارات التصورية الذهنية، ولم تتعد ذلك إلى مجالات الاسـتعارة

---

(28) خصص أحمد يوسف علي كتابه "الاستعارات المرفوضة" لبيان الأسس النقدية والذوقية التي بنى عليها البلاغيون القدامى (الآمدي، الجرجاني والحاتمي والصولي..) استحسانهم لاستعارات شعرية مقابل رفضهم لأخرى تحتاج إلى تأول وتعمق في الفهم وإلى قـوة تخيل وطول تأمل. وقد قدم الكتاب أمثلة للاستعارات التي اعتبرت معيبة عند بعـض القدامى وتحليلات مستفيضة تبين محاسنها ومقبوليتها الشعرية.

مثل قول أبـي تمام: **لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي**

(29) انظر محمد بازي، **التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات**، الدار العربية للعلوم/بيروت، ومنشورات الاختلاف/الجزائر، 2010.

السيميائية البصرية والسمعية والرقمية التي يحفل بها التواصل الكوني في زمننا.

7 - لا تقدم النظرية التصورية -رغم المجهودات التحليلية العميقة- رؤية واضحة عن علاقة المعرفة بالإنسان والكون والوجود، والمبدأ والمآل، وعن الفلسفة والبلاغة التي توصل إلى حقيقة الوجود الإنساني، أو تتبنى دورا في تجميل الوجود الإنساني وتحقيق نظام الكون، وعبودية الخلق للخالق مما تسعى إلى بيانه الفلسفة الإسلامية والعلم القاصد. فهل سنبقى مرة أخرى سلبيين أمام هذه الفلسفات متقنعين بالعلم الوضعي، وبمنهجية البحث الموضوعي، واستقلال المعارف؟

8 - تبقى حقيقة الفلسفة في الجسد -أو "في الدم" بالتعبير العربي- غامضة مغلقة على موضوعها مهما بلغت من العمق والنضج؛ لأن همها كان هو تحدي الفكر الغربي التقليدي، ونقض الأطاريح الفلسفية السابقة، والدعوة إلى العلم المعرفي المجسِّد، ومحورية الجسد في الفهم والتصور، في حين أن منظورات توحيدية تعتبر الجسد تابعا للمعاني مثل الألفاظ، والروحانيات قائدة لخلاص الجسد أو فساده، والأهواء الإيمانية موجهة للأهواء الجسمانية، والوحي أصل في المعرفة وبناء الإنسان، والبلاغة الإسلامية الكبرى جاءت لضبط الجسد وتربيته والحد من غلوائه وأهوائه.

9 - إن تشكيك النزعة التصورية الجسدانية في الفلسفات الغربية القديمة لا يعني أنها بلغت الحقيقة، وكل ما فعلت أنها بينت مناطق فراغ هائلة في فلسفة الجسد، والحاجة إلى تصور شمولي روحاني جسداني إيماني وبياني يستحضر ما جاءت به الأديان السماوية، والبلاغات الكبرى المحققة للحياة البليغة، والفكر الإبلاغي الإسلامي والعربي في بحثه عن الحقيقة بين العقل والنقل، بين الفلسفة والشريعة.

10 - في انتظار من يفتح هذه الجبهات المعرفية انطلاقا من هذه الأبعاد المختلفة تكون الاستعارة التصورية قد عمقت دراسة اشتغال الذهن، ودور الفعل الاستعاري في بناء المفاهيم الفلسفية، وفي تحليل بنى الخطابات التواصلية اليومية. وليس ذلك إلا نافذة صغيرة في عمارة البلاغة الكونية الشاهقة.

11 - لم تجاوز دراسة الاستعارة حدود بلاغة الجملة مهما كثرت تسمياتها، لكن باب التوسيع والاجتهاد مفتوح وبالأخص إذا حصل التوفيق في إيجاد الأمثلة

المناسبة لدعم هذا الافتراض: الاستعارات الجملية النصية، والتصويرية، والأداتية، والحكائية، والحياتية، والثقافية، والعلمية والاصطلاحية.. كما سيأتي بيانه. وقد سمينا ما خرج عن استعمال اللغة: استعارة الأنوال. فمن أراد الأولى عمل بها واتجه إلى علم الاستعارة القديم، وهو ثري ولا غنى عنه في التبيين والتأويل والتذوق، ومن أراد الثانية فإنما يستعير أدواتها من الدراسات الثقافية، والتقابلية والمعرفية والفنية، ومن العلوم الرقمية الحديثة. ودور الفعل الاستعاري في المنوالين القديم والجديد هو بناء المعنى، وتقديم الحقيقة في صورة أبلغ وأدق وأرقى وأعمق مما يحقق التأثير المطلوب، فالإنجاز الاستعاري ادعاء معنى وبيان ووشي وإغراء. والاستعارات المنوالية مثل الاستعارات اللفظية منها قريب المآخذ ومنها البعيد مما لا يقف عليه إلا النبيه والخبير بالمجال المعرفي للاستعارة.

12 - يمكن للنموذج الاستعاري أن يستقصي الأنوال المستعارة المضمرة، وهي الطرائق المستوعبة من فكر آخر ومن حضارة أخرى، أو من قراءات متعددة، وهي تشكل الخلفية المرجعية التي يستدعيها صاحب الخطاب أديبا، أو ناقدا، أو بلاغيا أو محللا، دون أن تظهر بشكل واضح. ولكن يمكن الاهتداء إليها مثل المنوال المنطقي في التحليل، أو الحضور الفلسفي في الأدب، أو النفس الصوفي في الكتابة... فكل كتابة هي نسيج من الأنوال المستعارة الظاهرة والخفية، وإنما التأليف تنظيم للخبرات والقراءات والذخائر، ونتائج الاطلاع، والتأثيرات المباشرة، والنصوص المستعادة، والتصاديات الفكرية أو المقولية أو التخييلية، مما لا يستطيع أي كاتب أن يدعي السلامة منه، فكل كلمة تجر وراءها تاريخا كاملا للمعاني أو الأنوال، أو سلسلة من التداعيات النفسية والفكرية والموسوعية. وكما قيل: لكل كلمة مع صاحبتها مقام، وتصبح كل جملة -وفق المنظور المنوالي الموسع- مع صاحبتها استعارة.

الفصل الرابع

الاستعارات الافتراضية

تقديم

من سمات الثقافة التواصلية الرقمية القوة الاستعارية، وقد اتخذها بعض المنتسبين للعالم الافتراضي قِناعا، فلجأ إلى استعارة الأسماء والصور والصفات، وكأنه يبحث عن الانتماء إلى عالم تواصلي يسمح له بالتواري، سبيله في ذلك الاستعارة الاسمية والانتمائية، حيث يتم تقبل هذا الأمر على المواقع الافتراضية، وبين المتواصلين الذين لا يهتمون بالأقنعة المستعارة التي يلجأ إليها بعض الأفراد لأسباب مختلفة، وكأن في الأمر توافقا خفيا على التواصل مع المجهولين المُقَنَّعين بالصور والأسامي المستعارة، مما يعني أن القيم التواصلية الجديدة أصبحت بدورها تقبل التقنع، والتفاعل مع المتقنعين، مما لا يُقبل عادة في الواقع الحياتي، لأن القناع أو الوجه المستعار يعد في الأحوال العادية مبعثا على الريبة والشك، وداعيا إلى إغلاق باب التواصل بالجملة.

على شبكة "النِّت" يَقبل الكثيرون لعبة الاستعارات والتخفيات والأقنعة، وتحدث مناورات وتجاوبات وانخداعات. التموقع الاستعاري ليس دائما آمنا ومفيدا، بل خطره قائم، وتحديدا عندما تحكمه قيم المكر والكذب والاستدراج... ولأن الأمر يبدأ في الغالب على أنه تجربة تواصلية، واستكشاف ولعب لا يخشى أثره ومفعوله، فإنه قد يتحول إلى خطر يهدد الأفراد والجماعات. يصبح الفعل الاستعاري في مثل هذه الحالات مناورة لتحصيل منافع معينة –حقيقية أو وهمية– وهروبا من الذات الواقعية إلى ذات غريبة متخفية سرابية، وهو هروب كذلك من سلط المجتمع ورقاباته. تضمن الاستعارة في مثل هذه الأحوال التخفي والتقنع، لكنها لا تضمن بناء ذات إيجابية صريحة تعمل بشفافية في العلن. وقد يجد هؤلاء

الذين يشعرون بالنبذ من قبل المجتمع، نبذا مضاعفا من قِبل رواد المواقع الاجتماعية والتواصلية كذلك، لأن المتخفي البارع في الاستعارات لا يَقبل به محاورا ومستكشفا إلا من كانوا على شاكلته من أرباب الاستعارات والمناورات.

يقضي المُتَقنِّعون الاستعاريون وقتا أطول في تتبع الحقيقة الهاربة للآخر المستعير، الهارب من سُلط المجتمع وقوانينه. على "النت" يجد الجميع ملجأ للأحلام، وتصريف الاهتمامات والميولات والنوازع، والهروب من الذات، واصطناع ذوات مأمولة أو مخادعة ماكرة، أو مَرضية منفصمة؛ لذلك يستعصي في تواصل هذه الفئة الصورية القبض على الحقائق؛ لأن الأفعال الاستعارية قوية لما يتيحه العالم الافتراضي من إمكانيات تقنية للتخفي، والظهور باستعارة صورة الوجه أو الجسم، وأحيانا باستعارة صورة معنوية (العمل، الاهتمامات، المركز الاجتماعي، التدين، الهوايات...). في مثل هذه الحالات يركب الفعل الاستعاري مطية الأكاذيب والحيل والتضليل. يحدث هذا كذلك في الأدب، فليست الاستعارت اللغوية أو التصورية إلا كذبا نصدقه إلى أن ننساه.

لم تعد الاستعارة إذًا ذات طبيعة لغوية، أو تصورية بل خاصية إنسانية كونية لها تجليات سيميائية متعددة لغوية وغير لغوية، حيث يوجد الإنسان توجد الأفعال الاستعارية لملاءمتها للطاقة الإبداعية التواصلية وهي تعينه على تحقيق ما يريد، أو التخلص مما لا يريد. إلى جانب ما ذكرنا تحدث في الفضاء الرقمي استعارات لا عد لها ولا حصر، أبسطها وأقربها عملية القص واللصق، فالمتصفح يستعير ما يريد من موارد رقمية بشكل جزئي أو كلي، ويدرجه ضمن ملفاته الخاصة على حاسوبه، أو يتقاسمه مع الآخرين في مواقع أخرى. وتقنية "التقاسم" (Partager) مثلا وجه من وجوه الاستعارات الأكثر انتشارا وعملا بين المبحرين على شبكة النت.

يتحقق الفعل الاستعاري الرقمي بآليات كثيرة نذكر منها: "التقاسم" و"القص" و"اللصق" أو "التحميل" أو "الرفع"؛ فالموارد المرفوعة على الشبكة بمثابة مواد أولية متاحة لكل ألوان الاستعارة بالنقل والدمج والتقليص والتقاسم والتحميل.. وتتعدد الرسائل التي تحملها من إكبار أو إعجاب بالمادة، أو السخرية

منها، أو الإشارة إلى فائدها، أو الاستدراج بها إلى موقع آخر أو غرض تجاري، أو تخريبي أو إعلامي، أو إشهاري، أو سياسي، أو تحريضي، أو حجاجي... فأنت تلاحظ أن العمل الحاسوبي والإبحار الرقمي قائم على الاستعارات التي ننخرط فيها بشكل تلقائي، ونشارك جميعا في تتميم عملياقما وأدوارها إنتاجا وتلقيا، على قدر تمكُّن كل مبحر من الأدوات الرقمية، ومن تقنيات العمل بالحاسوب، وإنشاء الموارد الرقمية (الصور، والنصوص، والأشرطة..) وما يتطلبه ذلك من مهارات الأخذ واللصق والإدماج والتركيب وإدخال المؤثرات الصوتية والتحسينات... مما يوحي بأن الأجيال الجديدة قد تستغني مستقبلا عن المعجم اللغوي لإنشاء استعاراتها، لوجود أبدال رقمية متكاثرة ومتطورة ناشئة عن سيمياء الاستعارات والعلامات والرموز اللامحدودة.

وبقليل من التأمل سيتبين لنا أن العالم الافتراضي بأكمله ليس إلا استعارة نووية كبرى لما في العالم الواقعي، أو خليطا هائلا من الاستعارات المتوالدة. ولا شك أن الطاقة الاستعارية الرقمية اللامتناهية لم تعد البلاغة القديمة ولا نظريات الاستعارة الحديثة كفيلة بوصفها وتحليلها ونقدها. ولا بد أن يعترف أهل البلاغة التقليديون أن الأدوات التي توفرها نظريات البلاغة المعتمدة على اللغة أصبحت متجاوزة في الكشف عن الملكات البلاغية الرقمية العليا في المجال الافتراضي، بل شبه معطلة. ومن ثمة الحاجة إلى الاستئناس بعلوم الحاسوب، والإبحار على الشبكة، والتصوير والتشكيل، وعلوم الأدب، وتكنولوجيا المعلومات والتواصل لضبط أدوات الاستعارة وقوانين عملها.

مقابل عجزِ البلاغة القديمة عن تقديم أدوات لفهم بلاغة الرقميات الحديثة، فإن العلوم التقنية والتصويرية والسيميائية والتشكيلية والتواصلية الحديثة تصبح هي البلاغة البديلة القادرة بلا شك على بيان مراتب الخطابات الرقمية ودرجة بلاغتها، وهي المؤهلة لتفسير أسرار بلاغة صورة من الصور أو شريط قصير، أو لوحة تشكيلية، أو بلاغة موقع من المواقع جماليا وتواصليا وتقنيا ومحتوى وانسجاما... بمعايير عدد المشاهدات، والتأثير الحاصل، وجودة المنتوج، وجماليته. وهذا ما يتطلب خبراء بصناعة المنتجات الرقمية وبالتواصل الاجتماعي،

واهتمامات الأفراد، وقيمة الخطاب إنسانيا أو علميا. ولا بد أن نستحضر على الدوام -بعد كل ذلك- مبدأ الاستعارات القاصدة والرسائل المفيدة البانية للإنسان، الساعية إلى خلق الجمال في القيم والعادات والسلوكات والتواصل، مما يحقق لعُمار الأرض الجدد ولمن بعدهم بلاغة وجودهم كما تحققت لقليل ممن سبقهم.

الجيل الجديد وأنوال المعرفة الرقمية

الهواتف المحمولة مثال تقريبي جيد لما نريد بيانه؛ فقد كانت وظيفتها -منذ سنوات ماضية قليلة- هي التواصل فحسب، وسرعان ما استعارت من الحاسوب كل وظائفه وأنواله المتاحة، فتحولت إلى حواسيب صغيرة محمولة، بل استعارت منوال شاشة التلفزيون وعرض الأفلام، ومنوال الإذاعة، ومنوال أداة التصوير، وجهاز التسجيل، بل أصبحت مجمع الأنوال التواصلية التي يغني الواحد منها عن استوديو تصوير، وعن التلفزيون والمذكرات والأقلام والأوراق، وجهاز اللعب، والآلة الحاسبة، ومعالج الصور، وقياس الأزمنة والمسافات وتحديد المواقع والجغرافيات، فضلا عن خدمات البحث على النت، والمنبه، والإخبار الفوري برسائل البريد الإلكتروني، وغير ذلك من الوظائف والخدمات التي شكلت ثورة رقمية هائلة باستعارة كل الأنوال التقنية التي راهنت الإنسانية والاجتهادات العلمية على مراكمتها وتطويرها خلال القرون الماضية، فحصل تجميع أنوالها واختزالها في جهاز صغير خلال سنوات قليلة.

وهكذا، فإن أطفال اليوم والغد يمثلون جيلا استعاريا يواكب الأنوال الرقمية المتطورة تلقائيا، ويتفاعل معها، لأنه يتعامل بها في حياته اليومية منذ نشأته، يطور بها مواهبه، وتتأسس عليها كل علاقاته. وهناك مفارقة كبرى لا تزال قائمة بين ما تقدمه هذه الأنوال المعرفية المتطورة وبين المدرسة فيما تقدم من مضامين، ونصوص أدبية، وأدوات ومناهج يعمل بها المدرسون. لقد أصبحت المدرسة اليوم تصيب كثيرا من المتعلمين بالإحباط، والصدمات والارتكاسات؛ فأنت تلاحظ كيف يحرك أطفالنا اليوم أصابعهم على اللوحات الإلكترونية، وعلى الهواتف بسرعة

وتفاعل ذكي وعجيب مع التطبيقات، والبحث الرقمي والتدوينات والمشاركة في المواقع الاجتماعية. أمر يبدو معه تدريس نص شعري جاهلي طويل على اللوح الخشبي أمرا عبثيا أو مثيرا للسخرية والشفقة من قِبل المتمدرسين الجدد، وعلى المدرس أن ينتبه للسرعة التي يتفاعلون بها مع العالم المحيط بهم؛ وتبعا لذلك يحسن أن يستعير أدواته من الأنوال المتطورة المتاحة لتحقيق الأهداف التي يسعى إليها من تدريس تخصصه، وأن يتمتع بالمرونة الكافية للتوفيق بين النظام الاستعاري لتفكير هذه الفئة النشطة وبين ما تتيحه المدرسة من إمكانيات يقوم أغلبها على الوضوح والمشابهة. مما يستدعي تحيين المضامين، وتغيير كيفيات التدريس ومناهجه استجابة لمطالب جيل تجاوز مدرسة التشبيهات، وإن ظل يتعلق بها إداريا وبدنيا أكثر من تعلقه بها معرفيا.

لم تعد المدرسة مصدرا وحيدا للمعرفة فتنال التقدير لتفوقها المعرفي، أصبحت مصادر المعرفة متنوعة تفوق إمكانيات المدارس المتطورة. مدرسة المستقبل هي مدرسة استعارة المنوال، سريعة الخطى في تغيير أنوالها وصورها وبريقها وروائحها لمواكبة متعلمين فتحوا أعينهم على جمالية الصورة التقنية، مع جودة العرض، وحسن الأداء وانسجام المكونات، وتعدد الإمكانيات، وسهولة الولوج، وجودة المنتَج، وهي تربية عالمية مشتركة لم نعد نتحكم فيها، ولا فيما يحركها من قيم ومبادئ.

لقد حدث تجاوز كبير للمدرسة التقليدية والحديثة على السواء بسرعة قياسية، وعلينا أن ندرك حجم الجهد الذي ينبغي بذله للوصول إلى ما أصبح في يد أبناء اليوم من آلات وأدوات ومهارات، بل يتطلب ذلك تغيير الرؤى والفلسفات التربوية العتيقة، وتغيير منظومات الأفكار والمواقف بالكتاب المدرسي، وعبر البيداغوجيات القديمة، والانخراط في الأنوال الرقمية الحديثة لمواكبة الثورة الرقمية، وتحقيق التوافق بين طريقة تفكير أبناء العصر الرقمي الجديد وبين ما نريده لهم، أو ما نتفق أنه ينبغي أن يتعلموه، أو يبدو صالحا لهم وفقا لمرجعياتنا الدينية والوطنية والأخلاقية.

يعمل الكثير من المدرسين بوسائل عتيقة، وبخطوات بيداغوجية نمطية متكررة، وإذا لم يحصل التفكير الجدي السريع بما يفرضه التطور الحديث، فإن

الخرق سيتسع على الراقع، وستظهر فجوة كبيرة بين تطلعات الجيل الجديد وما تقدمه لهم المدرسة بشكلها الحالي العتيق، وبالأخص إذا ظل المدرسون يصرون على الأدوات القديمة التي تعلموا بها، والمضامين التي تعلموها.

لكل معنى استعاراته

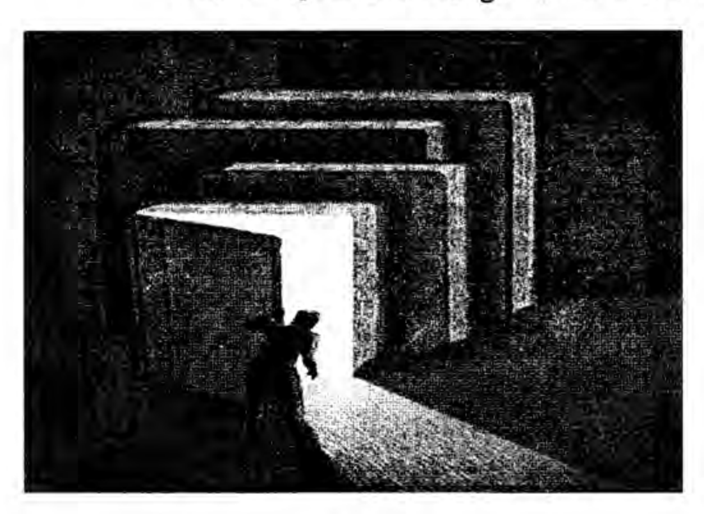
تظهر في مجال التواصل الاجتماعي على "النت" هذه الطاقة الإبداعية الاستعارية في بناء الخطابات الساخرة التي تنتقد أسلوب الرؤساء أو الوزراء أو أي شخص آخر، عبر ألوان الاستعارات اللامحدودة من الحياة الاجتماعية، ومن اللغات الحية، ومن الرسوم المتحركة، والعادات، والرموز الدينية، والوطنية، والأشكال والألوان والحيوانات والأدوات التقنية، وكل ما هو متاح فهو يستعار للتعبير عن موقف أو إبلاغ رسالة، أو الدعوة إلى المشاركة...

لم تعد الاستعارة لغوية أو تصورية فحسب، وإنما أصبحت **تقنية متوالية لا حدود لها**، كما أنها لم تعد محصورة بين الشعراء والكُتاب وقُرَّائهم، بل أصبح كل متواصل قادرا على التعبير بما يراه مناسبا من الاستعارات، فتوفر له البرمجيات المتطورة في الحاسوب الصور والكتابات والعلامات والأرقام وكل ما يحقق تبليغ الرسالة بقوة، ويتيح فهمها بشكل سريع. إننا نعيش زمنا استعاريا سريعا، تنشأ فيه الاستعارات بسرعة وتموت بسرعة، استعارة اليوم قد لا تصلح غدا، لكل يوم استعاراته، ولكل جيل استعاراته، استعارات آبائنا ليست هي استعاراتنا، واستعارات أبنائنا ستكون مخالفة لاستعاراتنا.

لاحظ -في الصورة أسفله- كيف استعار صاحب التصميم التعبيري الأرجوحة (الممثَّل بها) للتعبير عن الارتفاع والانخفاض، بين الأثقل والأخف، والمنوال المستعار في الأصل أداة للعب عند الصغار، لكنه يحول إلى ميزان يبين أن الأثقل بمعايير المعرفة والحكمة والنباهة ليس بالوزن أو الضخامة الجسمية، وإنما بعدد الكتب التي يطالعها، فالطفلة الصغيرة الخفيفة رجحت بالرجل الثقيل باعتبار أهمية الكتب التي تطالع ونفعها؛ الثقل الحقيقي هو ثقل المعرفة والقراءة، إنه ثقل معنوي، ثقل العلم والنظريات والحيوات المتنوعة التي تنقلها لنا الكتب.



إن المتصفح اليوم لشبكات التواصل الاجتماعي يدرك بسهولة قوة التوظيف الاستعاري لمثل هذه الصور في قضايا قانونية، اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، كما كان المتلقي قديما يدرك المعنى المقصود من الاستعارات الشعرية أو النثرية لألفته بها، فهي أداة لإبلاغ المعاني لأغراض توضيحية تقريبية أو إيحائية جمالية أو حجاجية. والإنسان المتعلم مزود بهذه الكفاية التأويلية والاستعارية، لأنه نشأ في بيئة تعتمد الصور المستعارة منوالا في نقل المعاني، وفي وصف الموضوعات وصفا ذكيا يقتصد الجهد والوقت ويؤدي الرسالة بقوة. وهذا ما يجعل الحاجة مُلِحة إلى بناء بلاغة جديدة تناسب كل الأنماط الاستعارية الجديدة.



الاستعارات الرمزية

يمكن التمثيل لها بكفاية صانع الهاتف -مثلا- على تحويل الهاتف الصغير إلى ملتقى حافل بالإيقونات المستعارة، وهي تمثيلات مصغرة للأدوات المعروفة في الواقع العملي، مثل استعارة إيقونة (صورة مصغرة أو علامة) المنبه، وإيقونة القفل، وإيقونة آلة التصوير، وإيقونة سماعة الهاتف للاتصال، ومثلها لقطع الاتصال، وإيقونة المذياع، وإيقونة المصباح، وإيقونة الظرف البريدي، وإيقونة المذكّرة، والحقيبة للملفات، والميكروفون للمسجل؛ فالحياة الواقعية مستعارة بوساطة حياة صغيرة داخل الجهاز المستعمَل، والمستعمِل يستكشف ذلك بنفسه، فيوافق على هذه الأدوات الاستعارية لأنه يستطيع أن يفهمها ويؤولها حيثما وجدها.

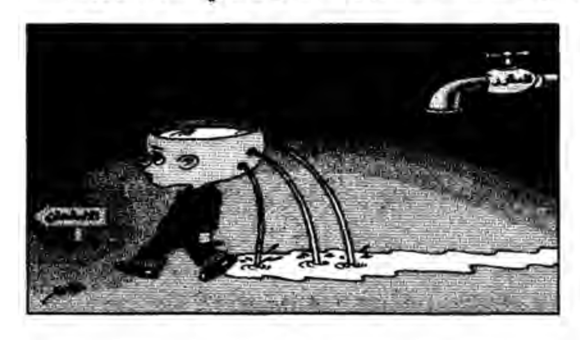
والأمر نفسه على صفحات المواقع الإلكترونية، وبرامج الحاسوب فقد تمت استعارة صور من أدوات الحياة ومؤثثاتها للتواصل، مثل إيقونة الكتاب لتحميل الكتب أو قراءتها، وإيقونة المقص للقطع، وصور الجدول لإدراج جدول، وصورة الصفحة لدخول صفحة بيضاء، والسلسلة لربط النص بملحقاته... إلى غير ذلك مما لا يدرك إلا بالاستكشاف والتجريب، ولذلك تفاوت الناس في العلم بالحاسوب لتفاوتهم في قراءة رموز المداخل التطبيقية والعملية المستعارة...

أصبحت الاستعارة اللغوية قرية صغيرة تكاد تكون مهجورة في عالم افتراضي عائم في الاستعارات، قائم على استعارة أدوات العالم المادي وبنائها تجريديا في صورة إيقونات تمكن من التواصل لتحقيق فوائد مادية ومعنوية. بل إن استعارة التمثيلات والإيقونات الممثلة للواقع الحي نجدها في نظام تشغيل السيارات، فعلى لوحة القيادة عدد من الاستعارات البصرية المعتمدة عالميا مثلما هو الأمر في الحاسوب والهاتف... بل في شوارعنا وفي واجهات المحلات التجارية، حيث أصبحت الاستعارات الرمزية لغة عالمية موحدة يلجأ إليها الجميع في تواصل صامت مع الأجهزة والأدوات والآلات التي صُممت لصالح الإنسان. واستطاعت أن تحقق تواصلا حقيقيا أكثر من أي لغة أخرى. ففي مِصعد فندق كبير مثلا يقصده أفراد جنسيات مختلفة ولغات متباينة، توحد الأرقام والإيقونات المستعارة بينهم، وتكون الاستعارة هي اللغة الكونية الناجعة للتفاهم بشأن هذه الرحلة القصيرة، وبدونها كانت ستتعطل، أو تدوم وقتا أطول.

تقوم الاستعارات البصرية على نقل رمز معروف في التداول بين الناس، سماعة الهاتف مثلا كانت رمزا لمحلات الاتصال ومخادع الهاتف، ثم أدرج في الهواتف المحمولة والحاسوب والسيارة والمصاعد وغيرها. وأما النوع الآخر من الاستعارات فهي القائمة على البناء الإبداعي كما في اللوحات الإشهارية، أو الإعلانات أو غيرها، حيث يستعير مصمم الصورة رمز زناد المسدس دواسة للسائق المسرع، فالذي يفرط في السرعة -مثلا- كأنما يضغط على زناد المسدس المصوب اتجاهه.



يقوم الفعل الاستعاري مهما وسَّعنا من مجال عمله البلاغي والحياتي والوجودي على مجال أول مستعار منه (موضوع أول) ومجال ثان مستعار له (موضوع ثان)، في حدود التناسبات الاستعارية التي يقبلها العقل بتنقيل نموذج رمزي من عالم حياتي إلى عالم تواصلي، ثم يصبح له معنى وامتداد في العالم الحياتي، فذلك هو الغرض من الاستعارة أي فهم المعاني الجديدة القائمة على حركة ذهنية لما يوجد من التناسب بين الموضوعين، ثم يتم نسجهما لخلق عالم ثالث أو منوال استعاري. وأنجح الاستعارات البصرية الرمزية أو الاستدعائية (التي تستدعي مشبها به لمشبه ماثل) هي ما سَهُل فهمُه وتَمثُّله وتأويلُه والانتفاع به. ولا فرق في هذا بين الاستعارة اللغوية والأنماط الاستعارية الأخرى التي أشرنا إليها.



الاستعارة الهندسية

كيف تنظم الاستعارات العالم الذي نعيش فيه؟ كيف تؤثثه بالتصاميم الهندسية؟ فنحن نحيا في شوارع مكوناتها مستعارة، ونستعمل خطابات معظم أدواتها استعارية، ونعيش حضارة تقنية متقدمة قائمة على الاستعارات الأداتية والمنوالية، ونقدم فيما يلي بعض المظاهر الاستعارية الحاضرة في حياتنا والتي تدعونا إلى التفاعل العميق معها، لأن اختيارات صانعها بنيت على جمالية استعارية قوية. ومن ذلك استعارة الموروث الأمازيغي في تصميم المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، فهندسة البناية انطلقت من وظيفة هذا المعهد وهي دراسة الثقافة الأمازيغية وحمايتها وتقوية وجودها، فكانت الهندسة الخارجية مستعارة من الثقافة الأمازيغية وتحديدا من شكل الحُلي المسمى "تَزْرْزيتْ" (الخلالة[1])، ليحصل التناسب الاستعاري بين المستعار منه والمستعار له، ويتحقق المعنى وجماله، والبناء وكماله.



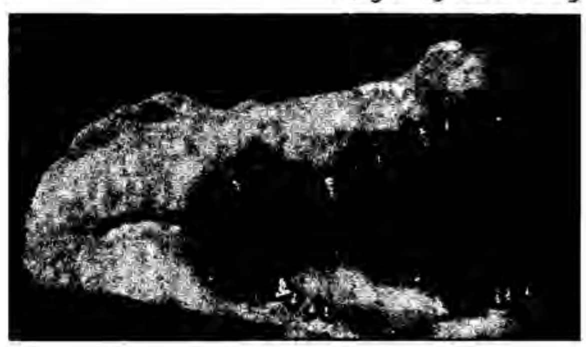
الاستعارة فعل إبداعي، وفي مجال التصميم هناك جانب علمي وجانب إبداعي، فهندسة الإشهارات وهندسة العمران قد يحصل فيهما التقليد والاستنساخ عند من لا قدرة له على التخييل، كما يحصل فيهما كذلك الاجتهاد والإبداع، ومن أدواته أو إمكانياته استعارة النماذج إذ إن "الشكل يتبع الوظيفة"[2]. وقد أثر

(1) وهي مشبك فضي يستعمل للتزين ومسك الرداء.

(2) Hernan Pablo Casakin, Metaphors in Design Problem Solving: Implications for Creativity in International, Journal of Design, Vol.1, No.2, 2007, p222.

هذا المبدأ الهندسي في المعمار الحديث؛ فالشكل الظاهري للبناية يكون مناسبا لوظيفتها أو ما أُنشئت من أجله، إلا أن هذا ليس عاما، لكنه ممكن ومحتمل، ويتطلب دراسة معمقة في مختبرات مدارس الهندسة لتصاميم المهندسين الجماليين.

تسمح الاستعارة الهندسية في حل مشاكل التصميمات المعمارية وتمكن من تطوير المجال المعماري، ومن تجاوز استعمال التصاميم الجاهزة والمتكررة. مثل تصميم باب حديقة تماسيح على شكل رأس تمساح عظيم. قد يكلف ذلك أموالا طائلة للمستثمرين، لكن البعد التجاري والإشهاري فضلا عن الجمالي يبرر كل تلك النفقات الزائدة لاستعارة المنوال.



خلاصات وامتدادات

1 - النظريات الاستعارية التقليدية عاجزة عن اقتحام العالم الاستعاري الافتراضي، لأن الحياة التواصلية قطعت أشواطا بعيدة في استعارية التواصل، مما يقتضي بناء بلاغة جديدة قادرة على ضبط هذه السيمياء الاستعارية الواسعة.

2 - تطوير نظرية الاستعارة بإخراجها من المستوى اللغوي والبلاغي الجملي الضيق إلى المستوى النصي أمر ممكن دون خسارات تُذكر، بل بغنائم ومكتسبات واجتهادات وبلاغات تأويلية جديدة، واستثمار أنوال القول التي أنضجت التجارب القولية السابقة. ومن ثمة يمكن لمحللي الخطاب مقاربة التجربة القولية في الشعر الصوفي التي استعارت المنوال الشعري الغزلي العفيف لقوة المحرك الشعوري والوجداني، أو مقاربة استعارة المنوال الصوفي في المجال المسرحي، والروائي، وفي التجارب الشعرية الجديدة، ودراسة استعارة الدفق الشعوري التصوفي للتعبير عن

ألوان أخرى من المعاني الرمزية للواقع كما تفضل أن تصوره بعض التجارب الشعرية المعاصرة الناجحة، وغير ذلك من الاستعارات المنوالية الكثيرة.

3- أما بخصوص بلاغة الاستعارة، فالحياة السيميائية التي نعيشها بكثافتها وغناها الرمزي تُظهر أننا نحيا بالاستعارات المنوالية في سائر مظاهر حياتنا اليومية، فلم تعد الاستعارة أمرا بلاغيا يعرفه الخبير باللغة أو البلاغة، ويتقفى ظهوره وأنواعه في القول الأدبي وكيفياته وأثره الجمالي، بل حقيقة وجودية كونية، حيث تتم استعارة الأمثال الشعبية في الإشهار، والمقاطع الموسيقية، والحكايات الشعبية، وكل ما تبين أنه يشكل مشتركا ثقافيا تتم استعارة أثره الجمالي والحمولة الشعورية التي يمكن أن يحدثها، وكذا قالبه الجمالي. والأمر نفسه في المجال الهندسي حيث نجد استعارة أشكال السفن، وقواقع البحر، والنخيل، في بناء المنازل أو المساجد أو الفنادق. وهي وإن كانت ذات طبيعة رمزية إلا أنها في الحقيقة الإنتاجية استعارة جمالية للقالب ومحموله. وفي صناعة الهواتف الحديثة، وصناعة السيارات، وفي الطبخ وعالم الأزياء، ورموز الشركات والمؤسسات العلمية والجمعيات والمنظمات والأحزاب السياسية، وكثير من المنتجات الاقتصادية والثقافية التي نستعملها في حياتنا اليومية، فهي استعارات من نماذج في الطبيعة أو الفكر أو العمران أو اللغة، أو التشكيل بصفة كلية أو مجزأة ثم مُركبة. بل ربما تجد المنوال الواحد يُستعار لصناعة خطابات جديدة كثيرة وبطرق شتى لقوته الإغرائية أو جاذبيته أو معرفة الناس به. وفي كثير من الصناعات تُستعار النماذج الناجحة أو تُسترق، وتصنع على منوالها نماذج مزورة.



4- كذلك حدث في قوالب الأدب ونماذجه العليا الأصلية، وبكثرة التنقيلات، وسوء التحويل، وانعدام الملكات والقابليات، أصبحت بيننا نماذج محرفة تحريفا كبيرا عن الأصل المنوالي الشعري مثلا، على مستوى التعبير واستثمار اللغة

والإيقاع وصدق الانفعال، فلما كثر الرديء عافه الناس وابتعدوا.. لكن كلما ظهر شاعر أصيل عاد بهم إلى الأصل في قوته وجاذبيته. وتلك هي سيرورة استعمال الأنوال القولية في مجال الكتابة وتطور الفنون التي لا يخلو منها زمان. وأنت لا تعدم أن تجد بين الكثير الرديء القليل الجيد الذي يحفظ تلقاء أو عن دراية أسس الأنوال القولية الأصلية التي تجعل منه قولا في مراقي الخطاب الجميل والسديد.

5-يدفع الواقع الاستعاري وما يتعلق به من صناعة الخطاب إلى بدء مشروع بلاغي جديد أو سميائيات عامة للاستعارة، تستفيد من النقد الأدبي، وعلوم الحاسوب، ونظريات الاستعارة القديمة والحديثة، وتتسع لكل مظاهر التحول الثقافي والجمالي التي تعرف تطورا طبيعيا في مجال التواصل البشري بأدواته العتيقة أو الرقمية المتطورة، وهو ما سيمكن تحليل الخطاب من الخروج من المستوى الجملي والعباري إلى المستوى النصي الكلي والثقافي الموسع، دون أن تجاوز أهمية الاستعارة اللغوية باعتبارها لبنة من لبنات القول البليغ.

الفصل الخامس

استعارات التسمية والأسلوب

تقديم

يحضر الفعل الاستعاري بقوة في صناعة المصنفات، فوراء خطاب الكِتاب وبنائه تاريخ من الأقوال والخلفيات المعرفية المستعارة، تتحول بفعل التملك إلى مادة مستعارة قابلة للإعارة. وأول المستعارات اللغة التي نكتب بها فهي مستمدة من اللسان العربي أو غيره، والأفكار المحال عليها موثقةً مستعارة؛ لأن ملكيتها ثابتة للغير في محلاتها من الكتب التي يمكن الرجوع إليها، وقد يتم توظيف استعارات بلاغية بنقل كلمات من استعمالاتها الأصلية أو الاستعارية إلى استعارات جديدة أو استعارات مضاعفة، والمفاهيم والمصطلحات مستعارة، وإن تم منحها أحيانا حمولة جديدة. فما الذي تبقى للكاتب ليس مستعارا؟

تبقى رؤيته للعالم، نسقه في التفكير، أو عدم رضاه عن تصورات سابقة، أسلوبه في العمل، طريقته في اقتحام مواضيع جديدة، أسلوبه في التمثيل والإقناع، بناؤه للمقترحات. وهكذا فالكتابة صناعة أدبية تستعير الأدوات واللغات والتصورات، جسر لغوي ومعرفي مستعار قابل للاستعمال من قبل الآخرين. وهذا ناموس التأليف لدى كل الكُتّاب كبارا وصغارا، مبتدئين وراسخين؛ فالكاتب في مجال الأدب، أو النقد، أو الفلسفة أو التاريخ أو أي تخصص آخر يستمد قوته من النوافذ المعرفية التي تنفتح أمامه تلقائيا على شكل تداعيات وبحوث مقصودة وتذكرات وترابطات...

كل بنية نصية تتضمن بنية تقابلية ظاهرة أو خفية يبلغها الفهم المتأني والتأويل البليغ، وقد تلبس تلك البنى لُبوسا استعاريا شاملا أو جزئيا وفق عدد الحالات التي يجنح فيها صانع الخطاب إلى استعارات مكنية أو تصريحية، وفاقية أو عنادية، أو

استعارات منوالية. وقد ذكرنا أن لغة أي خطاب هي لغة مستعارة من المعاجم، ومن المقروءات والمسموعات، أو من اللغات العامية غير المدونة، ولا أحد يستطيع التخلص من الاستعارة والتقابل إنهما نسقان موجودان بالقوة في بناء أي خطاب على تفاوت في الظهور ودرجة الحضور. وإنما يتميز الكاتب عن غيره بمقاصده، أي مجموع المعاني والنوايا الخاصة التي يود تقاسمها مع غيره، ثم طريقته في بناء القول، وإبداعيته في التصوير والمزج والتقديم والاستنساخ والتي تتحول مع التكرار إلى أسلوب خاص به، قابل بدوره أن يستعار من قِبل غيره، ويُمزج بأنوال استعارية أخرى، تصبح هي الأخرى نمطا أسلوبيا تمده الخبرة والذوق بميزات خاصة عند كل كاتب مبدع.

سنقدم في هذا الفصل نماذج للاستعارات المنوالية والثقافية والأسلوبية التي تدخل في بناء الخطابات، لاستشعار الفعل الاستعاري المنتشر بيننا، وهو ما يمكن أن يمد محلل الخطاب ببعض الحماس للإنصات لنبض الاستعارات في كل سلوكاتنا اليومية، وكل تفاعلاتنا مع العالم الخارجي.

استعارة البُنى العنوانية

استطاعت حركة التأليف العربية أن تضع مجموعة من الأنوال الثقافية لصناعة الكتاب، شكلا وأسلوبا، وأصبحت بعض أنواع الأدب القديم كالمقامة منوالا يستعار ويُعبَّر به عن قضايا وأفكار جديدة. كما استعيرت مناهج التأليف وأساليب التعبير؛ فالأنوال الناجحة غالبا ما تجد من يستعيرها ويعمل بها، ويضيف إليها في الشكل والنظام تطويرا لها وإغناءً، أو تقليصا وحذفا. وربما أساء إليها ودفع بها إلى الاندثار.

ومن مظاهر الفعل الاستعاري بعد إكمال تأليف الكتاب -أو موازاة لذلك- ما يمكن تسميته استعارة المعروفات الثمينة من أجل عنونة الكتب (زهرة الآس، اللؤلؤ المكنون، الكوكب الوقاد، الدرر الثمينة، العقد الفريد...)؛ ففي مثل هذه العناوين لا تفيد الاستعارة نقل كلمة من استعمالها الأصلي إلى استعمال جديد كما في الاستعارة اللغوية "ضحك المشيب"، حيث استعير الضحك للشيب، ولكننا

بصدد نمط آخر من التحقق الاستعاري البنائي، حيث يصبح تركيب "زهـــرة الآس" مستعارا لمستعار له هو الكتاب، فكأننا قلنا: الكتاب يشبه زهرة الآس، أو الكتـــاب يشبه الكوكب الوقاد. وفضلا عن وظيفة التسمية هناك وظيفة الدلالـــة، فاختيـــار "الكوكب الوقاد" خضع لشرط الملاءمة مع موضوع الكتاب، وهذا الأمـــر مـــثير للانتباه في استراتيجيات العنونة قديما وحديثا، وهو ما أعطى لكثير مـــن العنـــاوين صفات الجاذبية والقوة الصناعية، والجمالية الإيقاعية[1]، لأن هذه الأسامي تُتَـــداول بين المعنيين بالكتب، وسرعان ما تنسى أصول التسميات (المشبه به) زهـــرة الآس: الزهرة الأصلية المعروفة، ويصبح الكتاب هو زهرة الآس، في تداول الكتاب وطلبه.

تحولت استعارة البنيات التصورية القائمة في الأذهـــان وفي العـــرف مثـــل: "الكوكب الوقاد" أو "العقد المذهب" أو "بستان الواعظين ورياض الســـامعين" أو "البدر الطالع"، أو "مفتاح العلوم" أو "عروس الأفراح في شرح المفتاح" أو" ميزان الذهب"[2]... الخ إلى تقليد في العنونة، أو منوال استعاري قوي في تسمية الكتب، وفي إثارة الانتباه إليها، حيث يصبح الإيقاع القائم على السجع، وتوازي البنيـــات اللغوية، أداة لإشهار الكتاب وتسريع تداوله. وغالبا ما يتحكم موضوع الكتـــاب في اختيار التركيب المستعار؛ فالحديث مثلا عن ابن حبان، ناسبه موسيقيا تركيب "موارد الظمآن"، وتركيب "عمدة الأحكام" ناسبه استعاريا وإيقاعيـــا تركيـــب "كشف اللثام"، وشرح جامع الترمذي ناسبه "النفح الشذي"[3]. والتأليف عـــن "الإسراء والمعراج"[4] ناسبه استعاريا وإيقاعيا "السِّراج الوهاج"؛ فالعنونـــة عنـــد

---

(1) انظر للتوسع: محمد بازي، **العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسارات التأويـــل**، الدار العربية للعلوم/بيروت، ومنشورات الاختلاف/الجزائر، ودار الأمان/الرباط، 2011.

(2) الهاشمي أحمد، **ميزان الذهب في صناعة شعر العرب**، تحقيق: أنس بديوي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

(3) محمد اليعمري الربعي، **شرح الترمذي، النفح الشذي شرح جامع الترمذي**، تحقيـــق: أبو جابر الأنصاري، عبد العزيز أبو رحلة، صالح اللحام، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط الأولى، 2007.

(4) حمود التويجري، **السراج الوهاج لمحو أباطيل الشلبـــي عن الإسراء والمعراج**، مكتبة المعارف، الرياض، 1985.

القدماء كما عند المحدثين صناعة استعارية دقيقة، يحضر فيها الذوق والإيقاع وقوة التخيل، ومبدأ الانسجام والملاءمة والدقة والاختصار والجاذبية والإثارة الإيقاعية، وهو ما يعكس نضجا صناعيا كبيرا في هذا الجانب. ومن يقرأ عناوين المؤلفات القديمة يثيره بناؤها التركيبي المحكم وقوتها البيانية والاستعارية. ومن العناوين التي تتلألأ فيها الاستعارات: "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"[(5)] و"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"[(6)] و"الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري"[(7)] و"العقد الفريد"[(8)] و"الروضة الندية شرح متن الجزرية"[(9)] و"ضعيف موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان"[(10)] وغيرها.

نجح هذا المنوال الاستعاري في عنونة الكتب القديمة وشاع بين الكُتاب، بل أصبح منوالا مستعارا مشتركا للعنونة والتسمية يعمل به الكتاب والمصنفون والشراح، بل من المحدثين من عاد إلى هذا المنوال الصناعي في عنونة الكتب لما له من قوة وجاذبية، مثل "تغليظ الملام على المتسرعين إلى الفتيا وتغيير الأحكام"[(11)] و"مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه"[(12)]، وغير ذلك كثير؛ مما يستدعي مقاربة استعارية موسعة للعناوين القديمة،

---

(5) المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت).

(6) يوسف بن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

(7) شمس الدين الكرماني، **الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط2، 1981.

(8) ابن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1404هـ.

(9) محمود بن محمد العبد، **الروضة الندية شرح متن الجزرية**، صححه وعلق عليه: السادات السيد منصور أحمد، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط1، 2001.

(10) ناصر الدين الألباني، **ضعيف موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط الأولى، 2002.

(11) حمود التويجري، **تغليظ الملام على المتسرعين إلى الفتيا وتغيير الأحكام**، دار الصميعي الرياض، الطبعة الأولى، 1992.

(12) محمد آدم الإتيوبي، **مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه**، دار المغني/الرياض، الطبعة الأولى، 2006.

وهذا من الآفاق التطبيقية والعملية التي يفتحها المنظور الاستعاري لتحليل الخطاب، وهي تقوم في البُنى العنوانية على **النسخ من مجال مصدر إلى مجال هدف**، دون أن تعني الاستعارة الأسلوب اللغوي القائم على الاستبدال، وإنما الفعل التمثلي للتعبير عن الأشياء بوساطة استعارة تصورية لا شعورية تلقائية تعمل ضمن النسق اللغوي[13].

استعارة الألقاب

من التحققات الاستعارية الجارية بيننا استعارة التسمية؛ فإذا تأملنا أسامي الناس وكُنَاهُم وجدنا عجبا عجابا في التلقيب، إذ تتم استعارة أسامي الحيوان والنبات والسمك وأحوال الطقس للأشخاص... وهي في جوهرها استعارات لألفاظ من مجالها الاستعمالي الأصلي إلى لقب يلازم المستعار له طوال حياته، بل يمضي في عقبه، إنها استعارات قائمة على التشابه بين الاسم والمسمى به خَلْقا أو طبعا. وقد تكون مجرد استعارة إلصاقية لا أهمية للتشابه فيها... وإن نظرة بسيطة على لائحة بأسماء الطلاب في بلد عربي، أو لوائح انتخابية تدعونا إلى التساؤل عن سر الطاقة الاستعارية المبهرة التي يتمتع بها الإنسان العربي في علاقته مع بني جلدته وقبيلته، إذ تكثر التسميات القادحة بسبب من النعرات أو الخصامات والأحقاد... وتظل لصيقة بالمستعار له تشعره كل مرة بتاريخ من العلاقات غير السوية، ومن نتائج ذلك لوائح اسمية غريبة بأوصاف القدح محملة بالحقد والغبن والعداء والازدراء[14].

تحفل الثقافة العربية القديمة باستعارة الألقاب المدحية أو القدحية، ومن أكثر الألقاب دلالة على الاستنساخ الاستعاري ما قام على المشابهة ومن ذلك: "بُحتري

---

(13) انظر: النظرية المعاصرة للاستعارة، جورج لا يكوف/تر: محمد الأمين مومين، ضمن الاستعارة والمعرفة، مؤلف جماعي، عبد المجيد جحفة وخليد برادة، مختبر اللسانيات والتواصل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 2011، ص84.

(14) يحتاج هذا إلى دراسة اجتماعية ونفسية لبيان تنوع المكونات الثقافية الاستعارية وأثرها على البنى النفسية للأشخاص وأوضاعهم الاجتماعية.

الغرب"، و"جالينوس العرب"، و"خليفة الزمخشري"، و"دعبل الأندلس"... ومن الألقاب المستعارة ما يدل على التعظيم مثل "حجة الإسلام"، و"درة العراق"، و"فريد العصر"، و"تاج الأئمة"، و"شيخ الشيوخ"... ومنها ما يدل على القدح مثل: "الحطيئة"، و"تمساح الجن"، و"غراب البين"، و"الجرو".. ومن الرجال من استعير له اسم حسب منصبه مثل "المعز لدين الله"، و"المعتصم بالله"، و"بهاء الدولة"، و"سيف الدولة"، و"نظام الملك"[15]...

يبين **معجم الألقاب والأسماء المستعارة في التاريخ الإسلامي والعربي** الاستعارات الحادثة في تلقيب الأدباء والقضاة والنحويين والشعراء[16] والأمراء، والفلاسفة والمفكرين، والسياسيين والعمال، والوزراء؛ مما يشير إلى نشاط استعاري قوي في التسمية والتلقيب يستدعي قراءة كاملة لتاريخ ممتد من العلاقات الإنسانية، بدءا من الجاهلية إلى منتصف القرن العشرين، ويتضمن أزيد من ثلاثة آلاف اسم مستعار، جمعها الباحث من المعاجم والموسوعات وكتب الأخبار والتراجم.

الاستعارة الاسمية دليل آخر أن ما ندعوه استعارات لفظية يظل جزءا بسيطا من نشاط استعاري إنساني تصطبغ به حياتنا، وبالأخص في المجال الفني حيث تتم استعارة أسماء الشهرة الفنية، وفي مجال التجسس والتنكر وغيرهما.. وكل فرع من هذه الفروع يحتاج دراسة مستقلة لبيان حقائق النشاط الاستعاري وخلفياته وأدواته ووظائفه وبلاغته، وحسبُ هذه المقدمات التأسيسية أن تنبه الباحثين إليه.

---

(15) فؤاد صالح السيد، **معجم الألقاب والأسماء المستعارة في التاريخ العربي والإسلامي**، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1990، ص13.

(16) استعارة الألقاب معروفة في التاريخ العربي، وشملت الرجال والنساء والأدوات والحيوان، وقلما نجد شاعرا لم يُستعر له لقب. وألفت في ذلك كتب منها: "ألقاب الشعراء" لمحمد بن السائب الكلبي، و"ألقاب الشعراء" للحسن الزيادي، و"ألقاب الشعراء" لمحمد بن حبيب. وكتاب "من قال بيتا فلقب به" للسكري. وكتاب "المذاكرة في ألقاب الشعراء" للنشابي، وكتاب "الكنى والألقاب" لعباس القمي، وغيرها.

تروج في المجال الإعلامي استعارات لأسماء المعارك، وهي تخفي كل ألوان القتل والجبروت الإنساني وطغيان بني البشر، والتاريخ الحربي الحديث مليء بحروب عُرفت باستعارات مثل: أم المعارك (عراقية) وعاصفة الصحراء (قوى التحالف ضد العراق)، أو حقل الأشواك (إسرائيلية)، عناقيد الغضب (إسرائيلية)، ثعلب الصحراء (حرب الخليج...). وهذا ما سماه **لايكوف** الاستعارات التي تقتل متحدثا عن حرب الخليج[17]، فأمريكا لم تدخل الحرب العراقية بالأسلحة المتطورة فقط بل بسلاح الاستعارات كذلك، ومما انشغل هذا الباحث بتحليله بعض استعارات الخبراء العسكريين مثل: "السياسة تقام بوسائل أخرى" واستعارة "السياسة صفقة"، ووقف عند إدماج المخاوف الاقتصادية لإقناع الأمريكيين بدخول الحرب، كما لجأ إلى استعمال المعادِلات القصصية مركزا على مفاهيم: "الضحية" و"النصر" و"الإنقاذ" و"البطل"، مبينا حجم الدمار الذي لحق بلدا كاملا نتيجة اعتبار الشخص الواحد -أي الرئيس- أمة، فتم قتل آلاف الأبرياء نتيجة اقتناع المتلقي الغربي بهذه الاستعارات.

لقد ادعت الإدارة الأمريكية وقتئذ أن القائد العراقي السابق يقف في وجه الاقتصاد الأمريكي واستطاعت أن تقنع رعاياها بذلك. وقد استعان الباحث في مقاربته الاستعارية بلعبة المقامرة وقوانين الربح والخسارة الاقتصادية، واستعارة الحرب بوصفها عملية طبية أو جراحية تزيل الضرر، وكلها استعارات مغلّطة قادت في النهاية إلى إبادة بلد كامل... فماذا ربحت أمريكا في النهاية من وراء الحرب؟ يجيب الباحث بأن تكلُفة الحرب التي قامت على الاستعارات المميتة لا تقدر بالأسلحة والمال، وإنما صدمة العائلات والمجتمعات، والمخلفات النفسية، والمشاكل الصحية، والعاهات المستديمة، وتضييع المال في الحرب بدل صرفه في

(17) نحيل القارئ المهتم على كتاب لا يكوف جورج، حرب الخليج أو الاستعارات التي تقتل، تر: عبد المجيد جحفة وعبد الإله سليم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 2005. وكان لا يكوف قد تابع بداية شن الحرب على العراق بمقالات نشرها على الإنترنت لبيان الاستعارات التي تبرر بها أمريكا دخول العراق حربيا.

مجالات حيوية. إن الاستعارات المدعومة بالقنابل تقتل بالفعل. نستحضر مقابل هذا استعارة واحدة لها دلالة قوية واشتهرت إعلاميا، وهي استعارة ثقافية: رمي المخاطَب بالنعل تحقيرا له، حيث قُذف الرئيس الأمريكي في وجهه وهو يخطب بحذاء أحد العراقيين الحاضرين للتعبير عن احتقاره وغضبه مما فعلته القوى الأجنبية بالعراق، أو استعارة المثل الشعبي تثبيتا للعزائم: "من الأفضل أن تكون ديكا ليوم واحد على أن تكون دجاجة سنة كاملة". وبالجملة فالإنسان لا يستعمل الأدوات والتخطيط لبلوغ أهدافه، وإنما يوظف كذلك خطاب الاستعارات في سِلمه وحربه معا.

الاستعارة الإشهارية

يعرف زمننا ثورة استعارية كبيرة شملت كل مناحي الحياة، بما في ذلك استعارة الصور، واستعارة الحركة، وبالأخص في المجال السينمائي، ومجال الإشهار،... ومنذ أن ظهر الإشهار التلفزي أصبحت الدعاية للمواد التجارية تتم باستعارة الحركة القوية أو الصوت القوي من الموج مثلا أو الحيوانات... فقوة التموج والفوران في مسحوق للغسيل تستعار له صورة الموجة القوية الفوارة، مما يقرب خصيصة الفوران والقوة للمشاهد. مقابل ذلك تتم استعارة صورة الثلج للمشروبات الباردة، مما يُشْعِر المشاهد بالإحساس بالبرودة والانتعاش، فترتبط المادة الاستهلاكية موضوع الإشهار في ذاكرته بالبرودة المطلوبة في يوم قائظ. وقد تستعار للرائحة الطيبة صورة حديقة مزهرة فواحة، وتستعار صورة الأسد للتعبير عن قوة البطارية أو السيارة، وغير ذلك مما يكشف أن نظرية الاستعارة التقليدية لم تعد قادرة على استيعاب الثورة الاستعارية في مجال الصورة المتحركة القائمة على الإدماج والتركيب وفق الأثر المراد إحداثه عند المشاهد.

لم تعد الاستعارة كلمة أو معنى يُستعار، بل تستعار الصور، والتصورات المبنية الجاهزة عند الناس، والمقولات، والبنيات الذهنية، والمسلمات الاجتماعية، والاعتقادات الراسخة، والألوان، والحركات، والإيحاءات، والعلامات. وقد انتشرت في زمننا استعارة أسماء الفُرق الرياضية مثل: "أسود الأطلس"، "الفيلة

الجامحة"، "الأسود المروضة"... واستعارة أسماء الفنادق والمقاهي، مما يدل على حركة إبداعية استعارية ذات أهداف تجارية ورياضية... ومن ذلك ما يوضع للمرْكبات والحافلات من أسماء مستعارة لا نلتفت إليها في مقارباتنا الاستعارية مثل" صقر الجنوب"، "سفينة الصحراء"... ولا شك أن عملية المزج الذهني قوية ومغرية بين الصقر والحافلة الأنيقة، وبين السفينة والحافلة التي تقطع بسرعة طرقا صحراوية طويلة، مما يحقق منطقا تناسبيا قويا عند كل من يرغب في السفر، فضلا عن الصور الموحية بالقوة والعظمة التي تُرسم على هذه الآلات.

استعارة الحلم والواقع

لا تقتصر عمليات الاستعارة على مجموع الأفعال الواعية التي نقوم بها كل لحظة، وإنما تشمل كذلك الاستعارات اللاواعية التي يقوم بها العقل الباطني أثناء النوم، ونراها في المنام، وبالأخص ما تعلق بالرؤيا حيث تحضر الاستعارات الرمزية: استعارة المطر، أو الرياح، أو المصباح، أو الحمام، أو البحر الهائج، أو أفعال مثل الطيران أو الهرب، أو الضحك... وغير ذلك من الأحوال التي يكون عليها الإنسان وتحضر في الرؤيا على شكل خطاب استعاري رمزي في حاجة إلى فهم وتأويل. ويعتمد تأويل الرؤى والأحلام على هذه الاستعارات التي قام بها العقل الباطني[18]، وبقيت منه سلاسل رمزية مترابطة كاملة الوضوح، أو غامضة، أو مبتورة وفي حاجة إلى تنظيم وتأويل.

وفي مجال التحليل النفسي أصبح التمثيل الاستعاري استراتيجية معرفية لتصميم الأفكار، وتجريد الوضعيات المشكلة، وصياغتها بأمثلة تقريبية تمكن من فهمها، وتساعد على حلها. ومن ثمة فهي تُعتمد في العلاج النفسي، باعتبارها لغة اللاوعي، حيث يسمح التجريد الاستعاري بحل بعض المشكلات النفسية وذلك

(18) انظر للتوسع: **الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم** لعلي زيعور، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1984. حيث حاول المؤلف تأويل الرموز المستعارة في الكرامات الصوفية (الحصان، العصا، الزعفران، الحجر، الطلل، الظبي...)، استنادا إلى التحليل النفسي في محاولة للكشف عن الجانب اللاواعي في الذات العربية.

بتقريبها لصاحبها استعاريا عبر مفاهيم لها علاقة بمشكلته، فهي تنحل وفق الطاقة التعميمية والتجريدية التي تقوم بها الاستعارة.

استعارة أنوال التأليف وأساليبه

الكتابة صناعة استعارية بالمعنى الواسع للاستعارة، إن ما علق بنفوسنا من أحوال وتأثرات وتجارب، ومقروءات، وأساليب، ومواقف يصبح مادة أولية تصنع وفق منوال جديد. الخطاب المكتوب أو الشفوي نسيج استعاري تؤلف خيوطه بنى ذهنية متآلفة، تتجاذب وتتداعى لحظة إنشاء الخطاب، إنها بمثابة طبقات من المواد القديمة والجديدة التي تعمقت في الوجدان والفكر، وكان لها تأثير محسوس أو غير محسوس، ومن الصعب أن ينتبه إليها صانع الخطاب نفسه، لأنها تصدر أحيانا عن أصداء بعيدة ترسبت في الذاكرة منذ عقود، وتظل قابعة هناك حتى يستدعيها بناء الخطاب وما يتعلق به من حاجيات راهنة وأحوال ودواع وظرفيات.

نقدم هنا – تمثيلا – رأي كاتب عربي معروف، يوضح البُنى النفسية والمعرفية التي لها أثر في الكتابة. قال: "ما مِنَّا إلا من تأثر بغيره وأثر في غيره، والدنيا أخذ وعطاء، وما مثالنا إلا كتاجر فتح دكانه على طريق القوافل يوم كانت التجارة مقايضة ومبادلة، ولم تكن وُجدت نقود: يمر به المسافرون دائما، وكلما مر به أحد أخذ منه سلعة وأعطاه بدلها سلعة أخرى، ولبث على ذلك أكثر من خمسين سنة فاجتمعت عنده مئات من الأشياء من كل صنف، وكل لون، فهل ترونه يعرف كل شيء منها ممن أخذه والذي أعطاه بدلا منه؟ هذا مثالي ومثال من كانت حاله كحالي؛ ما قرأت كتابا، ولا جالست عالما ولا أديبا، ولا سمعت خبرا، ولا رأيت سرورا ولا كدرا، ولا نزلت بلدا ولا قابلت أحدا، إلا ترك في نفسي أثرا"[19]. يتأثر الكتّاب المحدثون بالأدباء الناجحين ممن سبقهم أو عاصرهم، فيستعيرون أساليبهم في الكتابة، تحت مسمى التقليد، أو الاحتذاء إلى أن تكتمل قدراتهم، ويظهر تميزهم، فتستعار طريقة التعبير وطريقة التفكير والبناء الجملي

(19) علي الطنطاوي، **ذكريات علي الطنطاوي**، مراجعة مجاهد مأمون ديرانية، دار المنارة جدة، ط5، 2006، ج5، ص59.

وفضاءات التخييل، مثلما تستعار أساليب الرسم والخط والمسرح والغناء، واللباس والكلام ونظام العيش والتفكير؛ فالاستعارة ظاهرة إنسانية كونية جوالة قائمة على الحاجة إلى السند، والحاجة إلى متكإ منوالي. ومرجع هذا الإعجاب بكبار الكتاب مثلما عبر عن ذلك علي الطنطاوي في إعجابه بأسلوب الرافعي: "إلى الأستاذ الرافعي: أعرني يا سيدي هذا القلم السحري الذي تكتب به لأصف لك الشعور الذي خامرني وإخواني حين قرأنا فصلك الأخير" قصة زواج" فما أدري والله كيف أصفه لك"[(20)]. لا يسلم أي كاتب إذًا من التأثر بغيره، بل والاستعارة غير الظاهرة من أسلوبه، ومواقفه، ونظرته للحياة.. وقد بينا أن الكتابة هي مجموع الاستعارات الظاهرة والخفية بالمعنى الأصلي للاستعارة، قبل أن تلتحم قرونا بالاستعارة التصويرية اللغوية، ثم بالاستعارة التصورية بالمنظور الحديث.

يتألف الخطاب الفكري الفلسفي عند طه عبد الرحمان -على سبيل التمثيل- من سلسلة من الاستعارات المصرح بها وغير المصرح بها؛ فالأولى تبرز في مجموع الإحالات التي يشير إليها على شكل مقتطفات قولية، أو استشهادات من النص القرآني أو الحديث النبوي، ومن المفكرين العرب وغير العرب- مثلما هو الأمر في كل الأبحاث العلمية- وهي قوة استعارية يلجأ إليها أي بان للخطاب، ومجموع المستعارات تستعمل لغاية وجيهة (الحجاج، المقارنة، البيان...) ثم تؤوب إلى أصلها لتصبح قابلة للاستعارة من قبل آخرين لأنها من المشتركات. وكل عمل تأليفي اكتملت صناعته دخل باب القابلية للتشارك والتقاسم والتعاور.

وأما النمط الثاني من الاستعارات فهي مضمرة وتحتاج إلى كشف وتتبع لأنها أصبحت بنية منصهرة بين مكونات الخطاب، بل جزءا من نموذج تفكير المؤلف مثل: المقولات المنطقية، والتحليل المنطقي المتجذر في التحليل، والروح الصوفية وهي البنية الماورائية التي تطفو آثارها على سطح الخطاب، والنزعة الإسلامية المسددة القاصدة إلى تطويع الفكر والعلم والفلسفة والكتابة وفق المنوال الإسلامي، ولقد بلغ ذلك بكل اقتدار، مما يجعله منوالا فكريا فلسفيا تتصادى فيه الاستعارات

---

(20) علي الطنطاوي، **فصول في الثقافة والأدب**، دار المنارة للتوزيع والنشر، 2007، ص241.

الصناعية البانية للخطاب بلغة اصطلاحية قوية تتشكل منهجيا لتحتوي المفاهيم الجديدة، ولتبلغ بالأفكار مستوى عاليا من المقولية والتجريدية والمقبولية.

ومن يتأمل كتاب "تحليل الخطاب الشعري" لمحمد مفتاح مثلا، سيجد استعارات معلنة موثقة: أقوال النقاد، وتصوراتهم الشكلانية أو اللسانية أو السيميائية، أو البلاغية، وأخرى من النقد العربي القديم والبلاغة والعروض. هذه الاستعارات ذات المرجعيات المعرفية المتباينة هي ما ينسج الخطاب النقدي والتأويلي، كما نجد استعارات أخرى مضمرة لا يكتشفها إلا المطلع على نظريات النقد الغربية، وتوظف باعتبارها بنية معرفية منصهرة مع اهتمامات المؤلف، مثل الأفكار الأدبية، والمقولات النقدية، والمعاني الشائعة، والمفاهيم المشتركة. وقس على ذلك سائر أعماله فإن خطابه فيها مزيج من مواد المخزونات الذهنية والمعلومات القبلية، ثم المعارف المستعارة في الزمن القريب من مؤلفات ونصوص وأقوال واستشهادات، وأطاريح، ونظريات ومفاهيم، والتي يرجى منها دعم الخطاب وتقوية مقترحاته، أو إغناؤها وتطعيمها أو نقضها. ومن إواليات الاستعارة النقدية نذكر: الاستعارة بالحذف، الاستعارة بالتوليف، الاستعارة بالتوسيع، الاستعارة الصناعية (النحت)، استعارة روح المفاهيم، استعارة الأسلوب، وغير ذلك.

استعارات الفلاسفة

ليس للاستعارة وطن معرفي تعيش فيه، فهي أداة جوالة للتعبير وتصوير الحقائق، وإثارة الإشكاليات الفلسفية الكبرى وبسط التصورات. ولذلك ظلت جزءا من خطاب الفلاسفة ومفاهيمهم ومقولاتهم ومحاججاتهم وتمثيلاتهم، وقد تنبهوا إلى أنها معطى لا يمكن التخلص منه في التأليف الفلسفي، فاستعملوا الاستعارات اللغوية والتمثيلية والقصصية، ومن ثمت حملت الكلمات معانيَ فلسفيةً مثل "الجوهر"، و"العرض"، و"النوع" و"الجنس"، واستعيرت "الأم الحاضنة" للهيولى. وهذا ما كان موضوع مقاربة موسعة قام بها توفيق فائزي متتبعا مواقف الفلاسفة من الاستعمال الاستعاري، ومؤكدا أن" لا غنى للفلسفة عن النقل

والاستعارة، ولكنه نقل واستعارة لا وظيفة لهما سوى توفير غش للمعاني الفلسفية"[21]. وقد اعتبر ابن سينا الاستعارة غِشا يُنتفع به، كما تُغش الأطعمة بأن تخلط معها توابل مطيبة ليروج أنها طيبة في نفسها[22]. لكن الاستعمال الاستعاري في الخطاب الفلسفي له ضوابط موجهة مثل الاعتدال والتناسب وألا يكون غريبا أو بعيدا[23]. ولعل من أهم ما انتهى إليه الباحث بعد جولانه بين نظريات الاستعارة عند الفلاسفة والبلاغيين القدامى والمحدثين أن الاستعارة الفكرية المخترعة هي القادرة على توليد المعاني الفلسفية الجديدة، وأن العبارة الاستعارية كالعبارة المفهومية في تكوين المعاني، فتغيير اللفظ لا يغير الحقائق والماهيات[24]. وإن بحثا بهذا العمق والتدقيق يكشف جانبا ظل غير مطروق من البناء الفلسفي وتحديدا طريقة تقديم المفاهيم ووضع الاصطلاحات الفلسفية. وهو ما يعزز مشروع تحليل البنى الاستعارية في الخطاب التاريخي، والخطاب الديني، والخطاب النقدي، وغير ذلك.

الاستعارة في بناء العلوم

لا تقتصر الاستعارة على المجالات التي ذكرنا، بل هي جزء من البناء العلمي القائم على المقايسة عبر تقدير التشابه بين موضوع أول وموضوع ثان، والقياس هو منطلق الفعل الاستعاري[25]، فهو الخريطة المعرفية التي تسمح لنا بالانتقال من مجال إلى آخر. يمكن -مثلا- اعتبار "الأرض بيضوية الشكل" استعارة علمية تجمع بين صورة الأقمار الاصطناعية وشكل البيضة الإهليليجي، وهو نوع من القياس

(21) توفيق فائزي، **الاستعارة والنص الفلسفي**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2016، ص113.

(22) نفسه، ص125.

(23) نفسه، ص126.

(24) ما سبق، ص ص508 -514. وقد ذكرنا ذلك ببعض التفصيل عند استعراض أطروحة "الفلسفة في الجسد".

(25) Dedre Gentner and Michael Jeziorski, The shift from metaphor to analogy in Western science, in Metaphor and thought, Ortony, New York, Cambridge University Press, 1991, p448.

الاستعاري، بل اعتبرت البيضة استعارة للعالم لاحتوائها على العناصر الأربعة مثل العالم[26]، الرطب واليابس والساخن والبارد، فالنار ساخنة وجافة، والماء بارد ورطب، والأرض باردة ويابسة، والهواء ساخن ورطب. فأصفر البيض والدُّهن يقابل الكبريت والنار، والأبيض يقابل الماء، والتشابه في البرودة واليبوسة حاصل بين المتقابلين الأرض والبيضة. والجزء الفارغ من البيضة يقابل الهواء، والقشرة تقابل التراب. فضلا عن قابلية البيضة للذكورة والأنوثة التي يقوم عليها نظام الكون. يلجأ الكيميائيون إلى استعارة البيضة للدلالة على بداية الحياة، وكأن الحياة بيضة مستعارة والبيضة دنيا مصغرة. وفي نظرية **داروين** أساس مجازي وهو الشجرة المتفرعة الأغصان، وصراع الأنواع، أو الانتخاب الطبيعي[27]، فلا صراع هناك ولا انتخاب بالمعنى الحرفي. ومثل هذا كثير في لغة العلم وتعليم العلوم، حيث تقوم الاستعارات الشاملة والجزئية بدور حاسم في اللغة العلمية وفي صناعة المفاهيم.

الاستعارات السياسية

في الحياة السياسية تستعير الأحزاب السياسية موادها الدعائية من اهتمامات المواطنين، وتُستنسخ أثناء الحملات الانتخابية المناويل الاقتصادية والاجتماعية والتوجهات الناجحة تبعا لحاجيات المجتمعات وتباين انشغالات الطبقات الاجتماعية، بل تُستعار الأنظمة الدولية، والقوانين المعمول بها في المجال المالي والاقتصادي والقضائي، وفي تدبير الشؤون العامة والمؤسسات. وفي مجال الحياة الخاصة للأفراد والأسر تستعار مناويل الحياة تبعا لقوة التأثير، والرغبة في التبديل واحتذاء ما يبدو أنه الأرقى والأنقى، وفي اللباس والسلوك ونمط العيش وغير ذلك مما لا يتسع المجال لبسطه كاملا؛ مما يعني أن استعارة الأنوال هي الناموس الذي يحرك عالم المعارف والفنون والاصطلاحات والمفاهيم والنظريات، بل إن الحياة دورة لصناعة الأنوال وتسويقها، وانتقالها وتجديدها. ومن ذلك استعارات الرموز

(26) Ibid, p465.

(27) أمسترونغ، م.م، ص101.

في المظاهرات، والشعارات، والأقوال لتعزيز موقف سياسي، أو اجتماعي، ودعم الخطاب بما يجانسه من الاستعارات، وللجماهير طاقة كبيرة على بناء خطاب استعاري صامت أحيانا وصاخب أخرى.

لم تعد الاستعارات المنوالية مجرد أخذ من أجل الفائدة ثم الإرجاع، بل بابا مشرعا على كل ألوان الاستعمال والتوظيف والتنقيل، والتغيير والتطبيق بل المحو والتناسي والإنهاك، ومسح أثر المنوال الأم، ولعل أفضل الاستعارات تبعا لهذا الأفق التصوري هي "تلك التي تُظهِر الثقافة وهي تتحرك"[28]. وهكذا، فإن إخراج الاستعارات من مستواها البلاغي باعتبارها مشابَهات مختصرة، أو حلية للمعاني، وربما وسيلة للمعرفة يقتضي وضعها في حركية الثقافة الموسعة التي تتبع الاستعارات المنوالية الناجحة، والاستعارات الفاشلة للمناويل، والاستعارات المنطفئة التي لم تحقق قدرا محترما من الأثر والتوهج داخل سياق التحولات الأدبية أو الصناعية.

استعارة الأشكال

مما يدخل في الاستعارات المنوالية الظاهرة والخفية ما نلحظه في تصميم أغلفة الكُتب، حيث يستعير المصممون مواد الغلاف من نماذج كثيرة يوفرها الحاسوب أو شبكة النت، أو يبدعون في تصميمها، وتُستعار مواد الأغلفة على وجه الغلاف من لوحات الفن التشكيلي الجاهزة، أو يتم التنسيق مع الرسامين والتشكيليين لوضع لوحات مناسبة لمحتوى الكتاب، كما تستعار لظهر الغلاف أقوال تُقْتطف من كُتب أخرى أو حوارات، وتكون لها وظيفة تسويق الكتاب أو الدعاية. وهذا النمط من الاستعارة معمول به في تصميم الجرائد والمجلات، وسائر الأعمال الفنية، وفي اللوحات الإشهارية التي نراها على جنبات الطريق وفي البطاقات السياحية، وغيرها. بل إن المنظور المنوالي الموسع للاستعارة سيفسح لنا المجال لتأويل المظاهر الاستعارية الكثيرة في حياتنا، والتي كنا ننظر إليها على أنها أدوات أو آلات صماء مثل الشطرنج، فهو ليس لعبة أو مجرد فن أو علم، إنه استعارة كلية لما يجري في

---

(28) أ. إيكو، **السيميائية وفلسفة اللغة**، تر: أحمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2005، ص266.

العالم لعبا وفنا واستراتيجيات، بل هو استعارة الاستعارات، حيث تتحول الأفكار والعلامات والأقوال والأحاسيس إلى أدوات لعب[29]. يقوم الشطرنج في الأصل على الحوار بين عقلين واعيين بأهداف متعارضة، وخطط متواجهة. هذا ما حاول مؤلف"استعارات الشطرنج" Chess Metaphors أن يصل إليه انطلاقا من هذه اللعبة لمقاربة الطريقة التي يعمل بها الذهن البشري مستأنسا بالعلوم المعرفية (علم النفس، والذكاء الاصطناعي، والنوروبيولجيا، وفلسفة الذهن..) وهي علوم تسعى إلى معرفة الكيفية التي يعمل بها الدماغ، وحدود إمكانية جعل الآلات تقوم بما يقوم به الإنسان من أنشطة.

خلاصات وامتدادات

1 – انتبه **إيكو** إلى أن آلاف الصفحات التي كُتِبت عن الاستعارة قليلٌ منها يضيف شيئا جديدا إلى ما وصف به أرسطو الاستعارة بكونها حيلة تمكن من الحديث مجازيا[30]. ثم دعا إلى توسيع مجالها مشيرا إلى استعارات شمية وأخرى موسيقية يمكن تفسيرها بالإحالة على تجارب بصرية، سمعية، لمسية وشمية[31]. لكن مقترحه لم يُجْدِ كثيرا في تقديم ما يُجاوز الأطر المعروفة للاستعارة. وهو ما دعانا إلى محاولة تقديم بعض الأبدال المفهومية في هذا الشأن، وتحليل بعض المظاهر الاستعارية الداخلة في بلاغات وجودية عامة.

2– ما ذكرناه عن الإنجاز الاستعاري في الفيلم أو الصورة الإشهارية يمكن توسيع نطاق العمل به في أعمال الرسامين التشكيليين، فقد أكدنا من قبل على الأبعاد التقابلية في الكون والحياة، وفي عالم الفن، والتشكيل. والتحقق الاستعاري مظهر من مظاهر تلك التقابلية الغامرة للكون والعلاقات والرؤى أساسه تقابل المستعار منه والمستعار له، وقوة ملاحظة التناسب هو ما يحرك ذلك، مثلما يحرك

(29) Diego Rasskin- Gutman, Chess Metaphors, Artificial Intelligence and the Human Mind, Translated by Deborah Klosky, The MIT Press Cambridge, Massachusetts, London, 2009, p19.

(30) إيكو، ص235.

(31) نفسه، ص237.

التناسب المقبلين على الزواج إلى التقارب بينهما لتناسب الأرواح والأمزجة والثقافة والعادات. وهذا ما يحدث في الممكنات الاستعارية اللامحدودة في عالمنا، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها تباعد واختلف، ولذلك تجذبنا الاستعارات البليغة إليها لما ندرك من التناسبات القوية بين المستعار منه والمستعار له، وقدرتهما على تحريك خيالنا عن سر هذا التجاذب، مما يقوي طاقتنا على التأويل الذي قد نختلف فيه. لكن النماذج الاستعارية البليغة في العالم الرقمي والتصويري تحقق بلاغة عالمية عليا يدل عليها انجذابنا للنت والهواتف الذكية، وما ذلك إلا لملاحة تلك الاستعارات ووضوحها ودورها التواصلي وقدرتها على ربطنا بالحياة اليومية بشكل قوي.

3 – يبين ما سبق من تمثيلات ونماذج أن نظرية الاستعارة التصورية أصبحت بدورها متجاوزَة أمام هذا البحر الزاخر من الاستعارات التي نتفاعل معها يوميا، والتي تشكل لبنة قوية من لبنات الخطاب شكلا ومقصدا واستراتيجيات تواصلية. نحن في حاجة إلى نظرية متعددة الروافد والتخصصات والمداخل، تستطيع مد البحوث التطبيقية حول **السيمياء الاستعارية** بتصورات كافية لاقتحام تحليل الخطاب في مجالات شتى خارج دائرة الأدب والفلسفة واللغة، نظرية تستمد قوتها من الأساليب الاستعارية التي لا يحصل أي تواصل يومي دون الاستعانة بأنواعها اللامحدودة.

4 – الاستعارية في أبعادها الشمولية المتعددة مدخل حقيقي لبلاغة جديدة موسعة يمكن أن تنضاف إليها بلاغات أخرى في إدراكنا لذواتنا وإدراكنا للعالم المحيط بنا، فحياتنا المادية والروحية تقوم على العوالم المتقابلة والمتداخلة والمتفاعلة، وحياتنا باللغة وبغيرها من الإيقونات والنماذج الاستعارية الأخرى ليست إلا تجربة استعارية كبرى ذات جسور كثيرة للعبور والتحول في الزمان والمكان والممتلكات والعلاقات والقيم والمراقي الروحية عسى أن ندرك بلاغة وجودنا...

الفصل السادس

استعارة المفاهيم والنظريات
مفهوم النص تمثيلا

تقديم

تُستعار النظريات والمفاهيم وتتحول من أرض إلى أخرى، ومن ثقافة أُمٍّ إلى ثقافة مستعيرة كافلة. ومن ثمة جاز الكلام عن **النظريات والمفاهيم المكفولة**، ليس داخل الثقافة العربية فحسب، بل في سائر الثقافات الأخرى، وهو سبب دوران المعارف ورواجها، وتلاقح العلوم والفهوم، وتنابذها. إن دور الاستعارة المتوالية قوي كذلك في صناعة المفاهيم[1] وانتقالها من الأفق الفردي الذي ينتجها إلى الأفق الجماعي التي يتقبلها ويعمل بها. ويتعلق بذلك ما له اتصال بالأنوال المكفولة (المفاهيم والنظريات والمناهج) من تفريعات إجرائية: الاستمداد، التنقيل، الترحيل، الإنبات، التطبيق، الاختراق، التشويه، التجاوز، النقد، التوسيع... أمر يدفع المتتبع إلى التساؤل: كيف استعارت العلوم مصطلحاتها من اللغة العادية أولا؟ وكيف تستعيرها من غيرها ثانيا؟ أمر يبدو معه تاريخ المصطلحات حركة استعارية لفظية ومتوالية لا تتوقف. في كل العلوم والفنون حركة استعارات قوية من اللغات الأصل إلى لغة العلم لضمان تواصل علمي بين المنتمين إلى كل فرع معرفي: الأدب والنقد والعروض والبلاغة، والأصول، والفلسفة، والرياضيات، والطب، والكيمياء، والتاريخ والسياسة...

ليست الاستعارات الأداتية استراتيجية صناعية فحسب يلجأ إليها مؤلفو الأعمال الأدبية والخطب والتأليفات، وإنما هي نشاط جوهري في العلم ومصدر قوته واستمداداته التي يحيا بها، ينتعش ويتقوى، والعلماء الناهون هم الذين

(1) **القراءات المتصارعة**، ص127.

يستطيعون في لحظة من لحظات شيوع مفهوم ما أن يتلقفوه ويعيدوا بناءه بناء نظريا محكما؛ فقد استعار البلاغيون من المنطق أدوات كثيرة منها: التعريفات والحدود والتقسيمات والعلاقات المنطقية السببية، والمقدمات والنتائج لبناء صرح البلاغة العربية. كما حدثت تساندات استعارية جوهرية بين حقول الثقافة الإسلامية والعربية. وهو أمر جرى به التعاون المعرفي بين العلوم، مثل استعارة النحو والبلاغة لعلم التفسير، واستعارة النحو لبناء علم البلاغة، والبلاغة لتعزيز علم الأصول، والمنطق للنحو... كما استعارت العلوم الناشئة مفردات اللغة العربية للتدليل بها على حمولة معرفية أو نظرية؛ فمصطلحات العروض والنقد والبلاغة مأخوذة من معجم بدوي للتشابه الذي يجده واضع المصطلح بين المسألة موضوع العلم وبين الواقع الذي تصفه اللغة. ومما يشهد للوعي بهذه القدرة الاستعارية ما ذكره ابن خلدون عندما تحدث عن الذوق أو ملكة تذوق الكلام البليغ من غير البليغ. قال: "واستُعير لهذه الملكة عندما ترسُخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان، والذوق إنما هو موضوع لإدراك الطعوم، لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام، كما هو محل لإدراك الطعوم استُعير لها اسمه، وأيضا فهو وجداني اللسان، كما أن الطعوم محسوسة له، فقيل له ذوق"[(2)]. وهذا دليل على علم دقيق بالاستعارات الاصطلاحية، وتزحزح الألفاظ من مجالها الطبيعي إلى مجال العلم، واستعارة اللفظ لغاية الاصطلاح؛ وهذا ما نسعى إلى تطويره داخل منظور موسع للاستعارة.

استعار الجرجاني مفهوما قويا من المتكلمين قبله، وهو مفهوم "النظم" وقد طوره وأعطاه بعدا نظريا قويا خلد اسمه في الذين جاؤوا بعده. النَّظْمُ في اللغة "ما نظَمْته من لؤلؤ وخرز وغيرهما. وكلُّ شيء قَرَنْتَه بآخر أو ضَمَمْتَ بعضَه إلى بعض، فقد نَظَمْتَه"[(3)]، مثل نظم حبات العقد في "النِّظام" وهو الخيط، ثم استعير للدلالة على ضم الكلمات إلى بعضها بطريقة مخصوصة: الإبدال، التقديم والتأخير،

(2) ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط.2، 1996، ص562.

(3) لسان العرب، مادة نظم.

الحذف... بما يوافق ما يقتضيه علم النحو وقوانينه... ولقد أخذت فكرة النظم هذه حجما كبيرا عبر تاريخ البلاغة العربية، وبقدر ما قدمت أدوات باهرة لتفسير الإعجاز القرآني، ومناحي البلاغة في الكلام البشري، فإن التوقف عندها من قبل كل الباحثين في البلاغة والدارسين وتابعي الدارسين القدماء والمحدثين يدل على انحصار التفكير في مناح أخرى من نظام الخطاب، بل إن النظم بوصفه آلية لبلاغة الكلام توقف عند مستوى صناعة الخطاب، و لم يتم الاهتمام بالنظم من جهة فهم الخطاب وتأويله نظريا، وإن تم بشكل تطبيقي عند الأصوليين وبعض المفسرين. والنظم آلية تلقائية عاملة في أي لغة أو كلام، فليس الكلام إلا نظما، ولكن المقصود بالنظم البلاغي الترتيب المخصوص الذي يحقق للكلام بلاغته في تناسب مع ما تقتضيه أحوال الكلام. ومن المفيد أن ينتقل الدرس البلاغي إلى نظم الخطاب ككل، ترتيبا وتقديما وتأخيرا، بما يتوافق مع خصوصياته (نظام الجمل، الفقرات، تنظيم الحجج، الخ... وهذا الذي سميناه بلاغة الخطاب[4].

استعارة المفاهيم في النقد الحديث

استعار النقد العربي الحديث – على سبيل التمثيل- مفاهيم كثيرة من العلوم الحقة: مثل "التوازي" المستعار من الرياضيات، و"نمو النص" من البيولوجيا، مثلما استعار أدواته من المنطق والسيمياء والفلسفة والذكاء الاصطناعي وعلم النفس المعرفي وعلوم الأعصاب... بل استعار من النقد العالمي كل ما أنتجه من مدارس ومفاهيم بدءا من المدارس التقليدية والفيلولوجية والتاريخية والاجتماعية والشكلانية، والنفسية والبنيوية، والبنيوية التكوينية، إلى التيماتية والسيميائية والتفكيكية ونحو النص وتحليل الخطاب وغيرها، تقليدا وتجريبا وتطبيقا فاغتنى بالمفاهيم والمقترحات، وبقدر ما سمح ذلك بالاطلاع والتعريب والتجريب خلّف ضعفا في قوة هذا النقد الاقتراحية، وبناء النماذج التأسيسية المناسبة للهوية الإسلامية والعربية، والثقافة المحلية، فتوقفت الاستعارات عند فئة ضئيلة من النقاد،

---

(4) انظر: **البنى التقابلية**. مذكور.

وفي حدود ضيقة من الدرس الجامعي، وربما تغلغلت في الاستعمال المدرسي بنوع من التلفيقية البيداغوجية استعراضا وتكثيرا؛ فهي ملفقة لأن الخطاب المدرسي يوظف أدوات يتطلبها النص الأدبي دون الإعلان عن مرجعياتها أو حدودها العملية. وهي تكثيرية لأن كل نتاج النقد الغربي والعربي تم تنزيله في المقررات المدرسية دون مراعاة القدرة التمثُّلية عند المتعلمين اتجاه هذا التاريخ المفهومي الشاسع الذي انطلق منذ أرسطو إلى اليوم.

مواقف نقدية من استعارة المفاهيم

يتوسل بعض الباحثين في قراءتهم للتراث النقدي العربي القديم بمفاهيم ومقولات مستعارة، وهذا ما يجعله مُلوَّنا بتلك العدسات المفهومية المستعارة[5]. لكن هذه الاستعارات النقدية اتسم بعضها -كما يذهب جابر عصفور- بالجمود والتخلف، نتيجة المقارنات الإسقاطية[6] بين الجرجاني وسوسير مثلا، أو بين الفارابي وروسو أو غيرهم... ووصفها بأنها استعارات إسقاطية متعسفة، استرجاعية استعادية ألحقت أذى واسعا بالحقل النقدي العربي الحديث جراء تلك الاستعارات لأنها لم تستوعب الأصول الفلسفية والمرجعية لمفاهيم قراءة التراث.

وهذا ما ذهب إليه كذلك عبد العزيز حمودة في "المرايا المقعرة"، حيث انتقد بشدة استعمال بعض النقاد الحداثيين لمفاهيم مستعارة أحدثت فوضى نقدية، مثل: "الانعكاس"، و"الحضور" و"الغياب" و"الفجوة" و"المسافة"[7]... لأنها تُرجمت بتعسف، وتم تطبيقها على النصوص الأدبية العربية، فأدت عمليات الاستعارة غير المحسوبة إلى "نقل فكر غريب عن الثقافة العربية من ناحية، ومشوه أو مُحرَّف

(5) جابر عصفور، **قراءة التراث النقدي**، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، (د،م)، ط1، 1991، ص87.

(6) نفسه، ص89.

(7) عبد العزيز حمودة، **المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية**، عالم المعرفة/الكويت، 2001، ص136.

مرات من ناحية ثانية"[8]. وبذلك انتقل النقد العربي الحديث من "الرعب القادم" إلى "الرعب القائم"، لما أحدثته هذه المحاولات النقدية من خلط وتشويه في المفاهيم المستعارة، وفي تطبيقاتها على النصوص مقابل تركنا لتراث بلاغي ثري يزخر بعشرات المؤلفات. ثم ظل يتساءل: هل استعاراتنا المرتبكة، وجرينا المنبهر وراء مقولات غربية شديدة البريق والسذاجة هو ما سيسمح بتحديث العقل العربي؟[9]

ليست المفاهيم النقدية الغربية ملتبسة عند أصحابها، وإنما التبست بسبب استعارتنا المشوهة لها، وانبهارنا الجارف بإنجازات العقل الغربي، وكأننا أمام فتح جديد للحداثة النقدية. ومن أسباب هذا الاضطراب الحاصل في استعارة المفاهيم الاختلاف في ترجمة بعض المصطلحات مثل: Poetics بـ "الشعرية" و"فن النظم"و"علم الشعر" و"الإنشائية"، و"الفن الإبداعي"، و"البويطيقا"، و"علم الأدب"[10]؛ فأصبح القارئ العربي في حيرة وهو يتتبع مخاتلات المصطلحات المستعارة، وفوضاها واضطرابها الناتج عن سوء الفهم والتشويه، وفتح الثقافة العربية أمام حداثات عالمية من كل حدب وصوب، وعدم توحيد الترجمات.

وجّه **حمودة** نقدا شديدا للمناهج المستعارة في النقد العربي الحديث، حيث جاءت تساؤلاته النقدية في "المرايا المقعرة" وقبل ذلك في "المرايا المحدبة"[11] قوية ومزعزعة، وقد طرحها للتداول والتمحيص النقدي منذ ما يزيد عن خمس عشرة سنة، مستحضرا اعتراضات الذين انتقدوا آراءه بخصوص ما ذكره من افتقاد الهوية في النقد العربي الحديث، ومُظهرا الشرخ الكبير الذي تركه الارتماء في موجة استعارة المناهج الغربية، وما حدث من فراغ بعد انحسار الموجة. قال: "إن أخطر ما فعلناه أننا استعرنا أو نقلنا مذاهب نقدية غربية هي بالدرجة الأولى إفراز أمزجة ثقافية وفلسفية لها خصوصيتها التي لا تتفق مع أمزجة الثقافة العربية. وهكذا

(8) السابق، ص150.
(9) نفسه، 151 وما بعدها.
(10) نفسه، ص156.
(11) نفسه، ص25 وما بعدها.

أضاف الحداثيون العرب إلى سوء الفهم والتشـــويه غربـــة المفـــاهيم المســـتوردة ومصطلحها النقدي"[12]، داعياً إلى التحول من الأنـــوال النقديـــة المســـتعارة إلى الأنوال التأويلية المبنية. والحقيقة أن موقفا مثل هذا كان جديرا بأن يُتخذ منطلقـــا جماعيا لمساءلة الإضافات العربية الحقيقية في مجال النقد والتأويل والدراسات الأدبية واللغوية. لقد ظل كثير من الدارسين وبالأخص الذين راكموا تجربة كبيرة في مجال الترجمة ودراسة النقود الغربية غير عابئين بسؤال الهوية، وسؤال الإضافة النوعيـــة، وسؤال تقويم فعالية الترجمة، وسؤال جدوى استعارة المناهج والمفاهيم... والحـــال أن هؤلاء -كما يذهب حمودة- لم يخدموا إلا أنفسهم في البروز والشهرة، وقـــد ركبوا موجة استعارة الأنوال النقدية الغربية متماهين معها كليا، وكلٌّ يزعم أنـــه وجد الحل الأمثل لأزمة النقد العربـــي حاليا، وقد ولى ظهره للبعد المعرفي الكوني في الجهود العربية القديمة.

لم تكن جهود النقاد "الحداثيين" في تصوره تنطلق من هذا البعـــد المعـــرفي الكوني، ولا مما رسمته المؤلفات التراثية في اللغة والنقد والأدب والبلاغة والمنطـــق والتفسير والشروح وعلم الكلام والفلسفة... فحصل الانبهار بما لدى الآخـــرين، وتم إهمال التراث العربـــي والتنكر له، وهو إهمال ظل يُخفي العجز عن الاطلاع، وغياب النظرة الشمولية، ويكشف التقوقع المطلق والتبعية الخاسرة. لقد تنكـــروا لبحر التراث الخفي وعبدوا الموجة الحداثية، فلما تكسرت الموجة علـــى شـــاطئ الواقع، تنكر لهم البحر، للبحر تاريخ لا يدع صغيرة ولا كبيرة، يُحصـــي ويُعـــدد ويَشهد.

وقد كانت استعارة "المرايا المحدبة" موفقة لبيان صـــورة النقـــد العربـــي، فالتحدُّب أظهرَ حجم هؤلاء التبعيين كبيرا مضخما لما توقفت رحلة إنتاج المناهج في النقد الغربـــي، وتوقفت استعارة نماذجهم، فبدا التطبيق العملي لهذه المنـــاهج مذبذبا عديم الفائدة في تحليل النصوص والخطابات والظواهر الأدبية بالجامعـــات والمدارس، وظهر الخلل حين أخرج تاريخ النقد الحديث مرآته المحدبة، لتُظهر هذه

(12) السابق، ص190.

المسارات في أحجامها المشوهة الضئيلة، وستظل كذلك عند قارئ المستقبل الذي سيبحث عن هويته في هذا المنجز النقدي، وعن صورته، ومرجعيتـــه، ليجـــد أن تاريخ النقد العربـــي الحديث تاريخ تبعية عمياء وانتفاء للهوية.

النظرية الشمولية

وأما تصورنا لأسباب تهافت المفاهيم المستعارة فهو العجز البيِّن عـــن بنـــاء أدواتنا النقدية؛ لافتقاد استراتيجية تنطلق من الأصل القوي الذي تحفل به بلاغـــة التأويل العامة في التفاسير، وعلم الأصول، والبلاغة، وعلـــم المقاصـــد، ونظريـــة المعنى.. ثم البناء عليها لتأصيل مفاهيمنا العلمية والمنهجية. وهذا ما أحـــدث هـــذا الشرخ الكبير، وهذا الانحباس الذي نراه الآن في الحقل المنهاجي النقدي والتأويلي العربـــي. إن الذي يستعير القوالب المفهومية الجاهزة، ثم يبحث عن نظائرهـــا في التراث النقدي القديم يعتمد مقاربة منهجية وتصورية خاطئة، وإنما ينبغي توســـيع النظر بإدراج قضايا النقد داخل دوائر موسعة مثل دوائر "التأويليـــة" أو "نظريـــة المعنى" أو" الدلالة" أو" التداول" أو "نظرية البلاغة"، أو" نظرية النحو"، ولو علـــى سبيل الافتراض العلمي والبحثي، وإلا فإن المقاربة ستكون شبيهة بالنظر من ثقب الباب، وستكون مجانبة لأفق التناول المعرفي المناسب، دون أن نتنكـــر للإفـــادات العلمية الهامة التي قدمتها جهود الحداثيين للمعرفة بالنص والتداوليات واللسانيات والنقد والأدب. إننا نوجه النقد -تحديدا- إلى افتقاد المرجعية، وغيـــاب الرؤيـــة الحضارية التي تحكم ملايين المسلمين والعرب، بل تتنكر لتاريخ كـــبير في مجـــال التأليف، ولتراث عظيم في شتى مناحي المعرفة، بل يُعد من أقـــوى العلـــوم دقـــة وعبقرية مثلما نجد في أصول الفقه، والنحو، والبلاغة العربية وغيرها.

نقدم هنا على سبيل التمثيل ما أنجزه محمد الشاوش في" أصول تحليل الخطاب: في النظرية النحوية العربية"[13]، وهو عمل علمي دقيق في النحو العربـــي القـــديم، استطاع أن يُظهر الأبعاد النظرية والمعرفية والتداولية واللسانية لهذا العلم. وتكشـــف

(13) محمد الشاوش، **أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية**، جمعة منوبة، كليـــة الآداب، المؤسسة العربية للتوزيع والنشر، تونس، 2001.

دراسته عن غنى المؤلفات النحوية العربية بمادة دقيقة في حاجة إلى مقاربة لسانية أو معرفية. انطلق الباحث مما عُرف في الدراسات الحديثة بـ "نحو النص" و"تحليل الخطاب" من منظور لساني، ثم راح يبحث عما يطابقهما في التراث النحوي العربي القديم، فتتبع مفهوم "النص" في النحو واللسانيات الغربية قبل السبعينيات وبعدها، وبيَّن نقطة التحول من" لسانيات الجملة" إلى "لسانيات النص"، والأبحاث المنجزة في هذا الاتجاه والمتعلقة تحديدا بالاتساق والانسجام ونحو النص. ثم عاد إلى النحو العربي باحثا عن ملامح تحليل الخطاب بالمفهوم اللساني، وما يتعلق بدراسة الجملة، حيث وجد ما يجيب عن أسئلة بحثه العلمي الرصين، معلنا انبهاره بعمق أدوات تحليل الخطاب عند النحاة العرب القدامى.

خلصت هذه الأطروحة القيمة إلى نتائج مُبهرة تمضي في اتجاه ما نُدافع عنه بضرورة تغيير منوال البحث في التراث انطلاقا مما تقترحه الجهود الغربية، إلى اعتماد البحث المحايد الذي يتقصى الحقائق حيث كانت دون تبعية عمياء للآخر. ومن النتائج التي تؤكد هذا ما ذكره الباحث في موضوع النحو العربي القديم واللسانيات الحديثة من كون التحولات التي عرفتها النظريات اللسانية الغربية الحديثة كانت هي منطلق النظرية النحوية العربية القديمة، لأنها "أرجعت الفروع غير المتناهية لمجموعة من الأصول المتناهية"[14]. وعبر عن اندهاشه لمَّا وقف عند ريادة النحاة العرب المتقدمين وتفوقهم، وتبدت له مواطن التبعية والخطإ عند المتأخرين فيما يتعلق بتحليل الخطاب. قال: "كانت عناية النحاة العرب بتحليل الخطاب متجذرةً متأصلة في الجهاز النظري الذي استنبطوه واتخذوه منوالا، وهو تجذر تشهد عليه قوة الأصول والقواعد وشمولها واتساع مجالها، وكانت عناية المحدثين بنحو النص على أخرة الزمان، وقصروا النص على الاستعمال فطفقوا يعبون مما أتاحه توسيع المجال عب الظمأى يتهددها الشَّرَق"[15]. لقد وقع الباحثون في لسانيات النص -على حد تعبيره- فيما عابوه على غيرهم من مجانبة موضوع الدراسة اللغوية الحقيقي عندما أقصوا المعنى والاستعمال. وخلص إلى موقف جاد

(14) السابق، ص1283.

(15) نفسه، ص1289.

حول أهمية الاطلاع على التراث العربي في كل المناحي المعرفية، وعدم التنكر لجهود العلماء القدامى، وبناء منطلقات جديدة لدراسة التراث العلمي الإسلامي والعربي قائلا: "**ولَأَن يُتَّهم المرءُ بالسلفية أهونُ عليه من أن يُتَّهم بالتنكر، ولَأن يُتَّهم المرء بضيق المجال وبقِصَر النظر أهونُ عليه من أن يُتهم بالعمى**"[16].

لعل فائدة مثل هذه المجهودات والاقتراحات أنها تعرفنا بما لدى الغربيين، دون أن تخسر ماء الوجه الحضاري المتعلق بالاعتزاز بالهوية، والتعامل مع المنجزات الغربية من موقع مُطَّلع قوي وموضوعي، داعية إلى ربط علاقة جديدة بالتراث العربي، والاستفادة من المعارف الكونية لبناء هويتنا الحضارية. وقد بينت دراسة الشاوش- مثلا- غنى النحو العربي، لكننا وددنا لو كان العنوان هو: "النظرية النحوية العربية: أصول تحليل الخطاب". وهي النتيجة التي انتهت إليها الدراسة بتدقيقات متميزة وتناول علمي مبهر. لكن الكتاب لم يُعِد النظرَ - بعديا- في بناء الفرضيات والمنطلقات لتوافق خصوبة النتائج حول الغنى المقولاتي والتحليلي والتداولي الذي حمله النحو العربي، وهو ما أَضَرَّ بالصورة النهائية للعنوان.

النص: استعارة مصطلح أم مفهوم؟

ما مفهوم النص -مرة أخرى- في التراث العربي الإسلامي؟ ما ملامح العلم به داخل أنوال معرفية متباينة؟ وما موضوعه في منوال علماء القرآن، ومنوال المفسرين، ومنوال الأصوليين، ومنوال اللغويين، ومنوال النقاد والبلاغيين؟ وهل للقرآن الكريم أثر في تأسيس علم جمعي بالنص، متباين الأبعاد والحمولة، ساهمت في رسم معالمه أجيال من المهتمين بالخطاب الرباني، ثم بعد ذلك بسائر النصوص البشرية؟

تستعير العلوم مادتها الاصطلاحية من اللغة المستعملة بناء على مبدإ المشابهة والملاءمة والتناسب والدقة، وسنحاول تتبع بعض ملامح استعارة علم

(16) السابق، ص1289.

الأصول، وعلم الأدب، وعلم التأويل لما سمي ب: "النص"، ولنبدأ بالأصل اللغوي: أَصلُ "النصّ" منتهى الأشياء ومَبْلَغُ أَقْصاها[17]. كما يدل على: الظهور، والثبات، وعلو المصدر، والاستقصاء التام، والتركيب، والترتيب والاقتصاد. وقد اجتهد أحد الباحثين[18] لبيان خصائص النص انطلاقا من هذه المعاني المعجمية بكثير من التطويع[19]، فأصل النص غاية الشيء ومنتهاه. وفلان أنص للحديث أي أرفع له وأسند بلا زيادة ولا نقصان. وفي هذا معنى الثبات والحفظ، والنص في اللغة التوقيف والتعيين[20]. ونجد في استعمالات العرب" نَصُّ القرآنِ ونَصُّ السنَّة أي ما دل ظاهرُ لفظهما عليه من الأحكام"[21]، ولكننا لا نجد "النص القرآني" بالمعنى الموسع المستعمل بيننا اليوم. ولعل في هذا ما يقوي طرحا بوجود خلفية لغوية عند الذين سموا الكلام الأدبي وغير الأدبي **نصا** منذ منتصف القرن الماضي على أقصى تقدير[22]، ومؤلفات القدامى في مجال العلم بالأدب أو النقد أو البلاغة وعلم الكلام، والفلسفة لا تستعمل مصطلح "النص" إلا بالمعنى الأصولي.

نبع التأسيس المعرفي لمفهوم **النص** من الحاجة القصوى لمعرفة الخطاب القرآني لتعلق أمور الناس الدنيوية والأخروية به، وخوفهم من الجهل بما فيه، أو تفسخ الحياة تبعا لتفسخ فهمه. ولأن الكتاب العزيز أصبح مرجعا للحياة الدنيوية والأخروية على السواء، ومصدرا لأخبار الأولين والآخرين، ومصدرا للأحكام

---

(17) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة نصص. نصت الظبية جيدها أي رفعته ومنصة العروس، والنصنصة إثبات البعير ركبتيه في الأرض وتحركه إذا هم بالنهوض، ونص لمتاع جعله متراكبا، ونص الدابة استخرج أقصى سيرها، ويلغ منتهى ذلك.

(18) عمر أبو خرمة، **نحو النص، نقد النظرية وبناء أخرى**، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2004، ص26 وما بعدها.

(19) لسان العرب، مادة نصص.

(20) مادة نصص في "لسان العرب".

(21) نفسه، مادة نصص.

(22) انظر مؤلفات الرافعي مثلا وطه حسين والعقاد وميخائيل نعيمة لا نجد استعمال مصطلح النص بالمعنى الشائع بيننا اليوم، وإنما كانوا يشيرون إليه بالخطاب أو الشعر أو القصيدة أو الكلام.

التشريعية، فقد حرك أمة بكاملها لتبني علومها منه خدمة لـــه ولغـــيره، وتُحقـــق وسائل الفهم وتضع ضوابط التأويل.

النص في التراث العربـــي الإسلامي نمط من أنمـــاط الألفـــاظ في الخطـــاب القرآني التي وقف عندها الأصوليون، وهي تتدرج وضوحا بدءا مما سموه: الواضح، ثم الظاهر، ثم **النص**، ثم المفسر، ثم المحكم. ومنها ما يتدرج من المبهم ثم الخفي، ثم المشكل، ثم المجمل، ثم المتشابه[23]. و"النص" هو ما ازداد وضوحا على الظـــاهر، ودرجة احتماله للتأويل ضعيفة، ولذلك اعتبروا الكلام "النص" أو "الناص" هـــو المستغنى فيه بالتنزيل عن التأويل، إنه ينص على حكم شرعي واضح بـــلا نـــزوع للاجتهاد أو حاجة إلى التأويل. و"المفسَّر" أوضح من "النص"، و"المُحكم" دلالتـــه قطعية تنحسم معه جهات الاحتمال التي سميت تســـميات أخـــرى: "الخفـــي"، و"المشكل"، و"المجمل"[24].

ينم تفصيل الأصوليين في المستويات الدقيقة لتباين الألفاظ في الدلالة علـــى المعنى عن تطور أدوات فهم المعاني داخل التأويلية العربية، ونضج مباحثها. ولعـــل وضع "النص" في قلب فسيفساء الأنواع المجاورة له، يجعلنا نتصور موقعه النظـــري الاعتباري، فهو بمثابة" **دار في حي** "من أحياء مدينة الخطاب أو الكـــلام، فهـــو عنصر له موقعه الواضح بين مجموعة منتظمة. وهكذا لم يستعمل القدامى مفهـــوم "**النص**" إلا داخل حقل علم الأصول بالمعنى المشار إليه، وفي غير ذلك من مناحي الثقافة استعمل العرب "الكلام" و"القول" و"القصيدة" و"الخطبـــة" و"الرســـالة"

---

(23) راجع كتاب **صِناعَةُ الخِطابِ: البُنى العَميقَة للتَّأْويليَّة العربية**، لمحمد بازي، دار كنوز المعرفة، عمان، 2015.

(24) اعتمدنا مراتب اللفظ وضوحا وإبهاما. للتوسع يرجع إلى السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.2، 1991، مـــج 2، ص68، وكـــذا الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطـــا، دار الفكر، بيروت، 1988، ج1، ص201. وانظر: أديب محمد صالح، تفسير النصـــوص في الفقه الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط4، 1993، مج1، ص142 وما بعدها.
انظر كذلك كتاب **انتقال المفاهيم والنظريات**، إعداد: محمد مفتاح وأحمد بوحســـن، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1996. وكذلك: محمد مفتاح، المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربـــي، بيروت، 1999.

و"الخطاب" الرباني، و"الكتاب العزيز" و"الحديث النبوي"، و"المعنى" و"الفهم" و"البيان"... وقد شاع عند علماء المسلمين استخدام مصطلح خطاب الشارع، والخطاب القرآني[25].

الحلقة المفقودة لاستعارة" النص"

ليس لدينا دليل على أن التحديد اللغوي ل"**النص**" بالمعاني المشار إليها في المعجم قد تم تبنيه اصطلاحا بين أهل النظر العلمي في النقد أو الفلسفة أو النحو أو الأدب[26]، ولو قلنا إنه لا يختلف عن مفهوم النص بمعناه اللغوي المعجمي في اللغات الأجنبية فهذا ممكن، ولكن لا يمكن أن نقارن بين مفهوم "**النص**" في المناهج النقدية الغربية، ولسانيات النص، ونظرية الأدب ونظرية النقد مثلا، وبين معانيه في المعجم العربي، لأن هذا مُعرض للنقد الإبستيمي الدقيق عند المقارنة والتمحيص. غير أن مفهوم **النص** في المعاجم اللغوية قد يستوعب مفاهيم ضمنية للنص في علم الأصول وعلوم القرآن، وبالأخص الثبات والتعيين.

هناك حلقة معرفية غائبة تُعَقِّد إيجاد التوافق بين معنى النص في العلوم الإنسانية والمعجم العربي، وهو الإشكال الذي يجده الغربيون أنفسهم في الربط بين أصل معنى النص: النسيج، وبين النص الأدبي باعتباره نسيجا لغويا. إن المعاجم اللغوية مدونات لاستعمال الكلمات لا موسوعة علمية، وتبعا لذلك يسهل حل هذا الإشكال عبر **مبدإ تأويلي** مقتضاه أن العودة إلى أصل لغوي دال للتعبير عن الأشكال الخِطابية المتداولة في الثقافة العربية، يمثل حدثاً ثقافيا عميقا غير منفصل عن جذوره اللغوية، دون أن يُعَطِّل هذا الأمر الاستعمال الدقيق والدائم لمصطلح "النص" في علم الأصول.

إن غياب بيانات عن استعمال" **النص**" لأول مرة لدى الكُتّاب المحدثين، وفي سياق معرفي واضح تُستحضر فيه هذه المعاني، يكشف أن الغموض ما يزال يعتري هذا الانتقال من **"النص" المستغني عن التأويل إلى "النص" القابل للتأويل**، ثم عدم

---

(25) محمود عكاشة، **تحليل الخطاب**، دار النشر للجامعات، القاهرة، 2013، ص18.
(26) نحو النص، م.م، ص39.

القدرة على تحديد لحظة التمفصل في استعارة مفهوم النص من الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية. وإذا كان مترجم **مصطلح النص** أو واضعه قد استحضر كل تلك المعاني المشار إليها: الظهور، والثبات، وعلو المصدر، والاستقصاء التام، والتركيب، والترتيب والاقتصاد، فينبغي أن نشهد له بالعبقرية في استمداد كل هذه المعالم المعجمية لما بينها من تساند ينطلق من فهم عميق لخصائص النص النحوية واللغوية والاتساقية والسياقية، وهذا ما تؤكده نظريات النص الحديثة فكل اجتهاداتها اللسانية والنحوية والتداولية لا تبتعد عن هذه المبادئ.

ولكننا لا ندري بالضبط في أي سياق استعمل الباحثون العرب المحدثون "النص" وهم يستحضرون بوعي هذه المعاني المعجمية دفعة واحدة ليسموا القصيدة "نصا"، والرواية "نصا"... وهذا ما يجعلنا نجد بعض الحيرة للحسم في الحلقة المعرفية الناقصة لإيجاد الترابط بين معنى النص والنصنصة في اللغة العادية، وبين المعنى الذي يُقصد به اليوم القول الأدبي أو الفلسفي أو القانوني أو التشريعي.

التعايش الاصطلاحي

إذا كان هذا الذي ذكرنا صعب المنال، فإنه يمكن أن نذهب إلى القول بتعايش الاستعمالين داخل الثقافة الإسلامية الواسعة: لغوي مضى في جريانه على الاستعمال المألوف، واصطلاحي في علم الأصول يجد موقعه بين أنماط أخرى من القول التشريعي (الظاهر، والمفسر والمجمل...). يمكن أن نفترض -كذلك- بأن الثقافة العربية مضت في تناميها وانشغالاتها المعرفية وهي غير عابئة بهذا التدقيق الذي نحتاجه اليوم، لأن المادة الاصطلاحية في العلوم وفيرة ولم تكن الحاجة إلى مصطلح واصف يزاحم "القول" و"الخطاب" و"الكتاب"و"الكلام"، و"القصيدة" و"الخطبة" فهي تفي بالمطلوب في التواصل والبيان والعلم. فهل من الممكن أن تنقلب الثقافة على مفاهيمها ومصطلحاتها لدواع ومستجدات، فتتقدم مصطلحات واصفة مثل "النص"، "الخطاب"، "البلاغة".. إلى واجهة الاستعمال الكثيف ويتراجع "القول"، و"الكلام"؟

تم التمييز في دراسات المتأخرين بين النص والخطاب، إذ الخطاب هو النص في سياق تواصلي تفاعلي، فإن احتزئ من سياقه صار نصا؛ وهو البنية اللغوية

المحفوظة في شكل ثابت، وكلما وُجِّه (النص) في سياق تفاعلي صار خطابا[27]؛ فالخطاب هو عملية تداول للمعنى نتاجها النص[28]. أما عند القدامى فلم يكن مفهوم "النص" إلا نوعا من أنواع الخطاب وهو "المستغنى فيه بالتنزيل عن التأويل"، وظل عند المفسرين والأصوليين والبلاغيين يحمل معنى قوة التنصيص من القائل[29]. إنه مرتبة من اللفظ داخل دوائر كبرى معتمَدَة وسائدة وهي دائرة الكلام أو الخطاب أو القول. فكيف حدث هذا التنقيل من النص باعتباره منوال المعنى المنصوص عليه من طرف قائله -والذي لا يلزم تأويله- إلى منوال مطلق الكلام الأدبي وغير الأدبي الذي يقبل التأويل وعدمه؟

لا شك أن كثيرا من المفاهيم المعرفية عرفت هذه التحولات، في رحلتها، وانتقالها من بيئة معرفية إلى أخرى، ومن عصر إلى آخر، بل إلى توسيع مجال عملها من قِبل مستعمليها، تبعا لما يتطلبه التطوير المعرفي، واستعارة المفاهيم والأنوال والنماذج. غير أن بوسعنا القول بأن مفهوم "النص" بالاستعمال العلمي الأصولي لا يزال قائما صلبا بالتحديد المشار إليه عند علماء الأصول إلى اليوم. أما مفهوم "النص" بالمعنى الشائع اليوم، فالراجح أن مصدره هو الأدب والنقد الحديثين الوافدين من الثقافة الغربية، ولم يُستعمل هذا المصطلح بهذا المفهوم في الثقافة الإسلامية والعربية إلا بعد الاحتكاك بالثقافة الغربية ونشاط عملية الترجمة. فأصبح مفهوم "النص" بالمعنى الموسع الدال على القول الأدبي أو الفلسفي رائجا ومعتمدا بين أهل صناعة الأدب والنقد، دون أن يقضي على مفهوم "النص" كما عُرف عند الأصوليين. لقد حدثت **استعارة منوالية** جذرية قوية وحاسمة قللت من استعمال المفاهيم المألوفة المقابلة للنص: القول، الخطاب، والكلام، ومنحت استعمال النص وجودا طاغيا لنشاط حقول الأدب والنقد والفلسفة والتاريخ، وكثرة التأليف فيها، ثم اكتسح الاهتمام بالنص الأدبي النظريات اللسانية علها

(27) السابق ص18.

(28) H. G. Widdowsonc, Text, Context, Pretext/Critical Issues in Discourse Analysis by H. G. Widdowson Australia, 2004, p8.

(29) **أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية**، م.م، ص190.

تحل مشكلاته الصرفية والصوتية والتركيبية[30]. وقد تتبع الباحث محمد الشاوش حضور مفهوم "النص" في المؤلفات اللسانية الغربية قبل السبعينيات عند سوسير هاريس وبلومفيلد وتشومسكي فانتهى إلى غياب استعمال هذا المصطلح مقابل استعمال مصطلحات من قبيل الكلام والخطاب. لكن بدءا من بداية السبعينيات بدأ توسيع مجال الدراسات اللسانية لتشمل "النص" متجاوزة قيود نحو الجملة كما عند جينو وبيتوفي وويرر.

يعرف تداول نتاج العلوم رواجا في بضاعة بعينها، وعملات بعينها في زمن دون آخر، وعلى المتتبع أن يتفهم ذلك، ويعي هذه التقلبات التي تحدث في أحوال الناس والحياة وفي السياسة والاقتصاد والثقافة، فإن مثلها يحدث عند أهل الصناعات العلمية وعند طلابها.

بعد التأمل ومعاودة النظر -دون أن يعني ذلك أننا انتهينا إلى حكم نهائي- يمكن أن نقول: إن انتقال الكلمات من المعنى الذي عرفت به في الاستعمال اللغوي إلى الاستعمال الاصطلاحي، يحافظ في أغلب الأحوال على نواة دلالية أو نوى دلالية تبقى مستمرة في دوائرها العميقة وجريانها في الاستعمال الجديد، لأن أصل التشابه يظل قائما بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي الذي يُشحن بدلالة اتفاقية جديدة يكاد يُنسى معها معناه المعجمي، ولكن بعد التحقق والتبيُّن يظهر الأصل، لأن المعجم يحفظ لنا مدونات الاستعمال اللغوي الأصلية، ومن السهل تبين التحولات الناشئة عن الاصطلاح.

ويؤكد ذلك أننا لما تفحصنا جل الاصطلاحات البلاغية والنقدية عند العرب وجدناها ذات منشأ لغوي مستعار؛ فالمقابلة أصلها في تقابل البيوت والجبال والناس، ثم استعيرت عند البلاغيين لبنية الكلام المتقابل المكونات، بل استعيرت في **تأويلية التقابل**[31] لما هو أبعد من ذلك وأعمق. وأصل المطابقة مشي البعير؛ فطابق البعير إذا وضع رجله موضع يده، والطباق في البلاغة ذِكر الشيء مع ضده[32]. وسُمي الكلام

(30) السابق، م. م، 197.

(31) راجع "نظرية التأويل التقابلي" ما يتعلق بالتقابل في اللغة والاصطلاح.

(32) جوهر الكنز، م.م، ص84.

الذي يدل أوله على آخره توشيحا، استعارة من إنزال الوشاح على العاتق والكشح: فما أن نسمع "اصطفى" نتوقع أن آخر الكلام هو"على العالمين"[33]. وأصل الانسجام في تحدر الماء بسهولة ثم استعير للفظ العذب الذي له تأثير في النفوس[34]. واستعيرت القصة من اقتص الأثر أي تتبعه، فسميت بها الحكاية لاقتصاص الخبر بعد الخبر، أو الحدث بعد الآخر. ومن الاستعارات الاصطلاحية: التسهيم فأصله في الثوب المسَهَّم[35]، أي الذي يدل أحد سهامه على الذي يليه لما يقتضيه تجاور الألوان، ثم استعاروه للكلام الذي يدل أوله على آخره، مثل قوله تعالى: ﴿**أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون**﴾[36]. و"البديع" من أبدع؛ يُقال أبدع فلان فَتْله، إذا فتل حبلا من شيء جديد لا من نُقاضة حبل آخر، ثم أصبح اللفظ عند علماء الأدب "عبارة عن الألفاظ المستطرفة التي توجد في محاسن الكلام"[37]، إلى غير ذلك من الأمثلة.

وهكذا، فجل الاصطلاحات العلمية الكثيرة قائم على حركة استعارية دائمة، **ممتدة ومتموجة** في الزمن، تقوم على التشابه والملاءمة والدقة والقدرة على التعبير عن المقصود. وسنلاحظ تبعا لهذا كيف استثمر طه عبد الرحمان -مثلا- معنى الظهور في "النص" ليعرفه بأنه "مجموعة من الوحدات المقترنة فيما بينها بعلاقات الالتحام التركيبي والالتئام الدلالي"[38]، ومن ثمة اعتبر أن "النص التراثي الإسلامي العربي" بمعناه الاصطلاحي هو جملة من العناصر الخطابية أو السلوكية الملتحمة التي تبلغ الغاية في إظهار الوجود الكسبي للمسلم[39]. ولعل معنى الإظهار والإبانة من أقوى المعاني النووية الأصلية التي تلائم سائر ما يتداوله الناس

---

(33) السابق، ص213.
(34) نفسه، ص298.
(35) نفسه، ص248.
(36) الواقعة، 63-64.
(37) جوهر الكنز، ص58.
(38) طه عبد الرحمان، **سؤال المنهج، في أفق أنموذج فكري جديد**، جمع وتقديم: رضوان مرحوم، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، ط1، 2015، ص44.
(39) نفسه، ص44.

من النصوص في كل الحقول المعرفية والأجناس الأدبية. وأغلب المصطلحات المستعارة في العلوم اللغوية والبلاغية والنحوية والفقهية مستعارة وفق هذا المنوال؛ فالاستعارة -كما ذكرنا- جزء من تاريخ العلوم، بل أداة أساس لبناء المفاهيم، وتقاسمهما، والعمل بها في الأفق المفتوح لتطوير مسار العلم.

تستعار الألفاظ للاصطلاح العلمي وفق مبدإ المشابهة بين ما استعيرت منه وما استعيرت له، وهو إجراء كان في القديم وافيا بالمطلوب، وكانت اللغة طرية قادرة على تقبل تلك العمليات الاستعارية. ثم أخذ المصطلح مساره على ذلك النحو، وبقيت جذوره اللغوية قائمة ومتأصلة في تربة اللغة، وهذا الأمر تؤكده كل البحوث المتخصصة في علم من العلوم العربية الحديثة في استقصائها للمعنى اللغوي ثم الاصطلاحي لموضوع بحث محدد، ولم تكن العلوم الناشئة في حاجة إلى نحت المصطلحات كما في زمننا هذا. فلما تواتر ذلك واطرد، وثبتت الجسور الدلالية بين المصطلح وأصله اللغوي أصبحنا نميل إلى فرضية كون "النص" من المصطلحات التي تم توسيع حمولتها المفهومية لتستوعب كل أشكال الخطاب الرائجة في الأدب والفلسفة والقانون، مع ما يرافق ذلك من استعارة مفهومية لمعانيه المتداولة (الارتفاع، التعيين، والإسناد، التوقيف، والغاية والمنتهى من الشيء...). يمكن التسليم تبعا لما سلف بهذا الانتقال التوسيعي لمفهوم "النص" منذ ستينيات القرن الماضي على وجه التقريب إلى أن يظهرَ ما يدقق هذا أو يجاوزه.

خلاصات وامتدادات

1- يمكن أن نخلص -بعد هذه الإشارات التي حاولت وضع "النص" في نسق استعارة الأنوال الثقافية الموسعة والتفاعلات الحاصلة بينها- إلى أن منوال النص الرائج اليوم في الثقافة العربية الحديثة ليس تطورا طبيعيا لمفهوم "النص" في علم الأصول، وعلم التفسير، وإنما هو استمداد من معان لغوية عميقة مستعملة في اللسان العربي مثل: الظهور، والثبات، وعلو المصدر، والاستقصاء التام، والتركيب، والترتيب والاقتصاد، تم استحضارها في لحظة تفاعل ثقافي قوي مع نسق ثقافي غربي عرف بدوره تشعبات شتى في حقول المعرفة الإنسانية المتباينة،

فتمت هذه الاستعارة التكوينية من ملامح منوال النص في الثقافة الغربيـــة، ومـــن النوى الدلالية التي يجرها أي مصطلح في تحوله من اللغة الطبيعية إلى اللغة العلمية، ففي كل المصطلحات يبقى أثر المعاني الأُوَّل للكلمة، وتظل جسورها موصلة لتلك المعاني. ثم أصبح النص/المنوال أداة لتوصيف أشكال شتى من القـــول في حقـــول الثقافة العربية الحديثة، ومواردها المتباينة (التاريخ، الفلسفة، الأدب...)؛ ثم استُعمِل في العلوم الإنسانية بمعناه الشائع والجمهوري ليطبق على الأشكال الخطابية القديمة؛ فأصبح يطلق على القصيدة "النص" الشعري، وعلى الكـــلام الربـــاني "الـــنص" القرآني، وعلى الحديث النبوي "نص" الحديث... الخ، وهو ما أحـــدث اســـتعارة جوهرية عميقة لمنوال مفهوم النص الجديد على ما لم يُسَمَّ بذلك في الثقافة العربية القديمة، وهذا ما سميناه "تزحزح" تعريفات النص، واستعارة بعضها للآخـــر، ممـــا يقتضي إعادة بيان الوضع الأصلي قبل الفعل الاستعاري وتـــداخل الأنـــوال، ثم توصيف واقع المفهوم كما هو جار اليوم وتوضيحه، لأن مفهوم "الـــنصّ" كمـــا عرف عند الأصوليين والمفسرين وعلماء المقاصد يظل حيا قائما في حقله الأصلي دون أن يتعداه.

2- بقي أن نشير أن بناء مفهوم النص في مجال القول الأدبـــــي والنقـــدي تحكمت فيه منطلقات متباينة؛ ففي نظرية الأدب تُستحضر أسئلة متنوعة: كيـــف ينبغي أن يكون الأدب؟ وكيف ينبغي أن يكون كل نوع من الأنواع الأدبية؟ مـــا السمات النوعية والشكلية والموضوعية للنص المعتبر أدبا في نوع من الأنواع؟ وفي نظريات النقد ومناهجه يرتبط مفهوم النص بمرجعيته التي صدر عنـــها، ونوعيـــة الاشتغال المستهدفة على النصوص، فيحمل مفهوم "النص" في كل منهج ما يجـــد تحققاته في المتون المدروسة، وما يعبر عن وجهة نظر أصـــحابه للعـــالم والمعرفـــة والإنسان؛ فمفهوم النص عند البنيويين مباين لتصور السوسيولوجيين، وأصـــحاب النقد النفسي، والسيميائي[40]. وللنص في العلوم الإنسانية: النص التاريخي، النص

(40) تتحكم في حمولة مفهوم النص المرجعية النظرية التي ينطلق منها الباحث، ويمكن أن أذكر مثلا أن الخلفيات المعرفية التأويلية جعلتنا نُعرف النص أنه "بنية لغوية متسقة ذات صناعة ونسج، موجَّهة إلى متلق، وراءها منتج له مقاصد معينة، وهي قابلة للفهـــم والتأويـــل

القانوني، النص الفلسفي: معنى موسع للخطـــاب المنضــبط بشــروط شــكلية للقول[41]، وبطبيعة اللغة الموظفة، وبموضوع القول. ثم شاع استعمال مفهوم النص في الحقول التداولية التربوية بوصفه ذريعة للتعلمات، منظورا إليه بكونه مجمــوع المكونات اللغوية المعترف بانتمائها نظريا إلى نوع أدبــــي أو نمــط خطابــــي معروف، مضافا إلى ما يحيط به من طريقة العرض والإخراج والصــور الموازيــة والأسئلة وغير ذلك.

3- وباختصار، فإن مفهوم النص الذي نشأ في الثقافة العربية القديمة واكتمل في العلوم الفقهية والأصولية لم يُكتب له التوسع والتطور، ولكنه ظــل متماســكا محافظا على معناه وحدوده النظرية والتطبيقية في مجاله إلى الآن، مقابل تطور مفهوم النص في العلوم الإنسانية الغربية والآداب ونظريات النقد، ثم حدثت استعارة هذا المفهوم/المنوال، وتم العمل به ليس فقط داخل الأنماط القولية المنتَجة حديثا، وإنما تم اعتماده مفهوما إجرائيا ووصفيا عند مقاربة كل الأصناف القولية القديمة التي درج القدماء على تسميتها كلام الله تعالى، أو حديث النبــي ﷺ، أو خطبة الخطيب، أو رسالة السلطان، أو قصيدة الشاعر، أو غير ذلك؛ فأصبح النص بمثابــة موجــة

بأشكال متباينة، وفي مقتضيات أحوال مختلفة".(التأويلية العربية. م.م، فهرس المفاهيم). ولا يزال هذا صحيحا في الاعتبار، ثم أضفنا إليه ملمحا يعكس المنظور التقابلي الــذي عملنا به فيما بعد، وذلك حتى يحصل الانسجام في بنية المفهوم لدى المهتمين، فاعتبرنا أن النص" كَوْنٌ لغوي متقابل ومتسق، ذو صناعة ونسج، وراءه منتج له مقاصد معينة، وموجَّه إلى متلق، وهو قابل للفهم والتأويل بأشكال متشابهة أو متباينة، وفي مقتضيات أحوال مختلفة". إن النص - في تصور تأويلية التقابل- هو مجموع الوحدات المعنويــة الحاضرة والممَثَّلة لغويا عبر تقابل المكونات والعناصر، بأي علاقة أو أي اعتبار. وتبعــا لهذا ومن زاوية نظر تقابلية، فهو ليس تاما إلا بحضور قوة تلق افتراضية وتأويلية بانيــة للمعنى. انظر "نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص409.

(41) يرى "فاولر" أن النص يمكن أن يتكون من جملة واحدة كالأمثال، وهذا ما ذكرناه في "نظرية التأويل التقابلي". كما يذهب إلى أنه بالإمكان النظر إلى النص الطويل على أنه جملة واحدة، وانطلق من فرضية إمكانية اشتقاق بنية سطحية لكل النص انطلاقا مــن تيمته الأساس، كما يشتق اللساني البنية السطحية للجملة انطلاقا من البنية العميقة. ومن ثمة تطبيق آليات تحليل الجملة على النص. انظر: روجر فاولر، **اللسانيات والرواية**، تر: أحمد صبرة، مؤسسة حور س الدولية، الإسكندرية، 2009، ص7وص23.

كبيرة تبتلع كل ما وجدت من كلام مدون وغير مدون، ودرج أهل الأدب والنقد والفلسفة والتاريخ على استعمال مفهوم النص دون معرفة كيفيات تنقيلــه مــن منوال معرفي إلى آخر، وإنما بنوع من التوسع أصبح بموجبه النص هو كل قول أو خطاب مكتوب أو مسموع يستحق التدوين والعناية به، ويقبل الفهم والتأويل.

4- أخيرا، **فإن سؤال بناء الهوية يتعلق بأسئلة العلم**، وطــرح إشــكالياته، وهو ما يمكن أن يعطي التوازن للمساءلة المعرفية بعمق في مجالات البلاغة والتأويل والنقد: متى نحقق استقلالية شخصية الباحث العربــي المسلم؟ وكيف يمكنــه أن يتمتع بالقدرة على الاطلاع المعرفي هنا وهناك؟ ينطلق بعد ذلك من مســلمات أو فرضيات أو مبادئ عامة أو مقولات، ثم يتناول ما يريد من النظريات أو المنــاهج تناولا معرفيا إبستيميا، فيفصل أو يُركب بينها على ســبيل العــرض والوصــف والتحليل وبيان المستويات، لا الأخذ المطلق لما جاء به الغربيون، فيكــون مثــل الفارس الذي استعار فرسا من غيره ثم بدأ يبحث لها عن علــف مــن التــراث الإسلامي العربــي. هي مسألة تتعلق برؤيتنا لذواتنا ولحضارتنا وتراثنا وللآخــر، وبقوة الشخصية أو ضمورها، وبالمعارف التي يحفل بهــا تراثنــا، أو المســتعارة بعقلانية.

الفصل السابع

اسْتِعارَةُ الأَنْوالِ القَولِيَّة
وقائع تجربة تأويلية جماعية

تقديم

منذ وقت بعيد وأنا أحفظ بعض أبيات هذه القصيدة:

تَـذَلَّلْتُ فِي الْبُلْـدَانِ حِـينَ سَـبَيْتَنِي
وَبِـتُّ بِأَوْجَـاعِ الْهَـوَى أَتَقَلَّـبُ
فَلَـوْ كَـانَ لِـي قَلْبَـانِ عِشْـتُ بِوَاحِـدٍ
وَأَتْـرُكُ قَلْبـاً فِـي هَـوَاكَ يُعَـذَّبُ
وَلَكِـنَّ لِـي قَلْبـاً تَمَلَّكَـهُ الْهَـوى
فلا العَـيْشُ يَهْنَـا لِي وَلا الْمَـوْتُ أَقْـرَبُ
كَعُصْـفُورَةٍ فِـي كَـفِّ طِفْـلٍ يَضـمُّهَا
تـذوق حيـاض المـوت والطفـل يلعـبُ
فَـلاَ الطِّفْـلُ ذُو عَقْـلٍ يَحِـنُّ لِمَـا بِهَـا
وَلاَ الطَّيْـرُ ذُو رِيـشٍ يَطِـيرُ فَيَـذْهَبُ
تَسَـمَّيْتُ بِـالْمَجْنُونِ مِـنْ أَلَـمِ الْهـوى
وَصَارَتْ بِيَ الأَمْثَالُ فِـي الْحَـيِ تُضْـرَبُ
فَيَـا مَعْشَـرَ الْعُشَّـاقِ مُوتُـوا صَـبَابَةً
كَمَـا مَـاتَ بِـالْهِجْرَانِ قَـيْسٌ مُعَـذَّبُ

أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري (509– 594هـ)[1].

---

(1) أبو مدين شعيب، **الديوان**، جمع وترتيب: العربـي بن مصطفى الشوار، مطبعة الترقي، دمشق، ط1، 1938، ص61. وكذا في مدونة: **ديوان الأمـداح والسـماع**، جمع وتصنيف: منير القادري، مطبعة إليت، 2001. ص97. يضم الكتاب الأخير النصـوص التي يتغنى بها المنشدون في محافل الابتهال الصوفي. وقد جُمعت النصـوص دون ذكـر قائليها مما يؤثر على تداول النصوص في علاقتها بأصحابها الأصليين وسياقات ذلـك.

ثم حدث أن سمعتُها تُنشد في أحد المحافل الصوفية، فجرّني صدى معانيها من بعيد دون أن يثير اهتمامي لدراستها أو معرفة مصدرها، وغلب على ظني أنها قيلت أصلا في غرض الغزل العذري المعروف في الشعر العربي، ثم تم استثمارها في مجال الإنشاد الصوفي، عدت فورا لديوان قيس بني عامر[2] الذي جمعه أبو بكر الوالبي لشبه منوالها بمنواله الشعري متفحصا فلم أجد هذا النص. في الجزء السادس من كتاب الأغاني وقفت على بيتين ضمن مقطوعة مع اختلاف في الرواية، وقد نُسبا لعمرو الوراق وهي[3]:

فلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانِ عِشْتُ بِوَاحِدٍ

وخلفت قَلْباً فِي هَوَاكِ يُعَذَّبُ

وَلَكِنَّما أحيا بقَلْب مروع

فلا العَيْشُ يَصفو لي وَلا الْمَوْتُ يقْرُبُ

تعلمتُ أسباب الرضا خوف هجرها

وعلَّمَها حبي لها كيف تَغْضَبُ

وهو الإشكال الذي يدفع إلى تأمل استعارة الطرق الصوفية للنصوص الموافقة لتوجهها الديني ورؤيتها للإنسان وأحواله وتعبداته وعلاقته بخالقه، والقابلة للإنشاد والقراءة والتداول.

(2) عاش بين سنتي 24 و68 للهجرة، من أشهر شعراء الغزل العذري، لقب بالمجنون لفرط هيامه ببنت عمه ليلى العامرية، تعارفا وتحابا وهما صغيرين، ولما كبرا حجبت عنه، ورفض أهلها تزويجه إياها بذريعة ذكره لها في شعره، وتزوجها رجل آخر يدعى ورد العُقيلي، فهام قيس على وجهه ينشد الأشعار ويأنس بالوحش بين الشام والحجاز ونجد، إلى أن وجد مُلقى بين الأحجار ميتا، وقد خط عند رأسه هذين البيتين:

توسَّدَ أحجارَ المهامِه والقفرِ ومات جريحَ القلب مُندملَ الصدر

فيا ليت هذا الحِبَّ يعشق مرةً فيعلم ما يلقى المحب من الهَجر

ثم حمل وغسل ودفن بجانب قبر ليلى.(انظر قيس بن الملوح، **ديوان قيس بن الملوح**، جمع أبو بكر الوالبي، دراسة وتعليق: يُسرى عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990، ص126).

(3) أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، دار صادر، بيروت، تحقيق: إحسان عباس، إبراهيم السعافين وبكر عباس، ط3، 2008، ج6، ص227 و223.

ولي ألـــف وجــــه قـــد عرفـــتُ مكانـــه

ولكـــن بـــلا قلـــب إلى أيـــن أذهـــب؟

بعد تردد كبير، قررت النفخ على الجذوة الحية التي لا تنطفئ في تنُّور هـذه القصيدة بيانا لإشكالات معرفية وتأويلية، مع تتبع جمالية التصوير فيهـا وأثـره العميق في النفس. كما ارتأيت أن أجعل من هذا النص ذريعة لإثارة إشـكالات استعارية كانت هي منطلق إعادة الاطلاع على ما كتب في موضوع الاسـتعارة. غير أن هذا التردد كان مصحوبا بما يبرره إذا شرعنا في فهم النص مستأنسين ببنيته السطحية القريبة، وغرضه الواضح الذي تفصح عنه اللغة. أمر قد يضع الدارس في وضع تأويلي حرج، لا دخل فيه لتوهم موقف رافض لتجربة الغزل العذري.

فضلا عن هذه الاعتبارات أطمح إلى تدقيق بعض إجراءات تدبير قراءة النصوص وإقرائها، وبالأخص ما يتعلق بالافتراضات التأويلية، وتباين الفهوم، وأهمية التـرجيح بالقرائن السياقية والنصية، وأهمية القراءة الخطية (اللغوية والنحوية والبلاغيـة) لمـلء بياضات المعنى، وعدم التحليق بعيدا عن الدلائل النصية، ثم بعد ذلك استثمار الأنـوال القولية المهاجرة لتوسيع المنظور التأويلي للاستعارة، وبناء مقترحات بلاغيـة تناسـب الحياة المتطورة التي نعيشها بأدوات جديدة ومنظورات سيميائية راهنة.

تداعت هذه الحاجيات البيداغوجية والمعرفية بقوة لتدفعني للبحث عن النص وطباعته، ثم توزيع نسخ منه على فريق من أساتذة اللغة العربية، وكذلك كـان. وضعت لأول مرة تجربتي التأويلية وتجربة كل من حضر -دون إعداد- على محك الاختبار في تفاعل تلقائي جماعي. سباحة حرة في المياه الباردة دون تدريب سابق، تجربة كنت فيها القائد والمستكشف لنص لم يحط بعد عصا الترحال بين مجـرات دواوين الشعر، ولذلك قررنا متابعته بقراءة تأويلية شاردة، عسى أن نحاصـره في مدينة من مدائن الأدب، ونتمكن من كشف الحجب عن عصيانه وتفلته.

لم أعلن عن موقف مسبق أو حكم جاهز، اتخذت مسافة مع النص تسـمح لجميع من حضر أن يتخذ زاوية النظر التي يريد، فكان تجريب أكثر من نمط مـن الإلقاء الشعري، كان أنجحها الإلقاء الذي نضج في رحاب السماع الصوفي تحت ضوء شموع المبتهلين. ولعل حلقات الإنشاد والتطويع الإيقاعي منح هـذا الـنص

مسحة أخرى يطرب لها ويتلذذ بها روحيا وتلقائيا كل من يسمعه، إلقاء قريب من مواويل الملحون المعروف بالمغرب، ذو تلوينات إيقاعية تهز النفس فترقى في أدراج الروحانية العالية المتجاوبة مع مضامين اللوعة والفرقة والحرقة ولواعج البعد التي تعلن عن نفسها بوضوح، مما قد يجعل من يسمعه يقضي أياما في التغني به؛ فالنفوس مثل بحيرات جافة ترقب المطر، وها هو يأتي هذه المرة عبر الكلام الأدبي. بلا شك نحن في حاجة إلى الشعر، وبالضبط إلى الشعر الذي يبلغ أقاصي الأرواح العطشى فيسقيها ماء المعاني، وأبلغ المقاصد، وحقائق العرفان.

درج الحيرة والسؤال

التحمت الروح عبر إيقاع النص بمعنى غير مكتمل، يظهر من وراء حجاب شفاف ولا يكاد يبين، وكذلك هو المعنى في كل قول شعري، أليست هذه القوى الشعورية الانفعالية بالأشياء والمواقف والتعبير الجميل هي التي تشدنا إلى العالم الذي نحلم به؟ في قراءاتنا نتعلق دائما بالأعمال الأدبية الأكثر تأثيرا وصدقا، وبالأخص الصادرة عن روحانية عالية، مقابل ذلك لا نتقبل أي خطاب متكلف لا علاقة له بالجانب الخفي والقوي والمستور من أرواحنا، بل قد نتوقف عند الصفحات الأولى كحصان أشرف فجأة على هاوية مخيفة فجمح مزمجرا.

السؤال الآن في هذه التجربة التأويلية التلقائية غير المتقيدة بأي خطوات، والمتحررة من سلطة أي توجيه: ألسنا مضطرين في كثير من الأحايين إلى تجربة القراءة ذات المنظور الواحد، والبعد الأقرب إلى نفوسنا؟ لعل الإمساك برأس الخيط يسمح بجر بقية الخيوط.

سمينا هذا- فيما سبق -بالإبحار التأويلي[4]، وهو يبدأ من نقطة تموج دلالية صغيرة، ثم تكبر شيئا فشيئا، مثلما تكبر تموجات مائية انطلاقا من قطرة ساقطة في صمت الليل داخل بركة الفهم المنتظرة الملآى بالأسرار والمفاجآت. يشجع هذا اللون من التناول أحيانا على قراءة النص وما بعده دون إملاءات أو التزامات،

(4) انظر مقدمات "البنى التقابلية".

لكنه لا يعني تجاوزا للأنوال المنهجية المقترحة من قبل أو شَكًّا في جدواها، والتي تظل صالحة للعمل بها في مقامات أخرى، وإنما أخذ أمر التجربة التأويلية على خيارات مفتوحة تنطلق من طبيعة النص اللغوية أو المضمونية أو الجمالية. يحسن في مثل هذه الحالات اتخاذ منطلق واحد للقراءة، وتدوير مجمل الجهد التأويلي عليه.

يفضي الارتفاع الإيقاعي إلى ارتفاع مستوى التفاعل الروحي، وإلى تجاوب وتساؤل وافتراضات تأويلية حول معاني النص، هذا النص الفياض الذي يتدفق مثل ماء عين باردة من باطن الأرض البعيدة، ثم يتكاثر في مجاريه البعيدة ليتحول إلى شلال هادر قادم من أعالي الجبال، وبقدر ما يحمل من الإغراء والهيبة والصدق والصفاء، فهو يدعو إلى التساؤل لمعرفة أسراره وملهمات صاحبه، ولأمر تفرضه المعارف القبلية والعادات القرائية يذهب الظن إلى أن الأمر يتعلق بشاعر يشكو ما لحقه جراء المحبة الإنسانية الخالصة، أو هِجران يتحول إلى نار لا تترك إلا الرماد في مواقد القلب، ولعل أصله كان كذلك قبل تسخيره شعريا لقصدية أخرى.

يحدث هذا عادة نتيجة عادات قرائية راسخة، تغذيها آثار نماذج أدبية شهيرة عبرت عن مثل هذه التجربة، وهذا ما يجعل مركب الفهم يضطرب على بحر التأويلات المتماوجة العنيفة والقلقة. ولِمَ لا يكون ذلك كذلك وكل لغة النص ناطقة بألم المحبة؟ يحسن في مثل هذه التجربة التأويلية عدم التسرع في إصدار حكم، لأن فعالية القراءة وأهميتها لا تتعلقان بحقائق ثابتة ينبغي الوصول إليها، وإنما بعملية تربص بالنص، أو مناورات تأويلية دورنا فيها هو تحريك دفة القراءة نحو أبعاد مختلفة من التلقي الجمالي.

ليس من الأهمية القصوى أن نجزم بشيء الآن، وإنما أن نفتح جبهات عدة لتلقيات شتى مع اللغة والصور والاستعارات والتشبيهات، وتبيين بعض أسرار صناعة النص، لا خلاف- بين الذين تلقوا هذا النص في هذه التجربة التأويلية الجماعية على الأقل- أن القصيدة تحمل شحنات فريدة من الانفعال، وقوة تعبيرية في البوح والكشف عن ألم تجربة العشق، وما يفيض به من تعلق بالمعشوق.

تَــــذَلَّلْتُ فِي الْبُلْـــــدَانِ حِـــــينَ سَـــــبَيْتَنِي
وَبِــــــتُّ بِأَوْجَــــاعِ الْهَــــوَى أَتَقَلَّـــــبُ

درج الفرضيات

وهذه فرضيات عامة نجعلها دَرْجا للفهم وتوجيه التحليل:

الفرضية الأولى: النص بوح يصف تجربة محبة إنسانية قوية.

الفرضية الثانية: المحبة المعبر عنها داخلة في المحبة الإلاهية ونماذج هذا كثيرة في الشعر.

الفرضية الثالثة: يمكن أن يكون النص كشفا عن تعلــق روحــاني عميــق بالنبـــي ﷺ.

الفرضية الرابعة: في النص تركيب لتجربتين: صوفية أصلية وغزلية داعمة.

الفرضية الخامسة: الشعر الصوفي يستعير المنوال العذري قولا وتجربة...

وغير هذا مما قد يكون أبعد مما ذكرنا. يحسن دائما طرح فرضيات مقبولـــة، مرجعها مشيرات لغوية أو مضمونية أو جمالية أو سياقية، أو من النماذج المعروفـــة في القول الأدبـــي حتى نقلص من حجم الخسارات التأويلية، ومن جهد البحـــث والتنسيق لرد التجربة إلى معان مقبولة تؤيدها دلائل من النص، أو من الســـياقات التي تؤطره.

درج الفهم الظاهري

لست معنيا -هذه المرة - بنتائج هذه التجربة التأويلية التي أتقاسم ربحهـــا أو خساراتها مع الذين حضروها. إنني أصف ما جرى، وما يحتمل أن يحصـــل عنـــد غيرنا من محاولات تأويلية.

مما توصلنا إليه بالتجريب أن القراءة الخطية في مستوياتها اللغويـــة والنحويـــة والبلاغية لها أهمية في طَرْق أبواب المعنى، ليس الغرض هنا تقديم منهاجية محـــددة، وإنما فسح المجال لبعض الفوائد اللغوية، التذلل، السبـــي في تعلقها بضمير المتكلم الذي يحيل على الشاعر وهو يصف تجربة التذلل والترامي في البلدان بسبب الوقوع

في أسر المحبوب. إنها النواة الدلالية التي سيتم توسيعها قولا، بفعل التطالبات التفسيرية التي تستدعيها التجربة القولية، إنه فرط الهوى عند المحبين إذاً هو الذي يجعلهم يتقلبون في مراقدهم بعد أن أبى النوم القدوم إلى أجفانهم، لا ينام إلا هانئ البال، أو من اكتملت له بهجة حضور من يحب، وما يحب. أو من زهد فيما عند الخلق طمعا في ما عند الخالق. السبي حرمان للحرية[5]، سلب للقرار والاختيار، ونتاجه التذلل والإحساس بالضعة والهوان والتنقل في البلدان تشردا وقلقا.

تختزل هذه العلاقات كلاما كثيرا ووصفا مستفيضا عن تحول الشاعر من بلاد إلى أخرى، تعب وتشرد وتسكع وحرمان ووله.. وضع شبيه بحالة العشاق المعذبين في الأرض أملا في لحظة لقاء، تجارب كثيرة معروفة في الأدب العربي القديم تصف أحوال هؤلاء الذين راهنوا بكل شيء على لا شيء، أ هو تكرير لتجربة المراهنة بكل شيء على لا شيء، أم نقل الكلام من حال إلى إبدال، بالمراهنة ببعض الشيء على كل شيء؟

فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانِ عِشْتُ بِوَاحِدٍ
وَأَتْرُكُ قَلْباً فِي هَوَاكَ يُعَذَّبُ
وَلَكِنَّ لِي قَلْباً تَمَلَّكَهُ الْهَوى
فلا العَيْشُ يَهْنَا لِي وَلا الْمَوْتُ أقْرَبُ

يتمنى الشاعر العاشق المعذب بالهوى لو كان له قلبان واحد لضخ دماء الحياة، والثاني ليفنيه عذابا في المحبوب، لكنه سرعان ما يستدرك أنه لا ينتفع بذلك الأمل، لتظل الذات معذبة بقلب واحد يسكنه التعلق بالمحبوب، وهو بين حالين لا خلاص في أي منهما؛ فالعيش غير هَنِيٌّ، والموت لا يأتي، إنه منزوع فيهما من الإرادة، غير مالك لقرار خلاصه.

---

(5) الذُّلُّ: نقيض العِزِّ، ذلَّ يذِلُّ ذُلاًّ وذِلَّة وذَلالة ومَذَلَّة، فهو ذَلِيل بَيِّن الذُّلِّ. وتَذَلَّل له أي خَضَعَ. (لسان العرب) مادة ذلل. سَبَى العَدُوَّ سَبْياً وسِباءً: أسَرَهُ، (القاموس المحيط) مادة سَبَى. السَّبْيُ والسِّباءُ: الأَسْر (لسان العرب) مادة سبي.

كَعُصْــفُورَةٍ فِـــي كَــفّ طِفْـــلٍ يَضـــمُّهَا

تـــذوق ســـياق المـــوت والطفـــل يلعـــبُ

فَـــلاَ الطِّفْـــلُ ذُو عَقْـــلٍ يَحِـــنُّ لِمَـــا بِهَـــا

وَلاَ الطَّيْـــرُ ذُو رِيـــشٍ يَطِـــيرُ فَيَـــذْهَبُ

ثم ينتقل لمزيد بيان حاله في التأرجح بين وضعين غير مريحين بعصفورة في يد طفل لاهٍ يزمُّها، هو يلعب بلا إحساس ولا عقل عاقل، وهي تتألم محرومة من أي قدرة على الطيران. التشبيه تقريب للصورة، حسبكَ ذلك الآن، فلا تبحث عـــن التطابقات: من هو هذا الطفل بالضبط؟ وهل الشاعر عصفور ضـــعيف إلى هـــذا الحد؟ وهل وُفق في اختياراته التشبيهية؟

تَسَـــمَّيْتُ بِـــالْمَجْنُونِ مِـــنْ أَلَـــمِ الْهَـــوى

وَصَارَتْ بِي الأَمْثَالُ فِـــي الْحَـــي تُضْـــرَبُ

فَيَـــا مَعْشَـــرَ الْعُشَّـــاقِ مُوتُـــوا صَـــبَابَةً

كَمَـــا مَـــاتَ بِـــالْهِجْرَانِ قَـــيْسٌ مُعَـــذَّبُ

نتاج هذا العشق "غير المتكافئ" خروج من أحوال العقل إلى أحوال الجنون، وفقدان الصواب وتلقي الإهانات وسماع ألوان الشماتة، مما يزيد من عمق المأساة، لكن أي مأساة؟ أليس العذاب في أمر نبيل مما يُحمد. إنه الإحساس بـــالوقوع في تجربة فردية ظاهرها مُذل فيحصل الشعور بالاتهام بالجنوح إلى حافة الجنون، ومن ثمة تأتي الدعوة إلى المشاركة الجماعية، إلى الارتماء في نهر الصبابة ارتمـــاءً جماعيـــا يكون شبيها في صفائه وإخلاصه بموت قيس بني عامر الذي أخلص لحب ليلى إلى النهاية. ولكن أهو حب المخلوقين هذا الذي يدعو إليه الشاعر؟ ولماذا يلح علـــى هذا التشارك الجماعي، وقد ضاق هو به ذرعا؟

هذه إذًا دعوة إلى تأويل جماعي لأحوال النفوس وسَوْقِها إلى الشـــرب ممـــا شرب منه الشاعر المُحب، إلى تَشارُك تجربة الفهم واستكشاف المعـــاني، وربمـــا الذهاب بعيدا في مجرات النصوص التائهة مقتفين عمل النُّساخ، أو سطو الشـــعراء في زمن السيبة الأدبية، أو لعب اللاعبين بالنصوص، وبلا شك سنصل إلى حقيقـــة

أن كثيرا من النصوص أصبحت مسبية متذللة في بلدان الدواوين، وهـي شـبيهة بطيور مهاجرة لا وطن لها إلا حيث حصلت عندها الألفة بالمكان وأهله. أو حيث أضحت مادة للتقطيع والأخذ والعزل حسب ما يُراد منها أو لها. كيف يحدث أن مثل هذه النصوص أصبحت مُنَقَّلة بالتجزيء أو متخلى عنها، وكيف يتخلـى أي شاعر عن مثل هذا النص الجميل، إلا إذا ضيع من/ما هو أغلى منه؟؟

طائر لغوي مثل هذا لا يحده مكان ولازمان، ولا يحط منتظرا ما يُفعل به إلا حيث أحس بالأمان ومعنى الحياة الكاملة في أرض من يتغنى به. ثم أليس التأويـل الذي قام به الناسخ أو جامع الديوان هو ما حدد مصير مثل هذا النص في الانتماء إلى كون شعري جديد، وربما إلى واقع احتفالي مثلما يحصل في محافـل الإنشـاد الصوفي.

نشعر بإزاء مثل هذه المدونات أن بعض النصوص متخلى عنـها، لكنـها في الواقع متنازع على منوالها، لقابليتها للاستعمال في مناخ شتى مـن الاهتمامـات: وجدانية، عاطفية، صوفية، تربوية، لغوية... وربما خضعت لتعـديلات جماعيـة إضافية، أو للحذف إلى أن بلغت درجة جيدة من النضج. وهذا أمر حاصـل في كثير من النصوص الشعرية، والحكايات والأهازيج، بل في كـثير مـن العلـوم والفهوم، فصورتها النهائية هي نتاج تأليف جماعي، غير أننا نبحث في كل مرة عن هوية النص، وتحديدا عن صاحبه، أو عن الأب البيولوجي، أو على الأقل آخر من تعلق به النص/الخطاب على التوسيع. في نهاية المطاف، قد نمضي دون أن نولي أهمية للقائل الحقيقي، مادام النص يحمل طاقة شعرية غير عادية ذات بعد إنساني كوني، فيصبح لكل من يسمعه حظ فيه.

درج التأويل العميق

معاني النص واضحة بلا ريب، لكن نخشى أن نتوهم الوضـوح إلى أبعـد الحدود، فنسقط في السطحية المسرفة، أو نسلب التجربة الشعرية ما تستحق مـن الاعتبار التأويلي اللائق بها وبصاحبها في سياقها الروحاني الجديـد. علينـا إذاً ألا نتسرع في استخلاص أحكامٍ ومعانيَ ومقاصدَ انطلاقا من البُعد الواحـد في هـذا

السياق الصوفي. لك أن تنتفض أو تصرخ مستعجلا النتائج والخلاصات.. وماذا يجدي ذلك؟ هذا النوع من النصوص يدعونا بلا ريب إلى قراءة مزدوجة، إلى البحث تحت التبن الذي يحمله النهر، وإن شئتَ قلتَ الرغوة التي هي صابون هذا العراك الحقيقي مع المعاني والمسافات.

لا تنظر إلي هكذا.. أنا مثلك في لجة الماء، وهذا نهر التأويل خبير بمساره بين الصخور والمنحدرات والمنعرجات، ويعرف خبرات السبَّاحين ويُقَدِّر ضعفهم. إذا تعبتَ يمكنك التنحي إلى الضفة، خذ لك متكأً هناك ومستراحا، وتأمل الماء الذي يتدافع أمامك. من قديم الزمان وهو يحفر في قلب الإنسان و لم يصل إلى أي قرار دون أن يتأفف مِثْلَك. إذا كنت من المعاندين جَرِّب السباحة في الاتجاه المعاكس. سيهزمك النهر بلا شك، وإذا استطعت عد إلى أول النهر وارْمِ جسدك ثانية، لكننا لا نسبح في النهر مرتين، ربما فعلنا ذلك في المجرى نفسه أكثر من مرة مثلما نفعل الآن، لكن بالتأكيد ليس في الماء ذاته.

لا شك أن هذه المسارات التي تُفصح عنها هذه التجربة العائمة المتلاطمة على سطح النص انطلقت انطلاقا سليما عندما حرَّكَتها بعض الفرضيات، هي فرضيات لحل إشكال تأويلي فحسب، لفهم النص وفق تجربة الغوص في السياق الاستعمالي، وعدم الاكتفاء بالسطح اللغوي، فالقراءة في مثل هذه الحالة أشبه ما تكون بالسباحة الحرة، لا أحد يُلزم أحدا بشيء، إلا ما ألزم المؤَوِّل به نفسه، ووجد في ذلك نجاعة وفائدة مثلما يجدها السباح في اختيار الوضع الذي يناسبه داخل الماء. القارئ الذي لا يُجيد السباحة لمسافات طويلة، عليه ألا يتذرع بأن الماء بارد أو مالح أو لَزِج.

درج استعارة التاريخ

لعل الوقت حان لتسأل عن صاحب النص، من يكون؟ لماذا لم تعرفنا به منذ البداية؟

أنت كذلك لم تسأل عنه من يكون، وارتميت في عباب النص متلهفا مأخوذا بأحاسيس لا تعرف مصدرها ولا مآلها، أهي لك أم عليك، أم بك تكون لك؟

أحيانا -وربما في كثير من الأحيان - لا نتفقد المفتاح إلا عندما نكون أمـــام الباب، وهذا ما حصل بالضبط الآن. يمكنك أن تنصرف إذا شئت، مكتفيا مـــن الغنيمة بالإياب، ومن لب المعنى بقشره، ومن نصيبك من الصيد بالارتماء في البحر البارد ثم الخروج سالما لا غانما. أما أنا فلا أفعل، فقد ألفـــت الانتظـــار الطويـــل والتذلل بأبواب النصوص.. مَنْ طرق الباب ولجَّ وَلَجَ. أنفترق هنـــا، أم تحـــب أن نواصل إلى النهاية؟ الخواء البارد الذي في عينيك يُظهِر أنك متـــردد وحـــائر. لا عليك... انتظر أو ارتم في ماء التجريب.. لقد علِقتَ بشِباك الأنوال المستعارة.

نحتاج أمرين لمواصلة هذه الرحلة:

الأول: الاقتراب من صاحب القول، أنا لا أعرفه مثلك. عليـــك أن تـــألف البحث بنفسك، فلا تنتظر المعلومات والحقائق الجاهزة...

الثاني: الاطلاع على نماذج من التجارب القولية للشاعر نفسه أو لغيره، هناك نظائر وأشباه، مما يُذَوِّب دهشتك وحيرتك، ويجعلك تستكشف حبات عِقد ديوانه منتظمة، وربما يجعلك الكل تفهم الجزء.

ربما ستقول متأففا: إنك تقودني إلى تقابلاتك ودوائرك الصغرى والكـــبرى، ومراقيك الجسرية الوسيطة.

إذا استنتجتَ ذلك قبل الآن فهو لطيف منك، لكنني لا أســـعى إلى ذلـــك تحديدا هنا. القصد هنا شيء آخر، أنا مجرد مُسَيِّر لتجربة تأويلية جماعية شاردة لا أريدها أن تقف عند القارئ. غرضي من إمساك دفة القيادة -ولو إلى حين- هـــو تبيين كيف ننتقل من إبدال إلى إبدال، ومن نظام توزيع في صـــناعة القـــول، إلى توسيع في صناعة التأويل. ثم إلى اكتشاف قارة في أكوان القول ربما كانت غائبـــة عنك، أو حُجبت عني وعنك.

درج استعارة المعرفة بأحوال الرجال

تروم هذه المحاولة اكتشاف بعض إمكانيات تداول القـــول الشـــعري عنـــد المتصوفة، والتي أخذت من النماذج القولية أحسن الكيفيـــات لأجَـــلّ المقاصـــد والغايات، وأعطت للقول وجهته القاصدة المسدِّدة ليكون ثقيلا عميقا، إنه تجـــاوز

بمعنى ما للقول الدنيوي مهما كان شاعرا إلى القول العلوي العميق وبأجمل الأدوات.

يكفيك هذا الآن؛ لأني أريدك أن تسعد في رحلتك التأويلية، ما لا لذة فيه للروح والقلب يُستغنى عنه، وحضورُكَ مواسم التأويل مُكرها لا يُعَوَّل عليه.

يمكن أن نفترض مؤقتا وفق ما لدينا من المعطيات أن القصيدة واحدة من قصائد ديوان **أبي مدين**، لنفهمْها في هذا السياق النصي أولا، قصدي من عدم الحسم أن تظل الحيرة المعرفية مصاحبة لك، قريبة منك، تحسبا لظهور أي دلائل جديدة. أنا أصف ما يجري في كواليس ذهنية المؤَوِّل. قم لنستكشف معا ما يلي: التسلسل النصي والعرفاني لحياة أبي مدين الدينية وميولاته الصوفية، ويمكن أن تُدرس -وقد ثبت بالقرائن انتماؤها لديوان قيس ابن الملوح- ضمن الإطار الكلي لتجربته. تُغري مثل هذه الرحلة بإثارة بعض الأسئلة حول النصوص المستعارة، أو المتخلى عنها، أو المتنازع بشأنها، أو المَسْبية، وما يصاحب ذلك من قلق معرفي يلازم أي تجربة تأويلية من هذا النمط في أبعادها التربوية وتحررها المنهجي.

ربما كانت محاولة بحث رقمية سريعة كافية للظفر بالبُغيَتَيْن. لا تلمني على الإطالة، ولا تُشَدِّد علي في تفحص المصادر المكتوبة. نُسبت هذه الأبيات إلى شعيب بن الحسين الأنصاري المعروف بـ "أبي مدين"[(6)] من أصل عربي، ولد في قطنيانة بالقرب من إشبيلية سنة 509هـ، وهذه سيرته الطفولية يرويها بنفسه، أوردها أحمد التادلي الصومعي عن ابن الزيات التادلي في "التشوف إلى رجال التصوف" بسند متصل. قال:

"كنت بالأندلس يتيما، فجعلني إخوتي راعيا لهم لمواشيهم، فإذا رأيت من يصلي أو يقرأ القرآن أعجبني ودنوت منه وأجد في نفسي غما؛ لأني لا أحفظ شيئا من القرآن ولا أعرف كيف أصلي. فقويت عزيمتي على الفرار لأتعلم القراءة والصلاة ففررت، فلحقني أخي وقال لي: والله لئن لم ترجع لأقتلنك! فرجعت ثم أقمت قليلا فقويت عزيمتي على الفرار فأسريت ليلة وأخذت في طريق آخر فأدركني أخي قبل طلوع الفجر، فقال لي: والله لأقتلنك وأستريح منك! فعلاني

---

(6) ديوانه، ص61.

بسيفه ليضربني فتلقيته بعود كان معي فانكسر سيفه قِطعا قطعا، فلما رآى ذلـــك بكى وقال لي: يا أخي اذهب حيث شئت.. فذهبت إلى البحر وعبرت إلى طنجة، ثم ذهبت إلى سبتة. فكنت أجيرا للصيادين ثم ذهبت إلى مـــراكش... وأدخلـــني الأندلسُ معهم في جملة الأجناد. فكانوا يأكلون عطـــائي ولا يعطـــونني منـــه إلا اليسير. فقيل لي: إن رأيت أن تتفرغ لدينك فعليك بمدينة فاس. فتوجهت إليهـــا ولزمت جامعها، وتعلمت الوضوء والصلاة وكنت أجلـــس إلى حِلَـــق الفقهـــاء والمُذّكرين فلا أثبت على شيء من كلامهم إلى أن جلست على شيخ ثبت كلامه في قلبـــي. فسألت من هو، فقيل لي أبو الحسن ابن حِرْزِهم"[7].

أخذ أبو مدين العلم عن أعلام كبار في التصوف المغربـــي، ثم سافر للحج، حيث التقى كبار الأولياء والمتصوفة وبالأخص عبد القادر الجيلاني الـــذي لقيـــه بعرفة، وقرأ عليه كثيرا من الحديث وألبسه خرقة التصوف[8]، ثم عـــاد إلى بجايـــة حيث قضى أغلب حياته، فانتشر ذِكره وذاع صيته، وأصبح له أتباع كـــثيرون في التصوف. قال أبو النجم: "كان أبو مدين من أعلام العلماء وحُفـــاظ الحـــديث، وكانت الفتاوى تَرِد عليه في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت. وكـــان لـــه مجلس وعظ يتكلم فيه مِن كل جهة... وربما يموت في مجلسه من أصحاب الحـــب كثير"[9]. قال ابن الزيات في التشوف" كان زاهدا، فاضلا عارفا بالله تعالى. قـــد خاض من الأحوال بحارا ونال من المعارف أسرارا"[10]. سئل عن التسليم فقـــال: هو إرسال النفس في ميدان الأحكام، وترك الشفقة عليها من الطـــوارق والآلام. وقال: من اشتغل بطلب الدنيا ابتلي بالذل فيها. وسئل عن الحب فقال: أوله دوام

(7) ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق: أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ط 1، ص320.
وكذا في أحمد التادلي الصومعي، **المعزى في مناقب الشيخ أبـــي يعزى**، تحقيق: علـــي الجاوي مطبعة: المعارف الجديدة-الرباط، منشورا ت كلية الآداب والعلوم الإنســـانية أكادير، 1996، ص139.

(8) نفسه، ص143.

(9) نفسه، ص143.

(10) ولمن أراد التوسع فلينظر "التشوف إلى رجال التصوف"، م.م، ص319.

الذكر ووسطه الأنس بالمذكور وأعلاه ونهايته ألاّ ترى شيئا غير الله تعالى"[11].

شهد له أهل الفضل بالفضل، وأهل العلم بالعلم، والأخبار الواردة عنه في "المعزى" كثيرة تسير كلها في اتجاه بيان مكانته العالية بين أهل العلم والتصوف. له مؤلفات في التصوف، من بينها "أنس الوحيد ونزهة المريد في التوحيد." وديوان في الشعر الصوفي. توفي سنة 594هـ.

أراك تنكفئ على نفسك، لعلك شعرت بخسارات تأويلية فادحة، بسوء افتراضاتك، وسطحية تأويلك، ألم أحذرك منذ البداية من التسرع؟!

لعلك اقتنعتَ الآن أنك تحتاج لأكثر من مسار قرائي لتحقيق قراءة تأويلية متأنية، وربما اكتشفت أهمية مفتاح تجربة "صاحب الخطاب" الحياتية والعلمية والروحية، ومفتاح السياق، ومقتضيات القول التي لا ينبغي أن تصففها في بداية دراستك للنص عرضا لها فحسب، مبرزا عدد جندك وعُدَّتك، ثم تنساها، أو تتخلى عنها. المادة السياقية حطب صالح لإشعال النار في فُرنك التأويلي باستمرار، ولكنك لم تفعل، لقد تركتَه هناك حتى بلَّله الندى، ولما عدتَ إليه تضجرتَ من الأمر برمته، ثم مضيتَ لحالك، هكذا أنت عجول ومتسرع في الأحكام، ملول من الوقوف بعتبات النصوص. وذلك مصدر خساراتك وأوباتك المتعجلة بحثا عن مائدة تأويلية جاهزة. يا لك من قارئ مُدَلل!

لا عليك، تحمَّل هذا حتى نتغلب على معاناة الاستكشاف الجماعي، فمثل هذه العقبات تحتاج إلى وقفات واستراحات وصبر وتصبر وتصابر. لاحظ إذًا أن البنية السطحية ليست إلا معبرا لبنية أعمق، وأن "الشاعر" كان كريما في المعبرين معا من قصيدته: معبر للمتعجلين وباب لأرباب الحقائق... فأي قارئ أنت ولأي معبر تُعِد فهومك؟

درج استعارة تاريخ المنوال

عرفنا أن الشعر الصوفي أخذ أدوات فنية من الغزليات والخمريات، وهي

(11) المعزى، 146ص. وكذا: طبقات الأولياء، ابن الملقن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 2، 2006.

ليست مُرادةً لذاتها بل وسائل لغيرها، ولعل اختياره كان موفّقا في الجمع بين طاقتين: ما يحرك القلوب من المحبة، وما يحرك العقل من السُّكْر، للتعبير عن حالين يعيشهما أهل الذّكر، وأصحاب الأحوال الربانية، وهي في نهاية التحليل أو بدايته لغة وُظفت في الخمريات أو الغزليات وليست معجما خاصا محتكرا في هذين الغرضين، لأن اللغة حيثما وظفتها أحدثت أثرها وفق المقاصد المرادة. فإذا حاولنا استثمار المفتاحين التأويليين (النسق العرفاني لحياة الشاعر، والنسق المضموني لنصوصه)، سنتبين أن التقابل المنطلق: المحب/المحبوب، هو مجرد تقابل أسلوبي نووي أصلي وقالَبي مستعار لنقل التجربة عبر تقابل وسيط أو جسري: الشاعر المتألم بالمحبة/المحبوبة البعيدة أو المبتعدة أو المُبعدة، بل كذلك بنسخ أبيات كاملة من شعر غزلي قديم لقوتها الوجدانية، ليصبح التقابل المأمول الخفي: الشاعر/حب الله تعالى، أو حب النبي ﷺ، فيكون الشاعر الصوفي قد تحرك بدافعيتين: روحانية صوفية، ودافعية غزلية عذرية، والمشترك بينهما التعلق المطلق وصفاء المحبة والإخلاص فيها. وهكذا تم جعل منوال الشاعر المجنون بحب من لا يحبه، أو من لا يبادله المحبة، أو حب من لا يجد إليه طريقا بمثابة مقابِل موضوعي مستعار، وبتعبير "التقابلية" جسرا تقابليا للعبور إلى الغرض الأصلي؛ فالتجربة العرفانية هنا استنسخت تجربة قيس ليلى بوصفها نموذجا حياتيا دنيويا جعل مقصده حضور المحبوب/المرأة والقرب منها والتنعم بجوارها، ونقلتها من أفق لذة لا تدوم إلى اللذة التي تدوم.

محبة الإنسان للإنسان مطلوبة في الحدود المعقولة، وبالوجوه الكريمة التي تحفل بإنسانية الإنسان ذكرا أو أنثى، والتي يرتضيها الخالق لخلقه. لكن الخلق انحرفوا بها عن طبيعتها، وهذا نموذج من الشعر الصوفي يخرجها من مآسي التعلق اللّذوي القريب، إلى تعلق بمن يدوم حبه، وفي المقامين محبة، غير أن المحبة الربانية أولى في الاعتبار، وأعلى وأجل في القدر بما يتناسب وجلال المحبوب وعظمته. ولذلك تم التعبير بالمعروف في أساليب القول وأنواله الناجحة لبلوغ نوع من المحبة غير مألوف، وهو حب الله تعالى، أو حب الرسول الأعظم. ولعل المحبوب في النص أجلُّ من أن يسمى، وبقدر إخفائه والحديث عنه تلميحا زادت قيمته وعلا فضله، فالتلميح أبلغ من التصريح في هذا النص وفي غيره.

إذا فهمنا خطاب النص في بُعد المحبة الإنسانية- وتلك تربته الأصلية وأرضـــه- فإن جماليته تظل قائمة لعمق المعنى وصدق الإحساس ونبل التجربـــة وصـــفائها، وإن كان الجنون أو الخروج عن المألوف والتذلل في البلدان مما لا ينبغي القبول به إلا علـــى وجه من أوجه المبالغة المتاحة في القول الشعري، لكن محبة الله تعالى ومحبة نبيه الكـــريم -بما يُفني صاحبهما في العبادة والتعلق بمصدر الأنوار اللدنية- تظل المقصـــد الأســـنى الذي لا تنكشف أسراره إلا للعارفين بالله، الطارقين على الـــدوام بـــاب المحـــاورات السلوكية والأخلاقية، والقيام ذِكرا وتوسلا ودعاء؛ لأن أصل المحبة المعرفـــة والإدراك، وكل ما في إدراكه لذة فهو محبوب، فإن زاد ذلك الحب سُمي عشقا. وما في إدراكه ألم فهو مبغوض، فإن زاد البغض سمي مَقْتا[12]. والمستحق للمحبـــة هـــو الله تعـــالى وحده، وحب رسوله من حبه، ثم حب الصالحين والمتقين، لأن أسباب المحبـــة الـــتي تفرقت في غير الله تجمعت فيه؛ ثم إن وجود أي إنســـان ووجـــود كمالـــه مـــن الله تعالى[13]، فلو عرف المرء سبب وجوده، وما به تحقق كماله وغناه وصحته لأحبـــه، والله أولى بالمحبة لقدرته وعلمه وجلاله وجماله وكماله، ولا يوجد كل هذا في الخلق.

أين اختفيتَ؟ أَلَم نتفق على التشارك إلى النهاية في تقشـــير كـــل جَـــوْزات الاستعارة المنوالية في هذا النص؟!

رحل أبو مدين إلى مساجد فاس وتعلم منها، ورحل إلى كبـــار المتصـــوفة واستسقى منهم، ثم انتقل في جغرافيات الشرق الكبير، إلى بيـــت المقـــدس، وإلى المدينة المنورة ثم إلى مكة المكرمة، بل انتقل إلى ممالك العارفين من غير أهل زمانـــه مثل المحاسبـــي والقشيري والغزالي ونهل منهم، وإلى دواويـــن القـــول الشـــعري العربـــي وأنواله المختلفة. ولعل تجربته في تحقيق هذا التعلق الروحي بما ثبـــت في الأخبار والكتب والسير والمدونات، يمكن أن يطلعنا علـــى الأنـــواع العرفانيـــة والشعرية المشرقية التي ركّب بينها، ودليل ذلك أن الروح الغزلية الرقيقـــة الـــتي أنضجها بلاء قيس بني عامر واضحة في أبيات القصيدة، ولعل إعجابه بها هو مـــا

---

(12) انظر ما ذكره الغزالي في أن من يستحق المحبة هو الله تعالى. إحياء علوم الدين، ضـــبط وتوثيق: أحمد عناية وأحمد زهوة، دار الكتاب العربـــي، بيروت، 2010، ص1746.

(13) نفسه، ص1752 وما بعدها.

جعله **يبني عليها بيتا مطلعيا ثم بيتا ختميا**، كما أن الاطلاع على نصوص أبـــي مدين الأخرى يُظهر البون الشاسع بين التجربتين على مستوى العمق الشـــعري، ورقة الإحساس. وقد وقفنا بالفعل في المراحل التأويلية النهائية على نسخة جديدة محققة لشرح ديوان قيس بن الملوح تضمنت هذه المقطوعة[14]:

مَتَـــى يَشْـــتَفِي مِنْـــك الفــؤَاد المُعَـــذَّبُ
وســـهْمُ المَنَايَـــا مـــنْ وصَـــالكِ أقْـــرَبُ
فبُعْـــدٌ ووَجْـــدٌ واشْـــتِياق ورَجْفَـــةٌ
فَـــلا أنْـــتِ تُـــدْنِيني ولا أنَـــا أقْـــرُبُ
كَعُصـــفورَةٍ في كَـــفٍّ طفْـــلٍ يَزُمُّهـــا
تَـــذُوقُ حيَـــاضَ المَـــوْتِ والطفْـــلُ يلْعَـــبُ
فـــلا الطفْـــلُ ذو عَقْـــل يـــرِقُّ لَـــا بهَـــا
ولا الطيْـــرُ ذُو ريـــشٍ يطِـــيرُ فيَـــذْهَبُ
ولِـــي ألْـــفُ وجْـــهٍ قـــدْ عرَفْـــتُ طرِيقَـــهُ
ولكِـــنْ بـــلا قَلْـــبٍ إلى أيْـــنَ أذْهَـــبُ؟

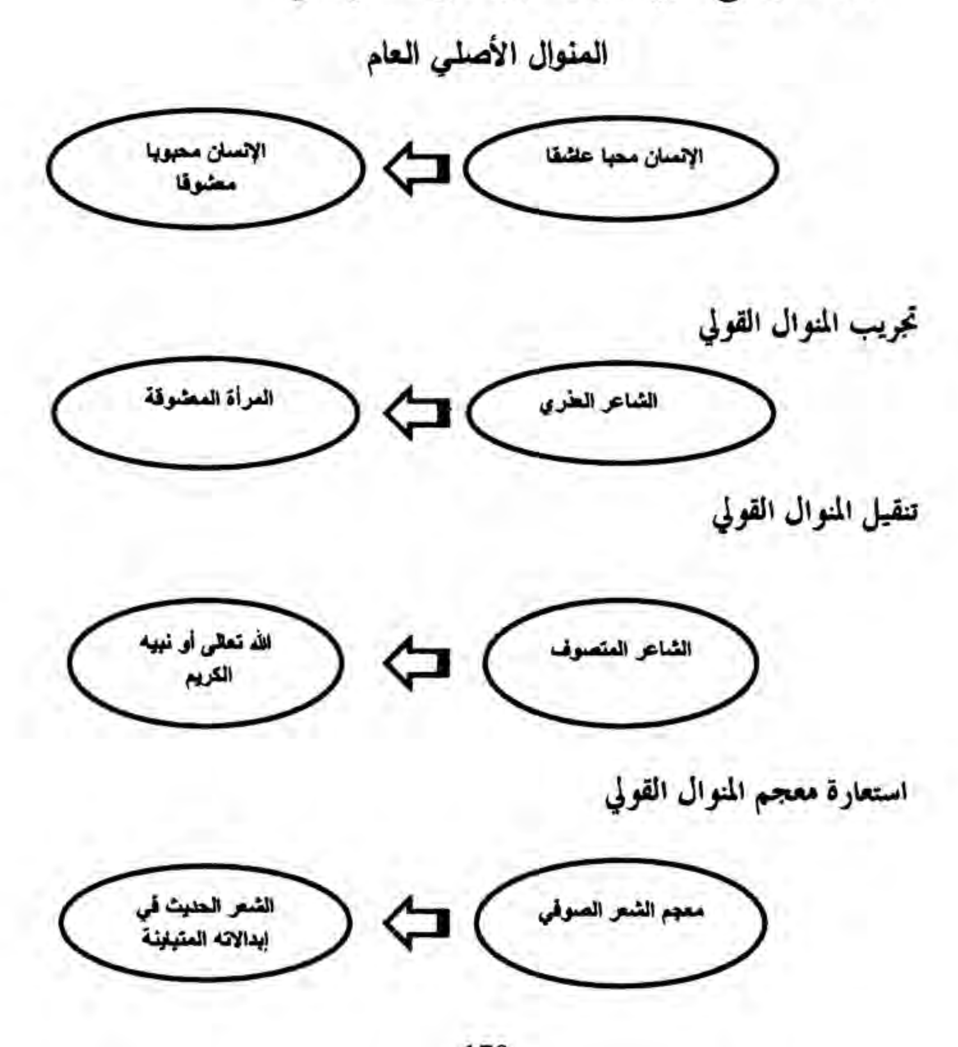
لكننا لا نستطيع أن ننزع التجربة الصوفية العاشقة من كل ما ثبت أنه لها، وهذا الذي هو لها أو بعض مما لها هو استعارة منوال القصيدة الأصلية والإضافة إليها، هـــذا ما جرى بالضبط بفعل قاصدٍ من أبـــي مدين أو بفعل من جمع أشعاره. مما يســـتدعي فتح تحقيق نقدي عن النصوص المستعارة المنوال، أو المأخوذة أو المهربة، أو المنسوبة إلى غير قائلها، ثم يمضي بها الملحنون والمرددون على وفق ما انتهى إليه التركيب المزجـــي الذي ينقل مقاصدها من مقام شعري وإنساني إلى مقام صوفي وعرفاني، وهـــذا هـــو مصدر القلق التأويلي الذي حرك تفاعلنا مع هذا النص منذ البداية.

---

(14) **شرح ديوان قيس بن الملوح**، تحقيق رحاب عكاوي دار الفكر العربـــي، بـــيروت، الطبعة 1، 1994م، ص11.

لعل النصوص التي تطير دوما إلى مواطن الضوء المشرقة في أرواح الناس لتحيا قريبة منهم، هي النصوص الرقيقة المليئة بأحاسيس إنسانية متدفقة بقوة، لكن التشارك الثقافي والقدرة على الاستمداد حرّكتها لدخول تجربة البوح والتعلق بمن هو أهل للمحبة على الحقيقة وأسباب الديمومة. ومن ثمة فاستعارة النص الأصلي منوالا، وترديده في مقام صوفي، ثم التصرف فيه بالزيادة يعد مظهرا ثقافيا يدعو إلى المساءلة والتتبع، لمعرفة مبادئ التنقيل الصوفي، ومقاصده، وكيف أن مقصديات الأفراد أو الجماعات تدفعهما إلى استعارة الأنوال القريبة منهما وبالأخص الأكثر تأثيرا وإشراقا.

بوسعنا توضيح تنقيل الأنوال القولية على الشكل الآتي:



درج توسيع مجال المنوال

إن استعارة منوال الشعر الغزلي للشعر الصوفي كان منطلق الأسئلة التي حركتنا في هذا المشروع الصغير القابل للتوسيع، وهو ما دفعنا لتوسيع دائرة القراءة والاطلاع على متون صوفية متنوعة، للوقوف على معالم الاستعارية في أشعار الروحانيين الكبار أمثال: ابن الفارض، وابن عربي، والنفري..، ومن المغاربة المتأخرين ذوي الشعرية العرفانية العالية التي لم يلتفت إليها أحد: محمد الحراق الحسني[15] ومحمد بن الحبيب الأمغاري[16] في استعارتهما منوال الشعر الصوفي من ابن الفارض[17]، مبنى ومعنى لتماثل التجارب الروحية والفنية، وهي فرصة لبيان خصوبة التجربة الشعرية المغربية في صورتها التقليدية الممثلة لأعلى نماذج الوجاهة والسداد المتناغم مع البلاغة المعرفية الكبرى.

أوقفنا الاشتغال على هذا النص على "نعوت الخمرة في حال الكنزية"[18] لأحمد بن عجيبة الحسني (1747-1809 م) وهو نص في وحدة الوجود يشد الأنفاس لغةً وإشراقات ومعاني. ولطف الأواني -كما يقولون- تابع للطف المعاني، حيث استعار المنوال التصوفي كما عند الشيخ الأكبر ابن عربي. وكان هذا دافعا إلى تأمل علاقة المنوال الخمري المعروف في الشعر العربي القديم بالتجربة الصوفية العرفانية، والتساؤل عن دواعي الانتقال بموجب ذلك من خمرة الجلسة الدانية إلى خمرة الوجود، ومن خمرة الجليس إلى خمرة المعبود، ومن الخمرة قبل التجلي إلى حال الكنزية. وغير ذلك مما نقدمه اختصارا، وتخفيفا على القارئ.

يمكن تعميق تفحص الأنوال الاستعارية في الكتابات الصوفية بالرجوع إلى هذه المتون المتميزة، وهي كثيرة وفي حاجة إلى مقاربات وفق المنظور الاستعاري

---

(15) محمد بن محمد الحراق الحسني، **ديوان الحراق**، (د،م)، (د.م)، (د،ت).

(16) محمد بن الحبيب الأمغاري الحسني، **بغية المريدين السائرين وتحفة السالكين العارفين**، دار الطباعة الحديثة، ط2، (د.م)، (د،ت).

(17) ابن الفارض، **ديوان ابن الفارض**، المكتبة الثقافية، لبنان، (د.ت).

(18) ابن عجيبة الحسني، **تقييدان في وحدة الوجود**، حققه وترجمه إلى الفرنسية: جون لويس ميشون، دار القبة الزرقاء، مراكش، ط1، 1998.

المنوالي المقترح. ونحيل القارئ المهتم بهذا على شعر ابن الفارض لأنه يقدم نموذجا عالي القيمة فيما يتعلق باستعارة المنوال الخمري، وتحويل موضوعه الشعري القديم كما عرفته العرب، وتفاخر به الشعراء منذ الجاهلية مثل امرئ القيس، وطرفة، وأبي نواس، وغيرهم. لقد تغير المنظور الشعري للخمرة باعتبارها شرابا يكمل اللذة الحسية وجزءا من كمال المتع الدنيوية، لتصبح خمرة معنوية تُكَمِّل الهمم الروحية، وتحرك المحبة الإلهية في النفوس، فعرف أصحاب هذا الاتجاه كيف ينقلون هذا المنوال الشعري السالب والدنيء إلى منوال روحاني بان متناغم مع الكون المسبح[19]، وهو ما جعل لأدبهم أثرا بالغا لا يزال مستمرا إلى يومنا هذا.

نصوص كثيرة عاشت بين التخلي والتجلي والتولي حتى وجدت قارئا يتبناها، قد يحدث التخلي من طرف المنتج نفسه، مقابل نصوص أخرى أهملها أصحابها، لعدم اطمئنانهم لمستوى جودتها، أو لعدم وجود أدوات لنشرها، فنسيت إلى زمن آخر، حيث حصل اكتشافها والاحتفاء بها، بعد بَذل جهد جبار للتحقق من صحتها وسلامتها لضمها إلى مثيلاتها من إنتاج الشاعر نفسه. غير أن نصوصا أخرى تخلى عنها القراء والمؤولون لعدم الجدوى، وانتفاء الأهمية، أو لعدم نضجها الأدبي والجمالي، وربما يحدث التخلي عن نصوص متوهجة على مستوى التأويل والفهم والعمل من قِبل سلطات وثقافات تخالفها التصور. وما أكثر النصوص التي تحمل توجيهات إلى الخلق لكنها قوبلت بالتخلي عنها للجهل بها أو للغفلة عنها؛ فالحال صورة لمدى إدراك المنوال.

---

(19) وهذا مقطع من قصيدة لابن الفارض، وديوانه في غاية الشعرية الراقية، وما ذكرناه عن استعارية المنوال الخمري يصدق كذلك على استعارية المنوال الغزلي.

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الحَبِيبِ مُدَامَةً ... سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الكَرْمُ
لَهَا البَدْرُ كَأْسٌ وَهْيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا ... هِلاَلٌ وَكَمْ يَبْدُو إِذَا مُزِجَتْ نَجْمُ
وَلَوْلاَ شَذَاهَا مَا اهْتَدَيْتُ لِحَانِهَا ... وَلَوْلاَ سَنَاهَا مَاتَصَوَّرَهَا الوَهْمُ
وَلَمْ يُبْقِ مِنْهَا الدَّهْرُ غَيْرَ حُشَاشَةٍ ... كَأَنَّ خَفَاهَا فِي صُدورِ النُّهى كَتْمُ
فَإِنْ ذُكِرَتْ فِي الحَيِّ أَصْبَحَ أَهْلُهُ ... نَشَاوَى وَلاَ عَارٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ إِثْمُ...
فَلاَ عَيْشَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ عَاشَ صَاحِيًا ... وَمَنْ لَمْ يَمُتْ سُكْرا بِهَا فَاتَهُ الحَزْمُ
عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ ... وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا نَصِيبٌ وَلاَ سَهْمُ

خلاصات وامتدادات

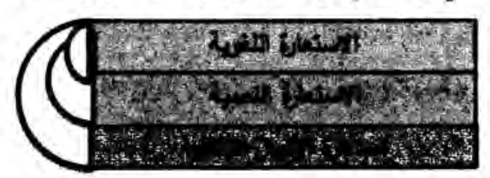
1- لعلك اكتشفت أن بعض النصوص التي كنا نظن أنه تم التخلي عنها هي في حقيقة الأمر نصوص متنازع بشأن ملكيتها واستعمالها، وأن أنوال القول شبيهة بأنوال النسيج الثوبية، ولْنَقُل إنها مناسج قولية، وأن اختلاف مقصدياتنا وأغراضنا القولية تجعل المنوال الواحد قابلا للاستثمار وفق ما هو مألوف. كما أنه بالإمكان تحويل مناسج الأقوال بل نتاج مناسج الأقوال من إبدال إلى إبدال، ومن منوال إلى منوال مقابل مماثل أو مخالف أو تابع أو موحي بالأول. وتبعا لذلك تتحول القراءة التأويلية من قراءة إحياء المنوال الأصلي المعروف إلى اعتباره جسرا يمكن عبوره دون مخاطر تُذكر، انطلاقا من قرائن نصية للشاعر نفسه تؤكد أنه اعتاد استعمال المنوال القولي على ذلك الشكل، أو ربما هو غير مسؤول أصلا عن جمع ديوانه، مما قد يُحقق انسجام الفهوم والتآويل عندنا.

2- تحكمت في بناء النص بالشكل الذي هو عليه، والطريقة التي يتداوله بها أهل الأحوال استعارة كلية لمنوال في القول احتفظت بوسيط/جسر للانتقال وهو الدفقة الشعورية الفياضة اتجاه المحبوب، فاستعيرت أبيات كاملة -وهي قلب قصيدة قيس - للإضافة إليها، فأضحى قالب النص الجديد استعارة كلية من تجربة معروفة إلى تجربة جديدة، من تجربة انتهت بموت صاحبها إلى تجربة غير منقطعة بين مرددي النص في حب الله تعالى وذكره.

3- المستعار حالة شعورية قوية متلبسة بالأهواء، وفقدان الصواب عند كل المحبين على الحقيقة مما يعرفه الناس بالتجريب والأخبار، ومعها بعض أبيات النص الأصلي، والمستعار له مقام الصوفي في علاقته مع ربه، وهي حالة عشق عرفانية لا يدركها إلا أرباب الحقائق والتجربة الروحية، والمستعار كذلك منوال للقول معروف بالغزل الطاهر إلى إطار لقول وجداني صوفي. هكذا يتجاوز التشكل الاستعاري حدود الكلمة والجملة ليصبح استعارة نصية كلية قائمة على استنساخ المنوال القولي واستعارة الحالة الشعورية واستعارة متن أصلي، وهو ما يبينه نص" **تذللت في البلدان**" مثلما هو الأمر في كل النصوص السائرة في هذا الاتجاه، فهي تمثل لونا من الاستعارات النصية الكلية القائمة على استعارة الأنوال القولية، والحالة الشعورية القوية الملازمة

لذلك المنوال، والتعبير بهما عن تجربة روحية جديدة. مقابل ذلك لم تتم استعارة المنوال القولي في القصائد الهجائية أو الفخرية أو الغزل الفاحش لانعدام التناسب، فخلفية التناسب ورهان المقصدية مبدآن تحكما في تحريك الأنوال الخطابية، واختيار أولاها وأقدرها على حمل القصدية الروحية الربانية المجددة، تارة تصريحا، وتارة تلميحا إمعانا في إخفاء الحقائق والعلائق والأسرار.

4 – إننا لا نستعير الكلمة مما عُرفت به في الاستعمالات اللغوية فقط، وإنما نستعير الأشكال القولية بل أجزاء من النصوص لنوظفها في غير ما وُضعت له في الأصل، فيكون الإبدال القولي تنقيلا عن الوضع الأصلي، أو عن وضع معروف، إذ ليس هناك أصل خالص أزلي، وإنما هناك تواضعات لغوية، ثم تحويلات واستعارات لتحقيق إمكانيات أكبر للتعبير والتحرك الإبداعي الحر في مجال القول، والأمر نفسه في مجال استعارات القوالب النصية، والمواقف الشعورية، وهو الذي يقوم عليه القول الأدبي برمته، بل الفني والجمالي في التصوير والسينما والإشهار.



إن تاريخ تجديد الأنوال القولية وتطويرها هو تاريخ استعارات ثقافية، وتنقيل للمنوال من مجال إلى آخر، وإلباس الخطاب حللا شتى تجريبا وتقريبا.



وقِس على ذلك ما شئت من الأشباه والنظائر، وهو كثير في أنظمتنا التواصلية[20]، وفي الحياة الجارية من حولنا، وفي تطور الفنون والآداب، مما يظهر أن القوة الاستعارية حاضرة في كل أشكال التعبير البشري، وأن الأجدى البحث عن حدود بلاغتها في كل المجالات. ولعل في هذا فائدة كبرى تسمح لنا بالنظر في التعالقات الحاصلة بين الأنوال القولية، والقدرة الإبداعية لدى الأفراد لتحقيق تنقيل جيد لعناصر أي منوال من حقل إلى حقل. أمر قد تبدو معه البلاغة القديمة المعتنية بالاستعارة اللغوية عاجزة عن القيام بوصف شمولي ونسقي لتطور نماذج القول لبيان الترابطات والتشعبات بينها، ومن ثمة الحاجة إلى تأويلية شاملة تُقابل بين الأنوال والأنساق بدءا من أنظمتها اللغوية الصغرى داخل الجملة إلى أنظمتها الموسعة داخل الثقافة والكون.

وإلى نص آخر متخلى عنه أو متنازع بشأنه، أو مُتَحلى به، أو منقول من منوال إلى منوال.

(20) ويمكن التمثيل لهذا كذلك من المجال الإشهاري، بالمنوال الشعري التصوفي في قصيدة "الصينية" في أصلها الشعبي الدارج، ثم تحولت في تجربة "ناس الغيوان" إلى تعبير عن حالة غنائية رافضة ضمن الأغنية الجديدة في السبعينيات وغليانها الاجتماعي والسياسي، وسنواتها الرصاصية والجمرية، ولما عَرفت هذه الأغنية نجاحا بإيقاعها الجذاب ودفقاتها الشعورية المسكونة بالأحوال الصوفية، تمت استعارتها في وصلات إشهارية لنوع من أنواع الشاي.

الفصل الثامن

استعارة الأنوال التأويلية ودورها في بناء الثقافة

تقديم

سيكون من المفيد أن نبين قدرة المؤولين البلغاء في مجال التأويل الديني على صناعة أنوالهم التفسيرية بدءا، وعلى تطويرها ثانيا باستمداد الأدوات والمناهج ونتاج علوم اللغة، وعلى تقاسم نتاج عملهم على **الكتاب العزيز** وفهومهم له. فإذا اعتبرنا المنوال هو النموذج العملي الذي يختاره المفسر لفهم القرآن الكريم وبيان معانيه، فإن هدف هذه المقاربة هو تتبع حركة التفسير الخاصة بالقرآن الكريم لبيان كفايات المفسرين الناضجة في وضع معالم الأنوال التأويلية، أو في استعارها، أو الاستفادة من نماذج قائمة، أو النسج على منوالها، أو محاولة تخطيها، أو استنساخها، أو انتقادها وتقديم أنوال بديلة. وكما كشفنا الحُجب عن استعارة منوال التعبير الشعري، واستعارة مناويل كثيرة في حقول مختلفة علمية وفنية وأدبية ورقمية، سنبين كيف تُستعار الأنوال والطرائق التأويلية، وكيف حصل الاجتهاد في تجديدها وتطويرها، وكيف تتقاطع فيما بينها انطلاقا من التفاسير، واستئناسا بمقدمات الذين قاموا بتحقيقها لمعرفة أصول هذه الأنوال.

من شأن مثل هذه المقاربات أن تبين شكلا آخر من الحركات الاستعارية الكبرى التي ظلت تعمل في التأليف الإسلامي والعربي، وفي تشكل التأويليات القديمة؛ فكل منوال تأويلي تحركه قصديات وبواعث، وله هيآت وتشكلات وامتدادات، فلا يكفي أن نؤرخ لعلم التفسير، ورسم الخريطة الزمنية، والجغرافيات المعرفية أو العلمية التي نشأت فيها التفاسير أو غيرها من العلوم، وإنما نحتاج إلى بيان المبادئ التي تحكمت في السلسلة الكاملة لمجموع المؤلفات في علم من العلوم وما واكب ذلك من استعارات معرفية جوالة. وما نذكره هنا عن التفسير، يمكن

تطبيقه على الأنوال الأصلية أو المستعارة في مؤلفات علم النحو، أو البلاغة، أو الفقه، أو الأصول، أو التاريخ؛ فالاستعارات الثقافية حركة معرفية مسافرة في الزمن، تخترق الأجيال والقرون والأقران، تنفتح على علوم الآخرين، تأنس بما لديهم، ثم تؤوب بمادة منوالية جديدة تعيد صياغتها وفق منوال آخر، فيحصل ما يشبه التهجين في عالم النبات، ويصبح للثمار مذاق جديد، ولون جديد، وشكل مباين. كما قد يكشف التحليل **بالنموذج الاستعاري** عن طبيعة المرجعية المتحكمة في التأليف، وأدوات المؤلفين، ومقاصدهم العلمية، وعن رغبة أهل كل علم في التميز، والتجديد، وارتياد آفاق جديدة في مجال تخصصهم.

استعارة التأويلات

في المجال التأويلي عامة تُستعار الفهوم والتأويلات، فالمُؤَول اللاحق يستعير من المؤولين السابقين أخذا أو نقلا، تصريحا وتلميحا، ويجري هذا في التأويل الديني (التفاسير) والتأويل الأدبي (الشروح ودراسة الأدب)، ومن يقرأ التفاسير القرآنية يجد استعارات تركيبية لفهوم المفسرين السابقين. وهي ميزة امتازت بها الثقافة الإسلامية والعربية باعتبار أن التآويل هي نتاج مشترك لذكاء جمعي. إنها ظاهرة طاغية في التفاسير يصعب ضبطها بمسمى الاقتباس، أو النقل أو الأخذ، **فهي جريان استعاري واسع المدى** يشكل سمة ملحوظة في بنية التفاسير وخطاباتها يقوم على **تحويل قاصد ومنهجي** من بنية معرفية أصل مستعار منها إلى بنية تفسيرية جديدة مستعار لها بمقتضى **التوافق والتناسب والتعالق وتقاسم الفهوم** والتجارب التأويلية. وسرعان ما يتحول المستعار بدوره إلى بنية أصل قابلة لاستعارة. أمر تكاد تكون معه **التأويلية القرآنية** بمثابة نهر استعاري للذكاءات المتعددة، يستمد من المنابع التأويلية الكبرى ويمد الروافد التي يجدها في طريقه. إن حركية الاستمداد والإمداد أو التعاور قائمة على تواضع ثقافي يؤمن بدور الاستعارات المعرفية في بناء الخطاب الديني ونشره وتداوله. ونتاج هذه الحركية المستمرة إلى يومنا هذا سيرورة متنامية من بناء المعاني والفهوم تجعل المواد المستعارة أدوات للاستدلال على تخريج تأويلي أو إمكانية من إمكانيات الفهم، أو منوالا كاملا يُحتذى في العمل.

تعكس التفاسير في الثقافة الإسلامية والعربية أقوى نموذج لاستعارة المعاني والأدوات والمواد المعرفية من كل ما أنتجته الثقافة العربية لغويا وبلاغيا وشعريا وتاريخا. التفاسير مهد الاستعارات المعرفية المتفاعلة، حيث تتساند الأدوات المستعارة في عمل المفسرين وفق منطق الجواز، ومنطق التعاضد، والاستدلال المرجعي، وترافد العلوم.

استعارة الأنوال

يقدم لنا مؤرخو التفسير الإسلامي مجموعة من الطرائق التفسيرية والنماذج، منها ما جاء على المنوال النبوي، والتفسير النبوي هو كل ما ورد عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير في بيان معاني القرآن[1]، وهو منوال يُؤَوِّل بالعمل، مثل التطبيق الفعلي لقوله تعالى: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾[2]؛ فقد كان عليه السلام إذا بلغ البيت استلم الركن اليماني فرمل ثلاثا، ومشى أربعا، وصلى ركعتين خلف مقام إبراهيم. أو بالإقرار والقول المفسر مثل قوله عز وجل: **المغضوب عليهم**: اليهود، **والضالين**: النصارى. ولذلك جعل علماء القرآن هذا المنوال أحق أنوال التفسير بالاتباع، بعد التمحيص والتثبت من أمر الروايات الضعيفة. وكلام النبي ﷺ هو تفسير لما جاء في الخطاب الرباني مثل التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، ولذلك جعله المفسرون عمدتهم في بيان مراد الله.

ومن أقدم المناويل في التفسير طريقة ابن عباس، وهي تقوم على الإخبار، والاستئناس بالشعر. ومنوال الإمام أبي الحسن مقاتل بن سليمان الأزدي (ت150هـ) وهو من كُتب التفسير الأولى التي وصلت إلينا، ويقوم على الجمع بين النقل والعقل، ويربط بين معنى الآية ونظائرها في القرآن والسنة[3]. كما يعتمد على

---

(1) خالد بن عبد العزيز الباتلي، **التفسير النبوي**، مقدمة تأصيلية مع دراسة حديثية، دار كنوز إشبيليا الرياض، ط1، 2011 ج1، ص55، وقد أورد أمثلة كثيرة.

(2) البقرة، 125.

(3) تفسير مقاتل بن سليمان، تح: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002، ص10.

الروايات الإسرائيلية، ويتميز ما أنجزه باليسر والسهولة. ثم منوال عبد الملك بن جريج (ت149هـ) الذي أورد الأقوال التفسيرية على علاتها، وعقب كل قول بما ذُكر فيه من تعديل أو تجريح، وهو كذلك منوال يقوم على جمع الأقوال بأسانيدها.

وأما منوال يحيى بن سلام (ت200هـ) فهو منوال تفسيري سار عليه الطبري، ويعتبره ابن عاشور[4] الحلقة المفقودة التي استفاد منها الطبري في بناء منواله التفسيري النقدي، أو الأثري النظري. من مميزات هذا المنوال كما أشارت إلى ذلك محققة الكتاب[5]: اعتماد الأسانيد، واللغة، وعلوم القرآن، والروايات، والتفاسير الكثيرة ووجوه التأويل، وذِكر الأحكام الشرعية، والتعليل النحوي، والفوائد المعنوية الناتجة عن النظم الجملي، فضلا عن خاصية النقد والترجيح. إنه يمثل مرحلة الانتقال من **منوال النقل** إلى **منوال الاستنباط** الذي يستعيره الطبري من تفسير يحيى بن سلام[6] كما بينت ذلك الاختيارات المنهجية التي اعتمدها.

مع الطبري تغير منوال النقل، والتفسير بالمأثور إلى منوال تفسيري يرتبط بعلم الحديث، ويدقق ما فيه من روايات وإسناد، إذ طغى منوال النقل والتبس بالوضع واعتُبر كل مذكور مأثورا (أسمار القصاصين، أخبار اليهود والنصارى، تاريخ العجم...)، فتفشى ذلك وكثر وأعرض الناس عن التفسير بالمأثور[7]، ثم تحركت آلية النقد والتمحيص، لينصهر **منوال أهل الأثر بمنوال أهل النظر**. ومما يختص به منوال الطبري (ت310هـ): اعتماد ترتيب الآي في المصحف، وتناول الآيات كلها بلا استثناء، وذكر الأسانيد، والروايات المطولة، وحضور التأويل اللغوي والبلاغي، والنقد والمحاججة اللغوية والمنطقية، واعتماد الفقه وملاءمة الأمصار، والاستناد على التخريج النحوي لتوجيه القراءات، وتغليب النظر على الأثر، وحضور التدقيق والتحقيق محل النقل والتدوينات المأثورة.

---

(4) محمد الفاضل بن عاشور، **التفسير ورجاله**، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966، ص27.

(5) تفسير يحيى بن سلام، تح: هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص15.

(6) بيَّن هذا الأمر محمد الفاضل بن عاشور، وأكدته محققة التفسير، م.م، ص17.

(7) التفسير ورجاله، ص39.

منوال أهل الكلام

أتاح للمتكلمين رسوخ قدمهم في علم الكلام، وفي علوم اللغة والبيان بناء منوال متميز في تفسير القرآن الكريم، ولكنه منوال تلبس بعقائدهم وفلسفتهم كما عند الرماني والباقلاني والقاضي عبد الجبار... مستعيرين المنوال البلاغي لبيان الإعجاز القرآني، لكنهم لم يتمكنوا من إخراج الفن البلاغي من البعد النقدي التذوقي إلى البعد العلمي المنهجي[8]، حتى جاء الجرجاني فمنح المفسرين أدوات بيان الوجوه البلاغية المحققة للإعجاز في التراكيب القرآنية وهو ما يتحقق به مِلاك التأويل، وقد انبرى لذلك مفسران كبيران مطلع القرن السادس الهجري وهما: جار الله الزمخشري (ت538هـ) في **الكشاف** على المنوال الحنفي المعتزلي، وابن عطية الأندلسي (ت542هـ) في **المحرر الوجيز** ممثلا للمنوال المالكي السني.

منوال الرازي (ت606 هـ)

كل منوال تأويلي هو نتاج استعارات، وتفاعلات معرفية، وتراكمات تاريخية، ومؤثرات ثقافية واجتماعية، فهو ينمو بسبب أدوار خارجية ومؤثرات شخصية. كما يظل قابلا للاستعارة الكلية أو الجزئية من قبل منوال آخر يعمل في الحقل التأويلي نفسه، أو في حقول معرفية مجاورة. وهكذا يمكن اعتبار منوال الرازي مثالا لهذه الحركات الاستعارية غير المصرح بها، فهو نتاج انصهارات معرفية عديدة امتزجت فيها الحكمة اليونانية، وعلم الكلام، والأصول، والفقه الشافعي، وعلوم اللغة العربية. وقد أصبح منواله في التأليف وعمل التأويل منهجا تعليميا ذائع الصيت "بلغت به الحكمة القرآنية أوجها في أفلاك الحكمة الإنسانية العامة"[9]. وهو منوال بديع لرقي الثقافة الإسلامية، ينم عن عبقرية نادرة يكتشفها قارئ "التفسير الكبير"[10]. إن الغاية من صناعة المنوال التأويلي التركيبي الذي

---

(8) السابق، ص48.

(9) نفسه، ص68.

(10) الرازي، **مفاتيح الغيب**، دار الفكر، بيروت، 1401هـ.

تتفاعل فيه آفاق معرفية كثيرة هي بيان أن الحكمة القرآنية أرقى سائر طرائق الحكمة الفلسفية التي تسعى إلى هداية العقل البشري، ولذلك سخر الرازي كل المعارف المتاحة في زمنه لبناء خطاب شديد التدقيق والتفريع.

جاء منوال الفخر الرازي مختلفا عن منوال أهل الاعتزال (الزجاج، الشريف المرتضى، الزمخشري..)، الذين غلّبوا الحكمة اليونانية، واهتموا بالنكت البلاغية، وتحليل البنى النحوية، والأسلوبية، وتعمقوا في استغوار روح الهداية التي جاء بها القرآن عبر الاستدلالات التفصيلية، لما للدلائل الكثيرة من أثر في تقوية اليقين. وهو منوال يرى بأن الإعجاز القرآني لا ينحصر في البلاغة وحدها، وإنما تعد الغيبيات والمسائل العلمية جزءا هاما من إعجازه[11]، فتميز تفسيره البديع بالاستطراد والكثرة، وبالغنى والتنوع، وتعدد المرجعيات التأويلية. ويعد بين الأنوال التفسيرية إضافة كبرى مثيرة للانتباه، محوجة إلى التأمل والمدارسة لإدراك أنساق الإبحارات التأويلية، وكيفيات الانتقال بين العلوم والمعارف، وحسن التنظيم والتقسيم، وحركة عقل المؤوِّل في تتبع الفوائد انطلاقا من الذِّكر الحكيم.

إن التفسير باعتباره كشفا لمعاني القرآن وبيانا للمراد منها[12] هو العلم التطبيقي الذي استطاع أن يستعير بسلاسة أدوات العلوم المكتملة لبلوغ مقاصد كلام الله. وبعد تراخي الزمن بالتأويلية العربية -فيما يرتبط بالبواعث العصبية أو المذهبية أو الدوافع التي حركتها أو دفعت أصحابها إلى التأليف على هذا المنوال أو ذاك- سيجد المقبل على التفسير منجزات تأويلية عظيمة القيمة، وسيفيده التحليل المحايد والمتجرد من الأهواء بنقط القوة في منوال الزمخشري الذي لا غنى عنه للتأويلية القرآنية لقوته وعمقه وصلابة أدواته اللغوية والبلاغية[13]، وبنقط القوة في تفسير الرازي لإبحاراته المعرفية وقدراته الاستدلالية العميقة، وتفصيلاته الكثيرة

---

(11) السابق، ص77

(12) عبد الرحمان بن محمد الحنبلي، **حاشية مقدمة التفسير**، د.م، د.د. ن، ط2، 1990. ص141. وهذا الحاشية تعد مثالا جيدا لتحليل الخطاب، ذلك أن كتاب مقدمة التفسير جاء مختصرا موجزا فقام الشارح بتحليل خطابه وبسط ما جاء فيه، ويمكن تعميق البحث في آليات التحليل وخطته ومرجعياته.

(13) خصصنا كتاب "صناعة الخطاب" لبيان معالم منوال الزمخشري في تفسيره، م.م.

المستمدة من نتاج معرفي متعدد؛ ومن ثَمَّ يشرع في إنجاز خطاب تفسيري سيستعير -بلا شك- من هذين النموذجين ومن غيرهما ما لا يمكن الاستغناء عنه من الأنوال والفهوم مثلما سنجد عند البيضاوي والقاسمي وابن عاشور.

منوال البيضاوي (ت685هـ)

تنازعت التأويلية القرآنية القديمة أنوالٌ متباينة: منوال المحدِّثين، ومنوال الأدباء أو اللغويين، ومنوال المعارف الموسوعية والأخبار، ثم منوال الأصوليين (أصول الدين وأصول الفقه). وقد بينا ما يتعلق بمنوال المحدِّثين الأوائل القائم على كثرة الرواية والسند، ومنوال البلاغيين واللغويين، ولما كان البيضاوي على اطلاع كبير بأصول الفقه، فقد أسس منواله التفسيري(14) مستعيرا من الزمخشري أدواته في بلوغ النّكت البلاغية اعتمادا على التحليل البياني واللغوي، واستعار من الرازي بعض معالم منواله في بيان الحكمة القرآنية بأدوات العلم والفلسفة وأصول الفقه وأصول الدين. فجاء تفسيره مرجعا في الأحكام والمعاني الذوقية، مع التخلص من النزعات الاعتزالية للزمخشري، كما قام باختصارات مدققة لاستطرادات الرازي وتفصيلاته. وهذا المنوال أجدر بالدراسة والتتبع لأنه يختصر رحلة كبيرة في مسارات التأويلية العربية، إذ يعتمد على الاختصار والتعديل والتدقيق وتصويب المسارات، فهو في العمق يحمل نسقا خفيا لما انتهت إليه بلاغة التأويل بعد قرون عديدة من البحث والتقصي والاجتهاد والتضارب والوقوع في أسر المذهبيات والنزعات(15).

---

(14) ناصر الدين البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى، 1418هـ

(15) وقد ذكر السيوطي مجموعة من الطبقات، صنفها استنادا إلى المنوال المعتمد عند أفراد كل طبقة:

- منوال المفسرين الأُول من الصحابة كابن مسعود (ت35هـ)، وابن عباس (ت68هـ) والتابعين وتابعي التابعين.
- منوال المفسرين من المحدِّثين الذين أوردوا أقوال الصحابة والتابعين بالإسناد.
- منوال المفسرين من أهل السنة ممن جمعوا إلى التفسير إعراب القرآن وأحْكامه.
- منوال المبتدعة من أهل الاعتزال والشيعة.

انظر: **طبقات المفسرين**، تح: علي محمد عمر، شركة النوادر الكويتية، الكويت، ط1، 2010، ص22.

يستند منوال البيضاوي على الحكمة السنية الأشعرية التي رسخت دعائمها جهود الباقلاني والأسفراييني وإمام الحرمين والغزالي وابن العربي وعياض والرازي[16]، وتميز بالتزام الاصطلاحات العلمية، والتعبير الدقيق، فقَرَّب ما في **الكشاف** إلى المتهيبين من اعتزالياته، فأصبح يُدَرس في كل الربوع الإسلامية محققا وجها من وجوه التأويلية البليغة المعتدلة والعالمة والمختصرة القابلة للتداول في مجالس العلم والتعلم. ومع ذلك لم يسلم منواله من النقد، بسبب التقصير في تخريج الأحاديث والتحري في صحتها، وهو ما دفع الشيخ عبد الرؤوف المناوي إلى وضع كتاب سماه: "الفتح السماوي في تخريج أحاديث البيضاوي"[17]. وتلفت مثل هذه التخريجات الانتباه إلى مسألة التأليفات المكمِّلة أو المصحِّحة في الثقافة الإسلامية والعربية، لما تحمله من أبعاد الحرص على استكمال نقص الأنوال التأليفية السابقة أو تخليصها من الشوائب، وغالبا ما تُلحق بحواشي المؤلفات الأصلية، ويعمل النساخ على ذلك تنبيها للقارئ، وعناية بالعلم، وسعيا لاستكمال النقص، إنها عملية تأليف جماعية قوية الحضور في المؤلفات التراثية أنضجتها حركة تدريس التفاسير في كل الأقطار الإسلامية، وما رافق ذلك من تلخيصات وشروح ومدارسات ومناقشات أسهمت في تنقيح منوال التأويلية البليغة.

منوال القاسمي (ت1914 م)

أشار القاسمي في مقدمة تفسيره المسمى: "محاسن التأويل" إلى المبادئ العملية والعلمية التي يتسم بها منواله التفسيري، ومما يدل على خيارات الاستعارة والاستمداد في استراتيجيته العملية اعتماده على ما خلص إليه التحقيق من المهمات والفوائد التي يلتقطها من تفاسير السلف الغابر، ليوضح خزائن الأسرار، مع زوائد يستنبطها بفكره مما كان عمدته هو الدليل إليه[18]، منتهجا سبيل الإيجاز إلا ما

---

(16) التفسير ورجاله، ص96.

(17) نفسه، ص101.

(18) جمال القاسمي، **محاسن التأويل**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957، ج1، ص5.

استدعى التفصيل لرد الباطل حيث يُصوب -كما يقول- "أسنة البراهين نحو نحور الشبهات"[19]. ثم يشير – مثل من سبقه من المفسرين– إلى أن تفسيره للقرآن الكريم لا يعدو أن يكون "كالشرح لشذرة من معانيه الظاهرة، وكالكشف للمعة من أنواره الباهرة"[20]، فلا أحد يبلغ أقصى معانيه إلا من اختاره مولاه لذلك، أو بالتلقي عن خيرته ومصطفاه. يستوي في الاعتراف بمحدودية المحصول التأويلي الأولون والآخرون، مما يجعل فهم الخطاب الرباني على الجملة من المشاريع التأويلية التي تتحدى قدرات البشر في كل زمن؛ فالقرآن العظيم على قلة لفظه، عجَزَتْ عن ضبط كليات معانيه مطولات الأسفار.

يحدد القاسمي معالم منواله التفسيري واضعا مجموعة من القواعد النفيسة وهي تشكل– وفق منظور استعارية الأنوال– مجموعا مستمدا من علم التفسير، وعلوم القرآن، وعلم المقاصد، حيث تشتغل أفعال استعارية كثيرة في صورة نُقول، وأقوال، واستشهادات، وتأويلات حاملة معها استعارة منهجية جوهرية لكل أدوات التفسير التي أنتجتها العلوم الإسلامية، وبين تلك الأنوال قواسم مشتركة كما ذكرنا، ولكل منها خصائص ومميزات فردية تكشف عن أسلوب المفسر وذوقه ولغته واحتياطاته. وقد جاءت مقدمة "محاسن التأويل"مفصلة ومدققة شاملة لضوابط التأويل وقواعده في حوالي ثلاثمائة وخمسين صفحة، لتشكل بذلك مرجعا حقيقيا لنظرية التأويلية القرآنية التي نضجت على مدى قرون عديدة استعارةً واستمدادا ونقلا وتطويرا ونقدا وتدقيقا وتنظيرا وتطبيقا، فمن أراد معرفة معالمها وجدها بتفصيل في هذه المقدمة البديعة المفصلة.

استعارة الأنوال المنهجية من أهم أدوات بناء الثقافة الإسلامية والعربية وعلومها، وهي استعارة قائمة على التطالبات المعرفية[21]؛ ففهم لغة الخطاب القرآني يتطلب معرفة الاشتقاق والتصريف، والوقوف على البنى النحوية يطلب علم البلاغة، وتحليل البنيات البلاغية يطلب أدوات النحو، والقراءات تتطلب

(19) السابق، ص5.

(20) نفسه، ص5

(21) راجع: صناعة الخطاب، البنى العميقة للتأويلية القرآنية، م.م، المقدمات النظرية.

معرفة النحو واللغات، واللغة تطلب الشاهد الشعري، والشواهد والنصوص تتطالب فيما بينها، وتفسير آيات من القرآن يستدعي استحضار غيرها، وتأويل القصة القرآنية يطلب الأخبار والمرويات التفصيلية... وهكذا فالاستعارية المنوالية قائمة على **مبدإ التساندية** بين علوم الثقافة الواحدة، فالأنوال الأقدر على حل مشكلات المعاني هي الأكثر قابلية للاستعارة والتداول لنجاعتها العملية والتأويلية.
ولو تفحصنا الأنوال التفسيرية لوجدنا هذه المعالم حاضرة، وقد تحضر معالم أكثر من أخرى بسبب توسع المفسر في علم من العلوم، لكن سمات المنوال التفسيري البليغ ظلت موضع تنقيل من اتجاه إلى آخر، ولا يتعلق الأمر فقط بمداخل الفهم وبناء المعاني مثل اللغة، والبلاغة، والصرف، والنحو، وأسباب النزول، وتفسير القرآن بالقرآن، وبالحديث النبوي، بل بأسلوب التناول والمحاججة والإقناع، والتنظيم، والربط، وحسن الانتقال، واللغة التفسيرية الواضحة.

وإذا تفحصنا ما أثبته القاسمي في مقدمته من قواعد مثل: قاعدة **النقل عن النبي ﷺ** مع الحذر من الضعيف[22]، وقاعدة **اعتماد قول الصحابي**، وقاعدة **الأخذ بمطلق اللغة**، وقاعدة **التفسير بالمقتضى من معنى الكلام ومن قوة الدليل الشرعي**، وقواعد **اعتماد سبب النزول**، وقاعدة **الناسخ والمنسوخ**، وقاعدة **اعتماد القصص والإسرائيليات في التفسير**، وقاعدة اعتماد **ضوابط التخريج اللغوي والبلاغي**، وقاعدة **بناء المعاني وجريانها على اللسان العربي**، وقواعد **التفسير الباطني**، وغيرها... اكتشفنا منوالا تأويليا نظريا في تفسير القرآن كامل النضج والتطور، وقد لا نبالغ إذا قلنا إنه يشكل أعمق مدى تقعيدي وصلت إليه نظرية التأويل الإسلامية والعربية فيما يتعلق بدراسة الكتاب العزيز وفهمه وتأويله. ولم يتأت هذا الأمر إلا باستعارة قواعد المنوال التأويلي المرجعي في علم التفسير ثم تطويره، وتعميق أسسه النظرية والعملية، وهذا ما نجد له امتدادات بليغة في تأويلية ابن عاشور.

(22) السابق، ص ص6-7 وما بعدهما.

منوال ابن عاشور (ت1973 م)

تكرس النظرية التأويلية القرآنية الأنوال العملية الناجحة، لتصبح محل نقل واستعارة متواصلة من قِبل المفسرين المتأخرين، إذ لا يجرؤ أي مفسر على اقتحام هذا المجال قبل الاطلاع على منجز السابقين، ويمكن التمثيل لذلك باستعارة منوال التأويل القديم عند ابن عاشور والقاسمي -كما ذكرنا من قبل- وعند غيرهما. إن تتبع أدوات الفهم والتفهيم لدى مُصنِّف **التحرير والتنوير** يكشف حضور معالم المنوال التقليدي بالسمات المشار إليها. وهو ما يقر به. قال: "التفاسير وإن كانت كثيرة، فإنك لا تجد الكثير منها إلا عالة على كلام سابق، بحيث لا حظ لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل"[23]. لكن استعارة المنوال كاملا أو بعض عناصره لا يعني غياب التجديد مطلقا، فإن كل مؤوِّل يسعى للتميز بمنحى معين في الاشتغال، مثل تعميق مستوى التأويل النحوي أو البلاغي، أو الفقهي، أو بيان النكت والأسرار. قال ابن عاشور: "فجعلت حقا علي أن أبدي في تفسير القرآن نكتا لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحَكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها، فإن الاقتصار على الحديث المعاد، تعطيل لفيض القرآن الذي ماله من نفاد"[24]. وهذا ما تبينه أهم مقاصد منواله التفسيري كما يعلن عنها، وهي: تتبع الدقائق البلاغية والتنبيه عليها، كشف وجوه الإعجاز البياني، تبيين معاني المفردات القرآنية. توضيح أغراض السورة الكلية وعدم الاقتصار على المفردات.

وأما إجراءات بناء المعنى العملية التي اعتمدها فهي مستعارة من أنوال تفاسير الزمخشري، والرازي، والبيضاوي وغيرهم، ومن ذلك: اعتماد اللغة، والنحو، والبلاغة، والصرف، وأسباب النزول، وتفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالحديث النبوي، واستحضار المدونات اللغوية والشعرية والخبرية والفقهية.

ومما يؤكد استعارية الأنوال الاستمداد في علم التفسير والذي "يُراد به توقفه على معلومات سابق وجودها على وجود ذلك العلم عند مدونيه، لتكون لهم عونا

(23) محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج1، ص7.

(24) نفسه، ص7.

على إتقان تدوين ذلك العلم"[25]، وسَموا تلك الاستعارات النقلية والثقافية بالاستمداد، لما فيها من طلب المدد والعون، لقيامها على **التطالب والتعاون والتساند** كما وضحنا ذلك في **التأويلية العربية**. ومن أهم المستعارات المعاني التي حصل عليها الإجماع، ومدارج الفهم والتفهيم، وأسلوب عرض الفهوم، والبناء الحجاجي القوي، فكل معنى مبني مستدل عليه بدليل من اللغة، أو الشرع، أو النصوص المدعِّمة.

وضع ابن عاشور لتفسيره البديع مقدمات علمية بليغة موضوعها معالم المنوال التفسيري المُركَّب من مدونات التفسير القديمة، وهي أُس منواله وأهمها:

أ- علوم العربية وقواعد اللسان العربي: اللغة والصرف والنحو وعلم المعاني والبيان.

ب- معرفة وجوه استعمال العرب لكلامها بالاطلاع على مدونات الكلام العربي شعرا ونثرا.

ج- علم الأصول.

د- اعتماد القراءات لترجيح معنى بعينه.

هـ- اعتماد أخبار العرب والقصص لِما تُحمِل من الموعظة.

و- علم الأصول لما له من فائدة في استنباط الأحكام الشرعية.

خطاب التفسير -تبعا لهذا- هو مجمع العلوم الإسلامية لكثرة روافدها فيه، ولاستعاراته الغزيرة من نتاج الثقافة الإسلامية والعربية لتحقيق التفصيل على وجه أتم من الإجمال[26]. فضلا عن هذا تبين مقدمات ابن عاشور لتفسيره عن عمق نظري تأويلي لما ينبغي أن يكون عليه عمل المفسر، مستفيدا ذلك من تاريخ التأويلية الإسلامية والعربية ومن صراعاتها واضطراباتها، ومستعيرا أرقى ما في منوالها من الأدوات المحققة لتأويل بليغ، ومتجنبا ما شابها من عيوب وانحرافات، وأما موجهات منواله العملي في التفسير وقواعده الإجرائية فهي:

---

(25) السابق، ص18.

(26) نفسه، ص27.

أ- **يصح التفسير بغير المأثور**؛ فقد اتسعت التفاسير، وتفننت مستنبطات معاني القرآن بجهود أولي العلم وما رُزقوا من الفهم[27].

ب- **اعتماد التدبر والتفهم** واستيضاح معنى كل آية بما يليق بها حتى تنكشف الأسرار.

ج- شرط التفسير الصحيح **مطابقة اللفظ للمعنى**.

د- اعتماد سياق الآية في التأويل، مع التعزيز بالأدلة الشرعية.

هـ- تجنب النزعات والميول والمذاهب في التفسير.

و- دور **الصلاح الاعتقادي** في توجيه التفسير.

ز- استحضار **مقاصد الدين** عند التفسير، وأهمها مقصد إصلاح الفرد، وتهذيب الأخلاق، والتشريع، وسياسة الأمة، والتأسي بأخبار الأمم السابقة، وتعليم الخلق وتأهيلهم لتلقي الشريعة، وتقديم المواعظ، وتحذير المخلوقين، وبيان الإعجاز بالقرآن في محلاته من التفسير.

ح- **اعتماد القصص**، وقد جاءت موزعة في القرآن على مقامات تناسبها، وهو ما يُكسبها صفتين: صفة البرهان وصفة البيان[28].

لم يكتف الطاهر بن عاشور باستعارة الأنوال التأويلية القديمة التي يراها ناجعة في فهم الخطاب الرباني، وإنما أبدى اجتهادات قيمة تعديلا وتصويبا؛ فلم يتقبل الوقوف عند التفسير بالمأثور وحده، ورأى أن الاكتفاء بما ورد عن النبي ﷺ يعطل ملكات الفهم وذكاءات المؤولين البلغاء، ويحجب كثيرا من أسرار النص القرآني، ولا يستثمر تطورات العلوم الحقة، والأدوات المنهجية في الفهم.

إن المنوال التأويلي الذي يراه ابن عاشور مناسبا للتأويلية القرآنية يقبل التطوير والاغتناء تبعا للتطور المعرفي والعلمي، وتناغما مع الطابع الإعجازي للقرآن الكريم، ففيه "ما يصلح أن تتناوله أفهام من يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمة"[29]. وهكذا يتم توسيع المنوال التأويلي القديم بإغناء التفسير

---

(27) السابق، ص28.

(28) نفسه، ص64.

(29) نفسه، ص45.

بالحقائق العلمية مثل علم الهيأة والمخلوقات، إذ هي علوم خادمة للمفسر يستعين بها. وقد عرفنا في زمننا كثيرا من حقائق المخلوقات التي ذكرها القرآن الكريم وبينها العلم الحديث خير بيان. لقد مضى بتمتينه النظري لهذه القواعد التأويلية القرآنية البليغة شوطا بعيدا في تدقيق أنوالها وأدواتها، وأبلغُها عنده ما بُنيت فيه معاني القرآن حسب ما يوافق الحقائق؛ ذلك أن الحقيقة العلمية "مرادة بمقدار ما بلغت أفهام البشر وما ستبلغ"[30]، شرط أن لا يخرج اللفظ عما استُعمل له في العربية، وأن لا يبعد عن الظاهر إلا بدليل.

تكشف مقدمات "التحرير والتنوير" العشرة عن إحاطة علمية عالية بحاجيات المفسر العلمية والمنهجية، وبالاحتياطات التي ينبغي أن يتخذها في استعارته للموارد المعرفية، وفي هذه المقدمات بدا ابن عاشور عالما ببلاغة الخطاب القرآني، عارفا بما تضمنته علوم القرآن، وما قدمته من اقتراحات وأنوال وأدوات، مؤولا خبيرا بمواقع الخطإ في التفسير. كما حاول تدقيق أسس المنوال التقليدي، فانتقد الذين يتوهمون أن لكل ما نزل من القرآن سببا، فأغرقوا التفاسير بالروايات الضعيفة، وجعلوا الناس يتوهمون أن لكل آية سبب نزول، وانتقد التفاسير الباطنية المفرطة في الإشارية.

لم يكتف ابن عاشور وهو يستعير منوال التأويل القديم بنقل ما ورد عن الأسلاف، بل وضع قواعد وضوابط لكل مدخل من مداخل المنوال الذي يراه محققا لبلاغة الفهم والتأويل، مقيدا بضوابط العلوم. ولا شك أن تحرير هذه المقدمات حصل بعد أن أنهى عمله التفسيري الضخم، وعانى مكابداته التنقيبية والاستعارية والتأليفية والاستكشافية، وجولانه الطويل بين مؤلفات علم التفسير، وعلوم القرآن، والقراءات، وأسباب النزول، والفقه، والمقاصد، وعلوم البلاغة، والنحو، واللغة، وأسباب النزول وغيرها.

---

(30) السابق، ص44.

خلاصات وامتدادات

1 – إن ما حدث في طرائق تفسير القرآن الكريم من استعارات علمية ومنهجية وتصورية، أدى إلى ما يمكن تسميته **بالعلم التطبيقي** الجامع الذي يستفيد من كل العلوم العربية، ويستحضر ثمارها للعمل في مجال التفسير. فقوة الاستمداد والأخذ والبحث عن تطوير الأدوات انتهى إلى **وحدة منوالية** تطورت بالتجريب والتمحيص والنقد، لتحقيق تأويلية بليغة. أو **بلاغة تأويلية عالمة** وهو ما سماه ابن عاشور "**وحدة الأساليب وتقارب الطرائق**"[31]. تجري العلوم التأويلية والاستعارات المنوالية إلى وحدة الأداة، وقوة المنوال "الجماعي" لاشتراك جهود كثيرة في بنائه وإرسائه والدفاع عنه، إنه نتاج تاريخ طويل، ولذلك ينبغي الحرص عليه، ومعاودة التأمل فيه، وتجديده، وتوسيع مجالات العمل به. لكن النسق المشترك في تصورنا هو ما **سميناه الدوائر الكبرى والدوائر الصغرى**؛ فالتفاسير وإن اختلفت مرجعياتها وأدواتها تلتقي في بنية نسقية عميقة تعتمد على **تطالب الآليات النصية وتساندها**: اللغة، والنحو، والبلاغة، والقراءات. **والآليات السياقية** وتندرج ضمنها الروايات وأسباب النزول، والأحاديث النبوية، والمدونات الشعرية والثقافية المتنوعة، والتاريخ، ونتاج الاجتهادات الفقهية، والتأثيرات المذهبية وغير ذلك.

2- مثلما تحدث الاستعارات اللغوية لتسمية المؤلفات، تحدث استعارات بين العلوم، ففي كتب التفسير استعيرت آلية الإسناد والترجيح المعتمدة في تدوين الحديث النبوي الشريف، فاستعملت لضبط سند روايات المفسرين الأُول، ووجدنا الترجيح بين أصح الروايات توخيا للدقة في النقل وفي تدوين تفاسير الصحابة والتابعين. واستعيرت أنوال التفكير المنطقي في دراسة أصول الفقه، وفي بيان أسس البلاغة العربية كما نجد عند السجلماسي في **المنزع البديع**، وفي كتابة التاريخ كما عند ابن خلدون في **المقدمة**.

3- **الثقافة بحر لمراكب العلوم وأنوال التأليف**، والتيارات المعرفية والفكرية، ويظل أكثر الأنوال استعمالا وحضورا هو أقواها تأثيرا. وقد بينا أن منوال

(31) السابق، ص32.

البلاغيين **والنحويين** ودارسي اللغة أصبح معتمدا عند المفسرين، بل يمكن القول **إن التفاسير هي ملتقى الأنوال المعرفية والمنهجية في الثقافة الإسلامية والعربية،** فكل النتاج المعرفي سُخر لبيان أسرار الخطاب الرباني إلى الخلق. وهذا ما سميناه من قبل **تساند الأنوال** وتكامل المعارف في التأويلية القرآنية، وفي شروح الحديث النبوي، وفي شروح المتون الأدبية.

4- **الأنوال التأليفية متعاوَرة،** يستعير المؤلف جزئيا أو كليا منوالا تأليفيا أو تصوريا من غيره فيبني عليه عمله، ثم يغنيه ويضيف إليه، وليست سلسلة الأنوال التأليفية إلا دليلا على حركية المعرفة ونشاطها، وحاجة الفكر البشري إلى الاستكمال المستمر.

5- تعايشت الأنوال التأليفية القوية مع الأنوال المتوسطة القوة أو الضعيفة. ورواج منوال تأليفي دليل على قوته وأهميته. وقد تباينت اهتمامات المحدثين بمنجزات القدماء في الفلسفة والأدب؛ فمن الأنوال ما لاقى رواجا كبيرا: الجرجاني، ابن رشد، ابن خلدون، الغزالي، المتنبي، أبو تمام... ومن الأنوال التأليفية في صناعة الأدب أو النقد أو البلاغة أو التاريخ ما كان دون ذلك، وكأن الثقافة تختبر أنوالها القادرة على الاستمرارية عبر الاستعارة، والنقل، والمحاكاة، أو النقد... وإجمالا فالاستعارات الثقافية هي أداة جريان الأنوال ودورانها، وتحولها من زمن إلى زمن، من ذات إلى أخرى، ومن ثقافة إلى غيرها.

6- عرَّفتْنا المقدمات النظرية وتطبيقاتها الإجرائية داخل خطاب التفسير -عند القاسمي وابن عاشور تمثيلا- على صورة التأويلية القرآنية لدى المفسرين المحدثين وهي تقوم على الاستمداد الواعي، والمدقق لما أنجزه القدامى. وقد تضمنت قواعد وضوابط وتنبيهات وتأصيلات نظرية عميقة جدا، مما يكشف أن تاريخ الأنوال التأويلية في حركاته الاستعارية عبر العصور ظل في تنقيح وتشذيب وتطوير مستمر، وأن هذا الفعل الاستمدادي الاستعاري لا يشمل فقط الجانب المنهجي والشكلي، وإنما مجموع المحتويات والآراء والمواقف التي تضمنتها علوم القرآن، وقد استعيرت في هذه المقدمات لتعزز تصورا أو موقفا، أو لتكون موضوعا للنقد والتصويب، فجاء خطاب مقدمتي القاسمي وابن عاشور نسيجا من الاستعارات

القولية والتصورية والمنوالية، محققا معالم منوال بليغ وعالم ظهرت آثــاره تطبيقيــا على طول خطابيهما التفسيريين، حيث بلغ تشذيب المنوال المستعار حــدا كــبيرا بالحرص على تجنب أخطاء التفاسير الأولى أو انحرافاتها المذهبيــة أو الباطنيــة أو تضمن الروايات الضعيفة والأخبار المكذوبة، فكان منوالهما نظريا وعمليا تنقــيلا حقيقيا نحو بلاغة الخطاب التفسيري الإسلامي، ليمثلا بــذلك أقــوى المشــاريع التأويلية الإسلامية والعربية البليغة في العصر الحديث.

خاتمة

رؤيا التوسيع وتوسيع الرؤيا

أولا

قامت البلاغة العربية على الاقتراح الاصطلاحي، والتمثيل، والتعميم، والتصنيف والترتيب، وبلغت درجة من القوة والكمال، فتغلغلت في البناء المعرفي والتأويلي لحقول أخرى مجاورة كان من الممكن أن تُدرج تحت مسمى **البلاغة الكبرى**، إذ إن الحاجة العملية الملحة لما أنجزه البلاغيون جعلت المجال الحقيقي للبلاغة أوسع مما ذكره البلاغيون القدامى، ليتسع بذلك لكل أصناف الصناعة القولية قصيرة كانت أو طويلة، بدءا من المثل القصير إلى المجلدات الطويلة في التفسير أو الفتوى أو التشريع أو علوم العقيدة، لما تتسم به من مظاهر بلاغة الخطاب مما لم تستوعبه النظرية البلاغية التقليدية، وقد حان الأوان لكشف الأنساق البلاغية المضمرة في تلك الخطابات.

بلاغة الخطاب مجال شاسع تمتد عمليا وتطبيقيا إلى أوسع مما امتدت إليه تصورات البلاغيين القدامى واهتماماتهم. ولا ينبغي أن نطلب منهم أكثر من ذلك، لأنهم عملوا وفق مبدإ الحاجة والوظيفية، وكانوا مؤسسين حقيقيين لفروع تلك البلاغة. تسعى **التأويلية الجديدة** إلى تقديم بعض المقترحات انطلاقا من الأنساق المضمرة التي لم يُلتفت إليها في تلك الخطابات. إنها لا تدخل ضمن علوم البلاغة المعروفة، وإنما يحسن فهمها ضمن بلاغة التأويل، أو فلسفة البلاغة العامة، وموضوعها تعميق التصورات البلاغية الجديرة بالحياة، والربط بين جهود القدامى والمحدثين في هذا المجال اقتراحا وتوسيعا.

ثانيا

يتابع الإنسان في عصر الثورات التقنية الكبرى ما يجري في العالم عبر الاستعارات، الإنسان ابن لحظته، لا يعيش زمنا بعيدا مستعادا ولكن عالمًا كبيرا

مستعارا عنده بالصور والرموز والكلمات والعناوين؛ فالعالم الرقمي استعارة للعالم الواقعي، تحولت فيه الأشياء إلى استعارات مصغرة تُقرِّب إلينا ما في العالم الحقيقي. إنه زمن الاستعارات الرقمية، فقد أصبح العالم صورا مستعارة ترافقنا في البيت وخارجه. لقد امتلكْنا العالَم وما يحركه من خطابات بالاستعارة... سيطر الإنسان على الحياة ببلاغة استعارية قوية ورقمية عالية الجودة، لا تنفع معها أدوات النظريات التقليدية للاستعارة. إنه هجوم كاسح للأخذ والنقل والامتلاك والتحيين والتوظيف، وإدماج الأدوات والمكونات.

أصبحت الاستعارة أداة نقل وترحيل، ولغة للبناء والانتماء، وأحيانا تلعب دور تذويب الفوارق والحدود وجسرا للانتقال إلى الآخر. إنها أساس الامتلاك والتمليك، ومرجع فهم العالم وتأويله. إنها تشكُّل بالمعنى المراد وتشكيل. وهي في الخطاب تجميل أو تهويل، وهي ملتقى الأقاويل والمناويل، وفي صناعة الكلام قول أو تأويل. إنها عالم حي من الإبدالات المستمرة، ومن الإمدادات والاستمدادات.

استندنا في توسيع مجال عمل الاستعارة على المنطلقات المفهومية التعميمية التي تسبق نشأة العلم المدقق، وقد يجد القارئ في هذا شبها بما قام به أبو عبيدة في كتابه "مجاز القرآن"، حيث أدرج تحت "المجاز" التشبيهات والكنايات والحذف وكل أدوات البلاغة القائمة على الخرق والعدول، أو ما اعتبرته العرب من سننها في الكلام. هذا المنطلق المرن هو نفسه الذي سوغ لبعض البلاغيين الغربيين اعتبار التشبيه البليغ استعارةً ناظرين إلى الجانب التمثلي في الاستعارة فحسب، خلافا لما عُرف في البلاغة تدقيقا بمسمى التشبيه. ثم إن فلسفة البلاغة تقبل مثل هذا التوسيع، فليست اصطلاحات البلاغيين القدامى إلا بابا من أبواب توصيف ما تصوروا أنه أدوات لتحقيق بلاغة الخطاب، فسموا الأساليب بما ناسبها من التسميات المستعارة من حقول مختلفة من الحياة اللغوية، وممثلين لها بالأمثلة المكتملة الصناعة أو المحتملة.

ثالثا

تتم في مجال العلوم والصناعات استعارة منجزات علم من العلوم الوظيفية، وهي حقيقة عرفتها كل الثقافات، ويمكن التمثيل لها بتفسير القرآن الكريم، وهو

صناعة تأويلية تستعير أدواها من علم النحو، وعلم البلاغة، وعلم الصرف، ومن كل العلوم التي أنتجتها الثقافة الإسلامية والعربية. والأمر كذلك بالنسبة للشروح الشعرية التي تستعير أدواها من العلوم المذكورة، بل إن العلوم تتعاور الأدوات، وتتبادل المجهودات... **فالاستعارة الأداتية** تقوم دائما على الحاجة والوظيفية والتناسب وبقاء المستعار في علاقة مع أصله. والأمر نفسه يصدق على العمليات الصناعية الحالية، فإن صناعة الحاسوب -مثلا- استعارت من العلوم الرياضية والهندسية والكيميائية واللغوية أدواها، لما يخدم الحاجات الصناعية. وهذا دليل على أن كل ما ينتجه الإنسان معروض للإعارة، سواء أكان فكرا أم علما أم أدوات تقنية. وقس على ذلك باقي المنتوجات الصناعية والثقافية، فلو تأملتّه لوجدت حركة قوية أساسها استعارة المجهودات العلمية الناضجة، والمفاهيم والخرائط والتقنيات. فإذا توقفت الأفعال الاستعارية يوما توقف النمو الحضاري، والحبس، ومات التفاعل، وتعطلت الإنتاجية وتراجعت الإبداعات والإضافات والإبدالات.

رابعا

حاولنا أن نضع أنفسنا موضع القارئ، وأن نجيب عن اعتراضاته المشروعة. نعم، بقدر ما نحن مدعوون للحفاظ على الحمولة المفهومية للدالات الاصطلاحية وتسخيرها لما هي مقصودة به من التحليل والتأويل والتصويب، يدعونا المدى المعرفي لحركة الذهن، وقدرته على توسيع عمل المفاهيم إلى إيجاد تأويل مقبول للتوسيعات، والتأكيد على وظيفيتها وقدرتها على مد جسور تأويلية وتحليلية للعديد من مظاهر الخطاب. ليست هذه دعوة إلى نسف الدرس البلاغي القديم، وزعزعة أركانه، بل إلى الإنصات إليه بعمق، والاقتراب من منطلقاته في تسمية المفاهيم، ونقل الكلمات من الاستعمال العادي إلى الاستعمال العلمي، وملاحظة الجسر المعنوي الرابط بين الاستعمال اللغوي والاصطلاحي، وحدود الكفاية الاصطلاحية في ذلك، ثم النزوع إلى التجديد والتوسيع والتطعيم لجعل الفاعلية التأويلية والتحليلية الجديدة تنحو منحى الاقتراح، والمدارسة في أفق الانتقال إلى مرحلة جديدة من التأسيس لتأويلية موسعة، تتخذ مسافة نقدية واضحة مع

المقترحات القديمة، شرط اختيار المفاهيم القادرة على بيـــان هـــذه التحـــويلات والتوسيعات، وإيجاد المبررات الكافية لكل اقتراح بالتوسيع أو التقليص أو الحذف أو الاختزال أو التطعيم؛ فالحاجة إلى الدلائل والمبررات قوية في مثل هـــذا البنـــاء المعرفي.

ومع ذلك فإننا لاندعي بلوغ الكمال فيما طمحنا إليه، فقد وجدنا صعوبات شتى في تحويل نظريات الاستعارة المتباينة قديمة وحديثة إلى أرضية صلبة نُمَهِّدُها تمهيدا كي تستقر عليها جهود التتميم في ثبات، وفي إحداث التناغم بينها لتباين مرجعياتها البلاغية أو المنطقية أو الفلسفية أو السيميائية أو النقدية أو الرقمية. مثلما وجدنا صعوبات مماثلة في بناء منظور تركيبـــي يحتفظ بالتصورات التقليدية الحية التي تشكل أُسا معرفيا لتأويلية استعارية. لكن ظل التساؤل المعرفي يحركنا لارتياد آفاق الاستعارة المجهولة والغامضة التي لا يسلم فيها المغامر الجريء، لما فيها من مخاطرات الإسقاط أو الافتعال أو الافتراض المبالغ فيه. طامحين أن يصبح هذا المنظور لبنة من لبنات نظرية الخطاب الاستعاري المتجددة بتجدد الحياة السيميائية من حولنا، وتطورات أنظمة التواصل وبناء الخطاب.

خامسا

إن المفاهيم الخاصة بالاستعارة الثقافية الموسعة هي المفاهيم الأداتية الـــتي يمكـــن اعتمادها في تحليل الخطاب الاستعاري، على أننا لا نزعم أننا استوفينا كـــل المفـــاهيم والأدوات، إنها مقترحات قرائية في طور التشكل والتعميق، والقارئ التاريخي المتعجل للكمال كأنما يطلب المستحيل، فتاريخ النقد لم يصل بعـــد إلى الاســـتقرار النـــهائي بإجابات نهائية... هناك دوما قلق للسؤال علينا أن نؤمن به. ربما يكون تحريك صفحة مياه البحر، وتشتيت الطعم في الأعماق كافيا لظهور الأسماك، فإن لم نصطد بالقـــدر الذي نطمح اصطاد غيرنا. وسيظل البحر عميقا وغامضا ملتفا على أسراره... إعتـــبرْ ما قمنا به رحلة صيد مستعارة.. ولاتمدَّن عيون الفضول إلى المحصول.

أصعب مرحلة في بناء المعرفة هي إحداث انقلابات في المفـــاهيم، وزعزعـــة المنظورات المألوفة للأشياء والمفاهيم والعلاقات. وهذا ما نحاوله في هذه التصورات

التأويلية والتحليلية هادفين زعزعة الثبات السالب في المفـاهيم، ودعـوة العقـل التأويلي إلى دخول مغامرة الاقتراح والتنظير، مهمتنا أن نبني الجسر الآمن ليعبر من يريد كما يشاء.

سادسا

تحليل الخطاب الاستعاري مجال دينامي وحّي لعمل الفكر والنظـر والمنطـق ونظرية الفهم والتأويل وتحليل الخطاب. ونظرا لهذا الموقع الاعتبـاري تفاعلـت الاجتهادات النظرية المنطقية والبلاغية القديمة والحديثة للاحتفاء بـالأطر الذهنيـة العاملة في تحقيق الخطاب الاستعاري. كما أن إعطاء أولويـة خاصـة لدراسـة الاستعارة يدل على حاجة الخطاب الاستعاري لمقاربات متنوعـة بهـدف حـل إشكالاته وتطوير منظورات تحليله.

من شأن المقاربة الاستعارية للخطاب وفق المنظور المنوالي أن تكشف عن:

أ- مستوى الحضور الاستعاري في أي خطاب، وهو حضور تتناغم فيـه الاستعارات اللغوية، والمفهومية، والاستدعاءات القولية، والاستمدادات المضمونية.

ب- تنقيل أنوال التأليف، ففي كل فرع من فـروع المعرفـة لا يسـتعير المصنفون المضامين فقط، والألفاظ، والمقولات، والمصطلحات، وإنمـا يستعيرون كذلك نظام القول، فأنوال تأليف مصنفات ضـخمة مثـل تفاسير القرآن الكريم تكاد تكون متشابهة في استعارتها ما يتعلق بـذكر دواعي التأليف، وتحرير مقدمات عامة عن معنى التفسـير والتأويـل، وشروط التفسير، وملكات المفسر، ثم في منوال تفسير السور القرآنيـة مرتبة، ومنوال اعتماد الأدوات التأويلية المعروفة: اللغـة، والبلاغـة، والصرف، والنحو، والتاريخ، والفقه، والعمل بمبدإ التجـويز، وذكـر الخلافات، واستدعاء الأقوال... وفي حقل التأليف البلاغي نجـد بنـاء مشتركا يستعيره المؤلفون ممن سـبقهم، ومثـل ذلـك في البحـوث الأكاديمية فالأنوال المستعارة شكلا ومنهجا ولغة بنيات ثابتة.

ج- تسمح المقاربة الاستعارية الموسعة للخطاب بالوقوف على نظام تفكير المجموعات البشرية في عصر معين، وعلى نظام تشكلات العلوم والمعارف، والأنوال الاستعارية الأقوى في ثقافة ما.

د- إذا حصل تحديد البنى الاستعارية الصغرى داخل الخطاب بما تتضمنه من أنوال منهجية أو فنية، واستعارات لغوية، وثقافية، فإن محلل الاستعارات يمكنه تبيين الاستعارات الكبرى التي حركت ثقافة بعينها في زمن محدد، وإحداث مقارنات بين الأشكال المعرفية التي تستعيرها الثقافات، ويهتم بها الباحثون والمؤلفون لما يجدون فيها من جدة وتميز، ثم لا تلبث أن تتغير الأنوال والمناهج أو تضعف، فيتحول الفعل الاستعاري إلى بُنى معرفية جديدة في ثقافة أخرى أقوى.

هـ- إن صناعة الاستعارة والعلم بها من الأوليات في علم الخطاب، فكثيرا ما تلبس الحقائق لباس الاستعارات، فهي حقائق نستحضرها باستعارتها واستمدادها والاحتفاء بها، والخطاب هو نسيج محكم من الاستعارات التصديقية. من هنا فالمقاربة التأويلية الاستعارية ورش آخر من أوراش تحليل الخطاب، لا يلغي المقاربة التقابلية، فلكل واحدة منهما مداخل وأدوات في العمل ومفاهيم ومسارات، بل يمكن العمل بواحدة منهما منفردة على طول التحليل، للوقوف على أسرار صناعة الخطابات، وفهم استراتيجياتها الإبلاغية لتحقيق تأويل بليغ.

سابعا

يمكن -تبعا لما سلف- تأكيد القوة الإجرائية للمفاهيم البانية لهذا التصور من قبيل: استعارة الأنوال، تداخل الأنوال، تنقيل المنوال، محو المنوال، كونية المنوال، الأنوال الكونية، الأنوال الصناعية، الأنوال القولية، جغرافيات المنوال، تاريخ المنوال، انتهاك الأنوال، بلاغة المنوال، متوالية كلية بليغة، المنوال المقدس، المنوال المدنس، قوة المنوال، حقيقة المنوال، أنساق الأنوال، المنوال الأصلي العام، تجريب المنوال القولي، تنقيل المنوال القولي، المنوال المنطلق، المنوال الهدف، الاستعارة

الرمزية، الاستعارة الرقمية، التقابلات الاستعارية النووية، المنظور المنوالي، الاستعارات الثقافية الجوالة، الاستعارات الرقمية (الذكية)، الأنوال القولية المهاجرة، الاستعارات الجوالة، الجريان الاستعاري، الفعل الاستعاري، استعارة المفاهيم، الاستعارات المتصادية، البنى الصغرى للاستعارة، الاستعارة في الجملة، الاستعارة النصية، الاستعارات المتسلسلة، الاستعارات المركبة، المنوال الاستعاري، البنى الاستعارية، وغيرها مما يستفاد من التصورات النقدية الناضجة، ويتجاوز كثيرا منها بحثا عن منوالية شاملة بليغة، يتعاون الفكر الفلسفي والعلمي والأدبي على تحقيقها، سعيا إلى بيان البلاغة الوجودية التي من أجلها خلق الله الإنسان من ماء وجعله صِهْرا ونَسبا، وهي العودة إلى بلاغة الاستخلاف واستصلاح الأرض ورعايتها، وبلاغة العبودية، وبلاغة الخلاص، والسعادة الدنيوية والأخروية، مما تبدو معه كل المنجزات الجديرة بالاهتمام في تاريخ الإنسان إلى اليوم مجرد أدوات ووسائل لا قيمة لها ما لم تنضو تحت بلاغة الخطاب الرباني الكبرى القاصدة إلى صلاح الناس، وتعمير الأرض بالاستخلاف الباني البليغ والمبلغ، فليست الثقافة -لمن أوتي البصيرة والحكمة- إلا بحرا لمراكب العلوم وأنوال التأليف، وليست الدنيا إلا استعارة يجب تأويلها تأويلا بليغا يتناغم مع **البلاغة الكبرى** التي توجهها، وتوجه غيرها إلى حقيقة الخطاب العابد. وباختصار، فالعبد ضيف في حيوات مستعارة، وزمن مستعار، وبدن مستعار سيُرَد، وروح مستعارة سترجع إلى مُعير كل شيء. وهذا موضوع الكتاب القادم إن شاء الله.

المصادر والمراجع المعتمدة

أولا: باللغة العربية

القرآن الكريم.

(أ)

- أحمد يوسف علي، **الاستعارات المرفوضة في الموروث البلاغي والنقـــدي،** دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2015.
- أديب محمد صالح، **تفسير النصوص في الفقه الإسلامي،** المكتب الإسلامي، بيروت، ط.4، 1993.
- الأصفهاني أبو الفرج، **الأغاني،** دار صادر، بيروت، تحقيق: إحسان عبـــاس، إبراهيم السعافين وبكر عباس، ط3، 2008.
- الألباني ناصر الدين، **ضعيف موارد الظمآن إلى زوائـــد ابـــن حبـــان،** دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط الأولى، 2002.
- أمسترونغ بول، **القراءات المتصارعة: التنوع والمصداقية في التأويل،** ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط.1، 2009.
- الأمغاري محمد بن الحبيب الحسني، **بغية المريدين السائرين وتحفة السالكين العارفين،** دار الطباعة الحديثة، ط2، (د.م)، (د،ت).
- إيكو أمبرطو، **السيميائية وفلسفة اللغة،** تر: أحمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2005.

(ب)

- الباتلي خالد بن عبد العزيز، **التفسير النبوي، مقدمة تأصيلية مـــع دراســـة حديثية،** دار كنوز إشبيليا الرياض، ط1، 2011.

- بازي محمد، **البُنَى التَّقابُلِيَّة: خَرائِطُ جَديدَةٌ لتَحْليل الخِطــاب**، دار كنــوز العلمية، عمان، الأردن، ط1، 2015.
- بازي محمد، **التأويلية العربية: نحو نمــوذج تســاندي في فهــم النصــوص والخطابات**، الدار العربية للعلوم/بيروت، ومنشورات الاختلاف/الجزائر، 2010.
- بازي محمد، **العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسارات التأويل**، الدار العربية للعلوم/بيروت، ومنشورات الاختلاف/الجزائر، ودار الأمان/الربــاط، 2011.
- بازي محمد، **تقابلات النص وبلاغة الخطاب، نحو تأويل تقــابلي**، الــدار العربية للعلوم، بيروت، 2010.
- بازي محمد، **صِناعَةُ الخِطاب: البُنى العَميقَة للتَّأْويلِيَّة العربيــة**، دار كنــوز المعرفة، عمان، 2015.
- بازي محمد، **نَظَرِيَّةُ التَّأْويلِ التَّقابُلي: مُقَــدِّماتٌ لِمَعْرِفَــةٍ بَديلَــةٍ بــالنَّصِّ والخِطاب**، منشورات ضفاف/بيروت، ومنشورات الاختلاف/الجزائر، ودار الأمان/الرباط.2013.
- بردي يوسف بن تغري، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقــاهرة**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.
- (ابن) البناء المراكشي العددي، **الروض المريع في صناعة البديع**، تح: رضوان بنشقرون، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985.
- البيضاوي ناصر الدين، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، دار إحيــاء التــراث العربــي، بيروت الطبعة الأولى، 1418هـ

(ت)

- التادلي ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق: أحمــد توفيــق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.
- الترمذي، **الجامع الصحيح: سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شــاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.

- التوحيدي أبو حيان، **ثلاث رسائل**، تح: إبراهيم الكيلاني، المعهد الفرنسي بدمشق، 1951.
- التويجري حمود، **السراج الوهاج لمحو أباطيل الشلبي عن الإسراء والمعراج**، مكتبة المعارف، الرياض، 1985.

(ج)

- جحفة عبد المجيد وخليد برادة، **الاستعارة والمعرفة**، مؤلف جماعي، مختبر اللسانيات والتواصل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، البيضاء، 2011.
- الجرجاني عبد القاهر، **أسرار البلاغة**، اعتنى به: مصطفى شيخ مصطفى وميسر العقاد، مؤسسة الرسالة، ناشرون، بيروت، ط1، 2004.
- الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين- بيروت، 1987.

(ح)

- الحراصي عبد الله، **دراسات في الاستعارة المفهومية**، كتاب نزوى، مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان، مسقط، 2002.
- الحراق محمد بن محمد الحسني، **ديوان الحراق**، (د،م)، (د.م)، (د،ت).
- الحلبي نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير، **جوهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة**، تح: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ت).
- حمود التويجري، **تغليظ الملام على المتسرعين إلى الفتيا وتغيير الأحكام**، دار الصميعي الرياض، الطبعة الأولى، 1992.
- حمودة عبد العزيز، **المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية**، عالم المعرفة/الكويت، 2001.
- الحنبلي عبد الرحمان بن محمد، **حاشية مقدمة التفسير**، د.م، د.د. ن، ط2، 1990.

- الحويدق عبد العزيز، **نظريات الاستعارة في البلاغة العربيـــة**، دار كنـــوز، عمان، الأردن، 2016.
- الحويدق عبد العزيز، **نظريات الاستعارة في البلاغة الغربيـــة**، دار كنـــوز، عمان، الأردن، 2015.

(خ)

- (أبو) خرمة عمر، **نحو النص، نقد النظرية وبناء أخـــرى**، عـــالم الكتـــب الحديث، إربد، الأردن، 2004.
- (ابن) خلدون، **المقدمة**، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صـــيدا بيروت، ط.2، 1996.

(ر)

- الرازي، **مفاتيح الغيب**، دار الفكر، بيروت، 1401هـ.
- الرومي جلال الدين، **المَثْنَوي**، شرح ودراسة: محمد عبد الســـلام كفـــافي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1966.
- ريتشاردز آ. أ، **فلسفة البلاغة**، تر: سعيد الغانمي وناصـــر حـــلاوي، دار أفريقيا الشرق، البيضاء، 2002.

(ز)

- الزركشي بدر الدين، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، 1988.
- الزمخشري، **أساس البلاغة**، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، 1979.
- الزناد الأزهر، **نظريات لسانية عرفنية**، الدار العربيـــة للعلـــوم، بـــيروت، والاختلاف، الجزائر. (د.ت).
- زيعور علي، **الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم**، دار الأندلس، بـــيروت، ط2، 1984.

(س)

- السكاكي، **مفتاح العلوم**، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983.
- السيد فؤاد صالح، **معجم الألقاب والأسماء المستعارة في التاريخ العربي والإسلامي**، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1990.
- السيوطي جلال الدين، **طبقات المفسرين**، تح: علي محمد عمر، شركة النوادر الكويتية، الكويت، ط1، 2010.
- السيوطي جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.2، 1991.

(ش)

- الشاوش محمد، **أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية**، جمعة منوبة، كلية الآداب، المؤسسة العربية للتوزيع والنشر، تونس، 2001.

(ص)

- الصاوي أحمد عبد السيد، **مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين**، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1988.
- الصومعي أحمد التادلي، **المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق: علي الجاوي مطبعة: المعارف الجديدة-الرباط، منشورا ت كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير، 1996.

(ط)

- الطنطاوي علي، **ذكريات علي الطنطاوي**، مراجعة مجاهد مأمون ديرانية، دار المنارة جدة، ط5، 2006.
- الطنطاوي علي، **فصول في الثقافة والأدب**، دار المنارة للتوزيع والنشر، 2007.

- طه عبد الرحمان، **الحق العربي في الاختلاف الفلسفي**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 2008.
- طه عبد الرحمان، **سؤال المنهج، في أفق أنموذج فكري جديد**، جمع وتقديم: رضوان مرحوم، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، ط1، 2015،
- طه عبد الرحمان، **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، المركز الثقافي العربي، البيضاء. بيروت، ط2، 2000.
- طه عبد الرحمان، **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي**، المركز الثقافي العربي، بيروت/البيضاء، 1998.

(ع)

- (ابن) عاشور محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
- (ابن) عاشور محمد الفاضل، **التفسير ورجاله**، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966.
- (ابن) عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1404هـ.
- العبد محمود بن محمد، **الروضة الندية شرح متن الجزرية**، صححه وعلق عليه: السادات السيد منصور أحمد، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة – جمهورية مصر العربية، ط1، 2001.
- (ابن) عجيبة الحسني، **تقييدان في وحدة الوجود**، حققه وترجمه إلى الفرنسية: جون لويس ميشون، دار القبة الزرقاء، مراكش، ط1، 1998.
- (أبو) العدوس يوسف، **الاستعارة في النقد العربي الحديث**، الأبعاد المعرفية والجمالية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1997.
- العز بن عبد السلام، **مجاز القرآن**، تح: مصطفى محمد حسين الذهبي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1999.

- عصفور جابر، **قراءة التراث النقدي**، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، (د،م)، ط، 1991.
- العقاد عباس محمود، **اللغة الشاعرة**، كتاب المجلة العربية، الرياض، العدد211.
- عكاشة محمود، **تحليل الخطاب**، دار النشر للجامعات، القاهرة، 2013.

(غ)

- غركان رحمن، **نظرية البيان**، خصائص النشأة ومعطيات النزوع التعليمي، دار الرائي للدراسات والترجمة، دمشق، ط1، 2008.
- الغزالي أبو حامد، **مجموعة رسائل الإمام الغزالي**، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الغزالي أبو حامد، **إحياء علوم الدين**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
- الغزالي أبو حامد، **إحياء علوم الدين**، ضبط وتوثيق: أحمد عناية وأحمد زهوة، دار الكتاب العربي، بيروت، 2010.

(ف)

- فائزي توفيق، **الاستعارة والنص الفلسفي**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2016.
- الفارابي أبو نصر، **في المنطق**، تح: محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986.
- (ابن) فارس أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، **مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، 1979.
- (ابن) الفارض، **ديوان ابن الفارض**، المكتبة الثقافية، لبنان، (د.ت).
- فاولر روجي، **اللسانيات والرواية**، تر: أحمد صبرة، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، 2009.
- فضل حسن عباس، **البلاغة فنوها وأفنانها**، دار الفرقان، إربد، ط4، 1997.

(ق)

- القادري منير، **ديوان الأمداح والسماع**، مطبعة إليت، 2001.
- القاسمي جمال، **محاسن التأويل**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957.
- القيرواني ابن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت.
- قيس بن الملوح، **ديوان قيس بن الملوح**، جمع أبو بكر الوالبي، دراسة وتعليق: يُسرى عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990.
- قيس بن الملوح، **ديوان قيس بن الملوح**، تحقيق رحاب عكاوي دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة 1، 1994.

(ك)

- كارناب ردولف، **المدخل إلى فلسفة العلوم**، تر: السيد نفادى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 2003.
- الكرماني شمس الدين، **الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط2، 1981.
- كوهن جون، **بنية اللغة الشعرية**، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري. دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1986.

(ل)

- لا يكوف جورج، **حرب الخليج أو الاستعارات التي تقتل**، تر: عبد المجيد جحفة وعبد الإله سليم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2005.
- لايكوف جورج وجونسون مارك، **الفلسفة في الجسد، الذهن المتجسد وتحديه للفكر الغربي**، ترجمة، عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2016.

- لايكوف وجونسون، **الاستعارات التي نحيا بها**، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال، ط 2، 2009.
- ليونارد جاكسون، **بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية**، تر: ثائر ديب، دار الفرقد، دمشق، 2008.

(م)

- المدني علي بن معصوم، **أنوار الربيع في أنواع البديع**، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ط1، 1968.
- مفتاح محمد وأحمد بوحسن، **انتقال المفاهيم والنظريات**، منشورات كلية الآداب/جامعة محمد الخامس، الرباط، 1996.
- مفتاح محمد، **المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي**، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1999.
- مفتاح محمد، **مجهول البيان**، دار توبقال، البيضاء، 1990.
- مقاتل بن سليمان، **تفسير مقاتل بن سليمان**، تح: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002.
- المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- (أبو) مدين شعيب، **الديوان**، جمع وترتيب: العربي بن مصطفى الشوار، مطبعة الترقي، دمشق، ط 1، 1938.
- (ابن) منظور جمال الدين، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.

(ن)

- النورسي بديع الزمان، **الكلمات**، تر: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 2011.

(هـ)

- الهاشمي أحمد، **ميزان الذهب في صناعة شعر العرب**، تحقيق: أنس بـــديوي، دار المعرفة، بيروت.

(ي)

- يحي بن سلام، **تفسير يحي بن سلام**، تح: هند شلبـــي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.
- اليعمري الربعي محمد بن سيد الناس، شرح الترمـــذي، **الـــنفح الشـــذي شرح جامع الترمذي**، تحقيق: أبو جابر الأنصاري، عبد العزيز أبو رحلـــة، صالح اللحام، دار الصميعي للنشر والتوزيـــع، الريـــاض، الطبعـــة الأولى، 2007.

ثانيا: بغير العربية

- Black M. **Models and Metaphors: Studies in Language and Philosophy**, Cornell University Press, First Edition 1962.
- Casakin Hernan Pablo, **Metaphors in Design Problem Solving: Implications for Creativity in International**, Journal of Design, Vol.1, No.2, 2007.
- Fauconnier Gilles, and Turner Mark, **The way we think: conceptual blending and the mind's hidden complexities,** New York, Basic Books, 2002.
- Fauconnier Gilles and Mark Turner, **Conceptual blending**, form and meaning, Recherches en communication, n° 19, 2003.
- Fowller Roger, **A Dictionary of Modern Critical Term**, Routledge, London/Newyork, 1987.
- Hesse M, **Models and Analogies in Science**, Notre Dame University Press, 1966.
- Lakoff, G.-& Johnson, M. **Metaphors we live by**. Chicago, University of Chicago Press, 1980.

- Littlemore Jeannette, **Applying Cognitive Linguistics to Second Language Learning and Teaching**, First published by Palgrave Macmillan, New York, 2009.
- Ortony, A. **Metaphor and thought**, New York, Cambridge University Press, 1991.
- Rasskin Diego-Gutman, **Chess Metaphors, Artificial Intelligence and the Human Mind**, Translated by Deborah Klosky, The MIT Press Cambridge, Massachusetts, London, 2009.
- Searle, R, **L' intentionalité**. Ed. Minuit, Paris, 1985.
- Sommer Elyse, Weiss Dorrie, **Metaphors Dictionary**, United States of America, 2001.
- Thagard Paul, **Philosophy of Psychology and Cognitive Science**, North Holland, 2006.
- Widdowsonc H. G, **Text, Context, Pretext/Critical Issues in Discourse Analysis**, Australia, 2004

للتواصل مع المؤلف:

البريد الإلكتروني:

mohamed.bazzi70@gmail.com

مُحَمَّد بــــازِّي

- محمد بازي كاتب وباحث أكاديمي من المغرب.
- أستاذ التعليم العالي.
- حاصل على شهادة التبريز في اللغة العربية.
- يشتغل مكونا للأطر العليا بمركز تكوين أساتذة اللغة العربية.
- حائز على جائزة المغرب الكبرى للكتاب.

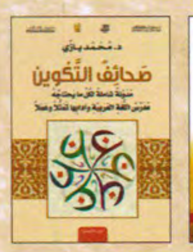
له مؤلفات عديدة منشورة أهمها:

- التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات.
- تقابلات النص وبلاغة الخطاب: نحو تأويل تقابلي.
- العنوان في الثقافة العربية: التشكيل ومسالك التأويل.
- نَظَرِيَّةُ التَّأْوِيلِ التَّقَابُلِي: مُقَدِّماتٌ لِمَعْرِفَةٍ بَدِيلَةٍ بِالنَّصِّ والخِطَاب.
- البُنَى التَّقَابُلِيَّة: خَرائِطُ جَدِيدَةٌ لتَحْلِيل الخِطاب.
- صِناعَةُ الخِطابِ: البُنى العَمِيقَة للتَّأْوِيلِيَّة العَرَبية.
- صناعة التدريس ورهانات التكوين.

البريد الإلكتروني: mohamed.bazzi70@gmail.com

- صدر له عن ضفاف:





إلـــى أي حد نحن في حاجة إلى مشـــروع تأويلي موســـع موضوعـــه الاستراتيجيـــات الاستعارية؟ مـــا البُنـــى الاستعارية التي تقـــوم عليها صناعة الخطـــاب؟ أصحيح أن الاستعارة بمفهومها القديم أصبحت محدودة الفعالية في الفهم، وأن إمكانيات استعاريـــة بمفاهيـــم جديـــدة حلـــت محلها ؟ ما المقصود بالمنوال الاستعاري؟ وماذا يعني المؤلِّف بالاستعـــارات الجَوَّالة؟ إلى أي حد يتسع الخطاب للمقاربة بالمنوال الاستعاري مثلما اتسع للمنوال التقابلـــي؟ كيف يغتنـــي علم التأويـــل المعاصر بالمقترحات الجديدة لتحليل الخطاب الاستعاري؟ ما حقيقة الاستعارة المنوالية رقميا ورمزيا وفنيا؟ وكيف يتم تداولها وتأويلها؟ هل ينطلق المؤلف من نمـــوذج بلاغي جاهز أو مـــن الدرجة الصفر لبناء نموذجه التحليلي؟


ISBN: 978-614-02-1498-9

ISBN: 978-9938-929-12-6

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com


منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com